جمال الغيطانى

حكايات الخبيئة



دار الشروق

حكايات الخيبة

الطبعـــة الأولـــى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

© دارالشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى : email: dar@shorouk.com

جمال الغيطانى

حكايات الخبيئة

دار الشروق

استقرار التدهور

كل شيء ممكن هنا. وكل شيء غير ممكن أيضًا.

ليس أسهل من الإحاطة بالأحوال المؤسسية، وما أعسر أيضًا، يتوقف الأمر على الساعى، على صاحب القصد ومضمر النية، مجرد الانتماء إليها باعث على الثقة وإظهار الخيلاء، أو الزهو أحيانًا، يكفى أن يقدم الإنسان نفسه باعتباره منتميًا إلى جهة ما تتبعها حتى تتغير النظرة إليه على الفور. خاصة فى المواقع الحساسة أو ذات الصلة، مثل سائر أماكن التدوين، والعبور، بدءًا من مراكز استخراج شهادات الميلاد وبطاقات تثبيت الهوية، إلى أقسام المحفوظات التقليدية والألكترونية، ودور الوثائق، ومراكز إثبات الأنساب. ونقاط العبور المحلية أو الحدودية. بحرية أو برية، الموانىء بأنواعها والمراسى، والمطارات الرئيسة والفرعية ومراكز الرصد العلنية والسرية، وبعض العاملين يقدمون أنفسهم متطلعين إلى من يواجههم أو يقصدونه بجرأة وتكتسى نظراتهم حدة ولمعة إذ يذكرون الجهة التى ينتمون إليها. وقلة منهم طبعوا أسماءهم مقترنة بالمؤسسة مباشرة. أو يذكرونها عند اتصالاتهم الهاتفية. كأن اللفظ الدال. المؤشر جزء من الألقاب والأسماء، بل إنه يبدو كإطار دال، حاد.

رغم كل الأطوار وتقلبات الأحوال وإعادة التنظيم وحلول أشخاص رئيسيين أو ثانويين مكان آخرين، إلا أن التكوين كله استمر مصدراً للقوة والمتانة، وبث التأثير. ورغم ضيق بعض الجهات الأخرى إلا أن ثمة وعياً شاملاً لا يمكن تحديد مصدره أو منبته يرسى حقيقة يعيها الجميع أنهم فى حاجة إلى حضور هذا الكيان الراسخ، المشع، الحائز على الثقة، إن مثوله هكذا يضفى قوة على تكوينات أقل شأناً مع أنها أعتق والزم!

استمر ذلك رغم كل الهنات والوعورات، وبدأ الموضوع متصلاً بجوهر خاص نجح المؤسس فى إرسائه وتقوية دعائمه، بحيث تظل المنشأة قادرة على البث، مشعة، حتى فى أوقات الشدة التى تمر بها، وترسخت قناعة عند الكافة أنها لو تعرضت للتصفية فستظل موجودة بشكل ما، بهيئة ما، وسيظل من يحرص على التعلق بها والسعى بها هنا وهناك.

ليس ذلك تصورا قاصرا على أمثال الجواهرى أو عم صديق أو عطية بك ومن يماثلهم، لكنه شمل الجميع حتى أولئك الذين قدر لهم أن يعبروا بداية الألفية الثالثة والتى كانت تبدو بعيدة جداً، نائية تماماً، عندما وضع المؤسس الحجر الأول وأزاح الستار عن اللافتة التذكارية المطلة على الحفرة.

مذكرات السفراء الأجانب والقناصل والشخصيات الفاعلة، المحفوظة فى سفارات الدول العظمى والدول التى تدور فى أفلاكها أشاروا إلى نفس المعنى فى مذكراتهم التى نشرها بعضهم بعد انتهاء خدماتهم أو تقاعدهم أو فى ذكرى الأزمات الكبرى، وقوعها وانفراجها، بدئها وانتهائها.

قال أحدهم ـ سفير البانيا التى كانت شيوعية ـ إن المؤسسة من الهيئات الفاعلة وأنها قوية ، مؤثرة ، مرت بأطوار عديدة ، لكنها خرجت من الهزات العنيفة أكثر ثباتًا ، لخص الأمر كله عندما أكد أنها يمكن أن تضعف ، أن تصل إلى مرحلة تبدو خلالها على شفا ، لكنها لا تحتضر ، ولا تموت أبدًا .

انتشر مثل هذا ا لكلام خلال الحقبة الاخيرة ، خاصة بعد تمكن الرئيس الأسبق لقطاع الحواسب الآلية ، وترسخ مكانته ، وسريان ملامحه فى الكيان كله ، ومرور الأعوام فى أثر بعضها وهو فى الطابق الثانى عشر متسيد ، متغلغل ، محتجب عن الكافة معظم الأوقات إلا فيما ندر ، حتى تجاوز مكثه ما قضاه منشىء الكيان ومؤسس البنيان المادى والمعنوى ، هل يحتاج القوم إلى إشارات كهذه خاصة بعد المعلومات الثابتة ، المؤكدة عن الهدر الأتم والخسران المبين فى قطاعات متعددة؟

ربما . . لا يستبعد البعض حضور عطية بك بشكل ما ، إنه مازال قادرا على إطلاق الإشاعات وصك العبارات رغم تقدمه فى العمر ، وتمكن أمراض عديدة منه ، لكن الأدهى والأمر ذلك الحصار المحكم ، المضروب حوله منذ الإفراج الصحى عنه ، خشية إقدامه على تنفيذ القفلة المرورية مرة أخرى . إن حراسته ومراقبته تمثل عبئا على أجهزة الأمن السيادية ، والمؤكد أن قسمًا خاصًا يتولى ذلك مستخدمًا الأساليب المتطورة ، ثمة خشية مستمرة من وقوعه فى قبضة دوائر معادية من الخارج أو الداخل ، رغم صموده الأتم فى مواجهة كافة المحاولات التى بذلت لمعرفة سر الإشارات السبع ـ وقيل الخمس ـ التى نفذ بها القفلة .

هل يمكن لعطية بك أن يتعاون مع سادة المؤسسة الجدد ـ بالنسبة إليه طبعًا ـ إذا طلبوا منه شيء؟

نعم . . المؤكد أنه ما من إنسان أمضى قدرًا من عمره هنا إلا وظل داخله التزام ورغبة فى التلبية إذا دعا داع حتى لو التحق بهيئة أخرى، أو هاجر إلى ديار غير الديار.

هل يتبع ذلك معنى المثل الشائع «القديمة أحلى ولو كانت كحلة»؟

لا . . الأمر مختلف تمامًا وأعقد . للمؤسسة منزلة ومعزة خاصة، لا يماثلها شعور أو حالة أو طور آخر، حتى عند أولئك الذين يعلنون السخط عليها أو الضيق بها أو يشرعون فى التمرد عليها، ولهذا تفصيل يطول.

من المحتمل أن يكون عطية بك وراء العديد من الأقاويل والمعانى المستترة التى تتردد خلال الحقبة الأخيرة والتى تدور بشكل ما، مباشر وغير مباشر حول الكيان القائم، القديم.

نعم . . الأمور مقضة، مقلقة، باعثة على الخشية والتوجس خيفة، من أى الأسباب لا أحد يمكنه التحديد أو التعيين أو القطع، لكن ثمة إدراك عام أن نقطة ما تكمن فى الزمن الآتى سيقع عندها أمر مهول، صدام، انهيار، تبدل.

فى أى اتجاه؟

لا أحد يدرى؟

ماذا يمكن؟

لا يمكن القطع أو الاستدلال !

بل إن بعض العتاة ربط بين الظواهر الطبيعية والأحوال المؤسسية وظهور الأبله ، من المعروف أن أراضى الديار كافة بعيدة عن أحزمة الزلازل المرصودة عالميًا وهذا ما جعل مصر آمنة هذا النوع من الكوارث الطبيعية ، رغم وقوع بعضها على فترات متباعدة ، والزلزلة التى هدمت فنار الإسكندرية فى القرن السابع أمرها معروف ، وللإمام السيوطى مؤلف متداول عنوانه «الصلصة فى وصف الزلزلة» يورد فيه أهم الزلازل التى وقعت حتى عصره ، غير أن أشهرها فى العصر الحديث ما وقع منتصف القرن التاسع عشر وقيل إن مركزه ناحية دهشور القريبة من القاهرة ، لكن ثبت عدم دقة هذه المعلومات خاصة بعد الزلزلة الكبرى .

بدأت عصراً ، تمام الثالثة وعشر دقائق ، ورغم قصر المدة التى لم تتجاوز أربعين ثانية إلا إنها خلفت ذعراً لم يعرفه القوم لشدتها وصعوبتها ، لم تعرف الديار مثلها خلال هذا القرن على الأقل ، بدت القاهرة بعدها منهكة ، متعبة ، وبالطبع تضرر الفقراء المقيمون فى البيوت العتيقة الآيلة للسقوط وخرجوا إلى الطرقات بأمتعتهم القليلة ، ولجأ بعضهم إلى المساجد والمدارس والأماكن الفضاء ، يقول من تواجدوا فى المقر الأصلى أن ما جرى للبناء لم يقع لأى عمارة أخرى بمصر أو المناطق التى تأثرت بالزلزلة والتى شعر بها سكان الجزء الجنوبى من جزيرة كريت .

تمايل المقر كنخلة فى عاصفة حادة ، قوية ، حتى أن المحتويات التى كانت تبدو ثابتة مثل المكاتب والمقاعد الوثيرة المبطنة بالجلد ، ساكسونية الطراز ، صارت تنتقل من أقصى الغرف إلى أدناها وكأنها أقراص طاولة

خفيفة، لكن الجدران والسلالم لم يظهر بها أى شروخ، ولم تسمع لها طقطقات كما حدث فى بعض العمارات الحديثة، يعرف القدامى أن المبنى مصمم ضد الزلازل القوية والتى لم تقع بعد . إذ إن أقوى ما عرفه العالم لم يتجاوز سبع درجات على سلم ريختر، المبنى يمكنه تحمل هزة من تسع درجات واثنين من عشرة، ومثل هذه الزلزلة تقتلع الأشجار لكنها لا تؤثر على المقر الأصلى المتين رغم ما يبدو على طلائه من عتاقة، فى القاهرة كلها لم يكن إلا عمارتان معمرتان، إحداهما فندق سميراميس القديم، ومقر الاهرام الذى شيده محمد حسنين هيكل وافتتح عام تسعة وستين بمؤازرة مباركة من الرئيس جمال عبد الناصر .

استمرت الزلازل لعدة أيام تالية، كانت مباغته، لا يمكن التنبوء بها أو التحذير منها، عدا الحيوانات التى أكد البعض أنها تجرى وتطلق أصواتًا حادة مغايرة لما اعتاده الخلق منها .

مرصد حلوان أصدر عدة بيانات اعتبر فيها تلك الهزات توابع للزلزلة الكبرى، ولكن بعض أساتذة كلية علوم عين شمس رفعوا مذكرة سرية إلى جهة سيادية أكدوا فيها أن ما يجرى مقدمات لهزة كبرى لا يمكن التبنؤ بحجمها أو طبيعتها وأن القول بالتوابع فيه تضليل وتهدئة للخواطر وصرف نظر عما قد يقع فى أى لحظة .

لم يكن هذا التقدير السرى الوحيد الذى عرف طريقه إلى الدوائر العاليا، ولكن ثمة تقريرا علميا آخر تم إعداده فى القاهرة، فى مركز الدراسات الطبيعية بجامعة القاهرة والذى يتلقى أبحاثًا ذات شأن من مراكز علمية متخصصة فى الغرب، خاصة الولايات المتحدة الامريكية التى خصصت له جزءًا من المعونة يتم تسديده على هيئة أجهزة ومنح فى

جامعة أركانساس . يؤكد التقرير أن مركز الزلزلة فى قلب القاهرة ، وليس على بعد ثمانين كيلو متراً إلى الجنوب الغربى ، فى منطقة دهشور كما أذيع ، إنها المنطقة الواقعة غرب النيل ، وثمة علامة هامة تشير إلى وجود الفالق الأرضى الرهيب المتصل بفوالق البحر الميت والشرخ الآسيوى العظيم الذى يمر تحت بحر العرب والمحيط الهندى ، ويتصل بالمراكز التى تسبب الهزات الأرضية العنيفة فى اليابان والصين .

ما هى العلامة الدالة؟

إنها الحفرة الدائرية التى يقوم حولها المقر الأصلى .

هل كان المؤسس على علم ، ولذلك أقدم على استخدام التقنيات المضادة للزلازل فى الأساس المتين؟

هل كان مُلمًا ، محيطًا ، ولذلك أعد ودبر ، أم إنه بُعد النظر وسداد الرؤية؟

قلة محدودة من المؤسسة أحيطت علمًا بهذا التقرير ، منهم سيادته بالطبع ، وكما يؤكد المقربون من أهل الطابق الثانى عشر إنه بدا ثابتًا ، متينًا عند وقوع الهزة ، لم تعكس ملامحه أى خشية أو حذر ، أو مجرد تفكير فى الخروج من المكتب ، بل إنه رفع رأسه ، وبدا كأنه يصغى ، ثم تناول القلم الحبر الماسى التكوين وخط به بضعة كلمات لم يعرفها أحد بالضبط ، ثم استأنف ما كان فيه من قراءة أوراق ، ومتابعة ما خط فيها ، لم يتحرك أى شىء فى الحجرة البيضاوية ، لا المكتب ولا المقاعد ولا حتى جهاز الحاسب الآلى الصغير ، الخاص به ، الذى كان يحمله بنفسه ولا يسمح لأحد بلمسه .

لم تعكس ملامحه أى تعبير أو شعور بخوف أو حذر، هنا يستدعى البعض ملامحه المستعصية على التصنيف أو التحديد، يتساءلون: هل رآه أحد يضحك؟ هل رآه أحد حزينًا؟ هل بدا تأثره عند فقد ابنته التى راحت فى ظروف غامضة تتعدد الروايات حولها حتى الآن رغم أنه لا يجرؤ أحد فى المؤسسة على الإشارة أو التلميح، وإذا كانت ضرورة فلا يخرج الأمر عن التفاصيل المعروفة، ولكن أثناء الإفضاء أو التصريح أو الأخبار تنتقل الإشارات الدالة على التفاصيل المحجوبة الممنوعة. هذا من أدق الأحوال المؤسسية، كل شىء محظور معلق بدون نطق، متداول بغير حكى، معروف ولكن لا يمكن نسبته إلى مصدر محدد، كل مستتر محكى، فى المراحل الاستثنائية فقط يقع التجاوز، وهذا الحال دقيق جداً، وربما يمكن تفسيره إلى حد ما بذكر ما وقع أثر حادث العربة، وإن بدا الأمر غير متصل.

المعروف أن لسيادته ولعًا بالسيارات، حتى ليعد من خبرائها فى الشرق الأوسط، حافظ لطرازاتها ومتقن لتطوراتها المحتملة، ملم بالفوارق بينها، مغرم بقيادة الحديث منها، والمؤكد أنه أشار على بعض الشركات العالمية بنصائح محددة أدت إلى تغيرات وتعديلات يعرفها المشتغلون، فى أى اجتماع لابد أن يتطرق إلى ذكر السيارات أو شىء ما متصل بها مثل الطرق السريعة وإشارات المرور الضوئية، والجسور العلوية وتقنيات تشييدها والطرق الجبلية وأصول رصفها بحيث تكون مناسبة للعربات. ومما يضرب به المثل اجتماع خصص لاستيراد أنواع جديدة من الأمصال المضادة بمناسبة قرب سفر الحجاج وكثرة الحديث عن الأوبئة المحتملة، خاصة الكوليرا الهندية، خلال تبادل الآراء الدقيقة

وفى ذروة الحوار المتخصص نطق فجأة وقاد الحديث إلى فضائل الجيل الجديد من العربات اليابانية التى ستنزل الأسواق العام القادم.

لا يعرف أحد عدد العربات العاملة فى خدمته، الوضع الآن مختلف عن المراحل السابقة، فى زمن المؤسس لم تكن هناك إلا العربة الكاديلاك السوداء، وكان سيادته يستخدم اللفظ القريب من الفرنسية، «اوتومبيل»، كان عدد العربات فى القاهرة كلها قليلا، يمكن حصره بسهولة، وإذا أضاء النور الأحمر عند مفترق طرق فلا تتوقف إلا سيارة أو اثنتان.

خلال إدارة البروفيسور قلقاسة للجراج كان من الممكن تحديد كل عربة ونسبتها إلى مسئول معين، ومن أهم القواعد المتوارثة منذ زمن التأسيس ألا تغيب أى عربة عن الجراج، أن تكون فى موقع الانتظار المخصص لها ليلاً إلا إذا صدر استثناء شخصى من البروفيسور عند القيام بمهام رسمية تستدعى ذلك مثل السفر، أو قدوم بعض الشخصيات الهامة من الخارج ومصاحبتها إلى أماكن السهر، أو السفر، أو القيام بمهام ذات طبيعة خاصة لخدمة نشاط النمرسى وفى هذه الحالة كان البروفيسور يوقع أمر التشغيل ويحتفظ به فى خزانة حديدية لها أقفال خاصة ومفاتيح ثلاثة موزعة.

هذا الوضع انتهى مع استقرار سيادته فى الطابق الثانى عشر وتمكنه الأتم منه، وتغيير معالمه، وترسيخ مهابته، ولهذا تفصيل، ما يعنينا وضع الجراج الذى تبدلت وظيفته تدريجيًا، بحيث أصبح قائمًا على خدمة سيادته أو من يرضى عنهم أو يؤيدهم بسؤدد.

عرفت المؤسسة أن أسلوبين لا ثالث لهما لتغيير الأوضاع، الأول

هـادئ، تدريجى، ويتم أحيـانًا فى صـمت وقد تبـدو إشارة قبل ذيوع ما يتعلق به . الثانى مباغت، عنيف مفاجئ للكافة حتى الأقربين، وهذا ما اتبعه سيادته عكس سائر من سبقوه. إن الإجراءات الحادة محطات رئيسة تؤدى إلى أخرى فرعية.

على سبيل المثال إبطال عزف الموشح الأندلسى على ضريح المؤسس مساء كل خميس طبقًا لوصيته، واستبدال الفرقة الموسيقية الميدانية بجهاز تسجيل وشريط يديره حارس المقبرة، ثم أهمل أمره تمامًا، لو أخذ القرار مجردًا لبدا ذا معقولية وحصافة، ولكن إذا وضع فى السياق المؤسسى العام لبدا علامة فارقة، إذ ينال من المقدسات المصونة والتقاليد الراسية، صحيح أن الأجيال تتبدل والأحوال تتغير، ولكن مثل هذه العلامات تميز وتخصص، إلغاء عزف الموشحات مقدمة لتغيير الأسس التى وضعت للطابق الثانى عشر، سواء من حيث الصياغة الشكلية أو المضمونية، هذا ما لحق الجراج أيضًا.

فى البداية أصدر سيادته قرارًا بشراء سيارة تخصص له، من طراز حديث، ومن شركة بارعة فى تصنيع العربات المصفحة، ذلك أن منصب المسئول الأول عن المؤسسة أصبح هدفًا فى حد ذاته بغض النظر عمن يشغله، لا يقتصر الأمر على الجهات العاملة فى الداخل الساعية إلى تقويض الاستقرار، إنما يشمل الخطر بعض الهيئات الأجنبية المناوئة، خاصة تلك التى يسودها القلق من بعض أنشطة المؤسسة فى مجال البحوث أو مناطق النشاط، بالتحديد الحزام المالاوى جنوب المحيط.

هكذا ظهرت المرسيدس المصفحة والتى لم تقض ليلة واحدة فى الجراج، إنما كانت معه باستمرار، وتبعها سيارة أخرى من طراز إيطالى

قيل إنها تمثل بديلاً، ثم قامت لجنة بشراء عربتين، الأولى مجهزة للرحلات البعيدة، والثانية يمكنها السير فى بحر الرمال الأعظم خلال قيامه برحلات القنص مع أصدقائه من أثرياء العرب، فى نهاية العام الأول المنقضى على وصول المرسيدس المحصنة تم استبدالها حرصًا على هيبة ومظهر المؤسسة، ولم يعُرف شىء عن المرسيدس الأولى، فى الوقت الذى تردد إنه تم تخصيص سيارة لخدمة البيت وقضاء حوائجه، العبارة هنا لا تعنى واحدة، بل فى الحقيقة ثلاث، لأن الخدمة تستمر على مدار الأربع وعشرين ساعة، ولكل عربة سائق.

بالطبع لم يقتصر الوضع الجديد عليه، فليس من المنطقى ولا من المعقول أن يأكل اللقمة كلها منفردًا، لابد من شىء يخرس به أفواه المتطلعين، المتابعين، المضمرين فى صحتهم ما لا ينطقون به، هكذا تم لأول مرة تخصيص عربات لرؤساء القطاعات الرئيسية من طراز حديث، فرنسى، ولمديرى الإدارات والفروع، عربات رومانية وسلوفانية، وأنشىء قطاع الضيافة بمبادرة من سيادته، وأسنده إلى عبده النمرسى الذى يتمركز الآن فى الطابق الثانى عشر قويًا، مهابًا، يخشى جانبه ويسعى إليه القريب والبعيد، لم يمنع هذا تندر البعض سرًا، وقيل إن عطية بك ضحك لأول مرة بصوت مرتفع، من القلب عندما أصغى إلى النبأ، وأبدل اسمه على الفور «قطاع القوادة»، وهذا ما صار يعرف به خاصة بين المترددين على مقهى رشيدة النمساوية، وخلال الأحاديث الخفية التى تدور همسًا بين العاملين وهذا وضع نشأ بعد تولى سيادته ولم يكن معروفًا من قبل، فمن كان لديه شىء أو انشغال بشأن كان يقدم على إعلانه والبوح به علنًا بدون خشية، هكذا دعاهم المؤسس، ولكن.. ماذا بقى من زمنه وعهده القديم الآن؟ ماذا بقى؟ أنه يتحول تدريجيًا إلى

ما يشبه سيرة طيبة، خالية من العيوب والنتوءات المقلقة، بالتأكيد ثمة عاملان مؤثران، الأول اتساع المساحة الزمنية، والثانى ما أطلق عليه الجواهرى: استقرار التدهور، ومما نسب إلى عطية بك قوله أن المؤسسة أغنى وأمتن من أى جهة أخرى والدليل هذا النهب المستمر بمعدلات لا يتصورها المؤسس فى أشطح حالاته، ومع ذلك كله ما تزال الدعائم قائمة، والمرتبات تصرف فى موعدها، والأرباح توزع على العاملين فى نهاية العام، والصفقات تعقد، والندوات تقام، والضيوف يفدون من الخارج، الأضواء أشد بريقًا، يردد أخرون تساؤلا: لماذا مصدر هذه الخشية الغامضة التى تتردد عند الكافة، حتى مع اختلاف المستويات، المعنوية والمادية.

ثمة ملاحظة لابد منها، لا يعنى نسبة قول معين إلى الجواهرى أو عطية بك أنهما نطقا به فعلاً. ليس من المؤكد حتى قدرتهما على الكلام، إذ يؤكد الأشمونى أن عطية بك فى غيبوبة مستمرة بسبب أدوية مقررة له، تبقيه فى حالة بين بين حتى لا يسترد وعيه ويقدم على تنفيذ القفلة المرورية مرة أخرى إما بتنفيذه الإشارات السبع فى تسريب أسرارها إلى من ينوب عنه رغم الحصار المضروب عليه، لقد أساءت القفلة إلى البلاد ونالت من هيبتها وسمعتها فى نظر الصديق قبل العدو، ولا يخفى أن عطية بك مازال شاغلاً للعديد من أجهزة الدولة، وله أرشيف خاص فى جهاز أمنى سيادى، يحوى كافة المعلومات المتصلة به، والصور الملتقطة له فى مراحل مختلفة من العمر، مع التركيز على أجزاء معينة من الوجه، مثل الجبهة والعينين، ومن المؤكد إنه تقرر كحالة موضع دراسة حتى الآن فى الأكاديمية العليا للشرطة، ويعرف ما أقدم عليه بعملية الخطوات السبع

ويتم تنقاقلها شفاهة، إذا لا يوجد ملف يضم التفاصيل، خشية تسربها إلى من يقدم على تنفيذها مرة أخرى، لكن ثمة حكاية أخرى تروى على نطاق واسع يتجاوز المؤسسة الأمنية ويلمح البعض إلى تسريب تفاصيلها عبر بعض المنتمين إليها. ذلك أن ضابطًا كبيراً برتبة لواء، تلقى تعليمات من قيادة رفيعة المستوى بتسليم صورة من عملية الخطوات السبع. بحسن نية تلقى الأوامر التى اعتاد على تنفيذها بدون تفكير، هكذا لقنوه وعلموه منذ التحاقه بأكاديمية الشرطة، إطاعة الأمر ولو كان خاطئًا، المهم.. الضبط والربط. كان على وشك الاستجابة، إلا إنه تلقى مكالمة هاتفية من زميل قديم، رجاه ألا يسلم هذا الملف حتى لو كلفه الأمر وظيفته، أبدى دهشته وبالطبع إذا كان الأمر سينتهى إلى مثل هذه التضحية فلابد أن يعرف الأسباب!

قال صاحبه إن التفاصيل ستنتهى إلى إسرائيل، وأن أحد أهدافها الحصول على الملف، طبعا الهدف واضح، الإلمام بالخطوات السبع التى تؤدى إلى إحداث القفلة المرورية وشل الحركة تمامًا فى العاصمة.

لم تكن الأمور العامة قد اتضحت تمامًا بعد، يضاف إلى ذلك أن العلاقات البادئة مع دولة إسرائل كانت تصطدم بعقبات شتى، وميراث غير هين من العداء على الجانبين، غير أن رغبة القيادة السياسية وقتئذ الاستجابة إلى بعض الطلبات التى كان يبديها مناحم بيجن سراً وعلانية للإسراع بإنجاز بعض مراحل المفاوضات، ويبدو أن الزعيم الليكودى العنيدأحرج صديقه المصرى فرهن التقدم فى المفاوضات بالحصول على سر القفلة المرورية، هذا ما تردد، غير أن الضابط برتبة لواء.. أبى واستجاب تمامًا إلى ما طلبه صاحبه القديم منه، وبعد أن ماطل فى تسليم

الملف، وخوفًا من تسربه أقدم على فعل يعد الأول من نوعه فى التاريخ المعاصر لتلك المؤسسة الأمنية إذا أغلق باب الحمام الملحق بمكتبه، وسكب بنزين الولاعة الصغيرة، وأشعل النار ليختفى كل أثر للأوراق الحاوية على الخطوات السبع، وسائر ما يؤدى إلى القفلة المرورية. ومنذ ذلك الحين يتم دراستها شفاهة.

ربما كان الملف منطلق اهتمام إسرائيلى خفى وخاص جدًا بالمؤسسة، والذى حير البعض طويلاً، ذلك الطلب الرسمى الذى تقدم به المستشار الفنى للسفارة بخصوص طلب دراسة نظم العمل فى الجراج، ومستويات المهارات المختلفة عند السائقين.

مكنـــون

حتى مرضه الأخير، اعتاد المؤسس استخدام كلمة «أوتومبيل» الفرنسية، لسنوات عديدة لم يعرف العاملون الأوائل إلا الكاديلاك السوداء الخاصة به. اشتهر أمرها وذاع بعد ظهورها فى فيلم «غزل البنات»، عرضها سيادته على الفنانة ليلى مراد التى لم يخف إعجابه بصوتها وفيوضات حسنها.

إلى ما قبل التأميم بشهور كان يقودها بنفسه. فى أحد الأيام ظهر أمام المقر جالسا بجوار سائق نوبى منضبط القوام، عميق الصمت، طويل النظرة، كل ما عرف عنه أنه عمل مدة طويلة فى الخارجية وصحب عددا من السفراء البارزين إلى دول الدرجة الأولى، مثل بريطانيا العظمى، وفرنسا، والولايات المتحدة، ودول البينولكس.

لم ينطق أحد استفسارا عن ظهور سائق، هل سيدوم ذلك أم أنه حال مؤقت؟ حتى عم صديق لم يسأل، الكل اعتادوا مقابلة أحواله بالصمت حتى وإن انشغلوا بها.

السكوت على أحوال الطابق الثانى عشر من الأصول القديمة، يمكن القول إنه الصمت فى العلن، خاصة لمن يمتون إليه مباشرة، أو المقربين، كلما اتسعت الدائرة تزايدت الجرأة وعلا الهمس.

من الفئات التى أولاها المؤسس اهتماما خفيا غير معلن، السائقين بتأثير عوامل عديدة، منها خصوصية وضعهم الجامع للقرب وللبعد. فمن ناحية هم لصيقون جدا بكبار المسئولين عن القطاعات المختلفة، مطلعين على دخائلهم، والأماكن التى يقصدونها. يعرفون ضيوفهم، وإذا لم يلموا بالحقائق مباشرة استنتجوا من الشواهد، ومهر بعضهم فى رصد التفاصيل الصغيرة، وخمنوا واستنتجوا ما يقدرون عليه من قراءة الملامح ورصد الأحوال، ولبعضهم فى ذلك معاينات غريبة.

يؤكد عم شرف أقدم السائقين وأمهرهم أنه يعرف مكنون من يعمل معه بالنظر أو شم الرائحة التى تختلف طبقا لأحوال السرور والغضب، يمكنه تقدير درجة المتعة التى عرفها كل منهم مع امرأته عند تمام المضاجعة!

لم يفتْ المؤسس خطورة وضعهم وحساسيته عندما بدأ تخصيص عربات لرؤساء القطاعات عقب التأميم. بل إن بعضهم يؤكد تعمده الاستعانة بالنوبى كرسالة خفية منه إلى النظام السياسى والأجهزة الأمنية القوية فى ذلك الحين، إذ وضع فى الاعتبار التفسير السلبى من جانبهم لانفراده بقيادة العربة.

غير أن الجراح عرف إهتماما خلال المرحلة الأخيرة غير مسبوق، حتى يمكن القول إن سيادته يديره بنفسه عبر الهاتف من الطابق الثانى عشر، بعد عودة البروفيسور إلى موقعه منكفئا، مغلوبا على أمره بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى، صار مكتمل رجائه وذروة أمله المكث مديرا للجراح، سعى إلى إرضاء كافة من يمت بصلة إلى الطابق الثانى عشر، لكنه فوجىء باتصالات مباشرة لم يتوقعها.

هكذا.. بدون أى تمهيد. بدون مقدمات من هيئة السكرتارية، رنّ

جرس الهاتف الداخلى، كادت السماعة تفلت من يده، اجتهد لضبط
نفعاله، طلب سيادته تخصيص سيارة لموظفة يسمع باسمها لأول مرة،
سهير الفيومى. انضمت إلى هيئة المكتب، حدد سيادته المواصفات،
تكييف، زجاج مركزى، جر أمامى، فوانيس للضباب.

خلال المهاتفة، أبدى البروفيسور امتثالا أصوليا، بث عبر صوته كافة
ما يقدر عليه من ولاء ورغبة فى القربى وقدرة على تمام الطاعة، اجتهد فى
تحوله بطاقة مكوناته إلى صوت، اللقاء صعب، وسيادته محتجب تماما.

بعد أن خلا إلى نفسه، انتبه إلى إصرار سيادته على تركيب فوانيس
الضباب ذات الضوء الأصفر. لماذا.. مع ندرة استعمالها فى مصر؟ لكنه
خشى ترديد الاستفسار، ليس علنا إنما بينه وبين نفسه.

لكن.. ما سر اهتمامه بسهير الفيومى.

يخجل البروفيسور من نفسه. ألا يقوم بدور يشبه مهام النمرسى
المقرب، المتمكن الآن؟ رغم ذلك اعتبر الاتصال به نعمة يجب الفخر
بها. إذ نادرا ما يتصل سيادته بأحد رؤساء القطاعات، إنه يبلغ رسائله
عبر اثنين وقع اختياره عليهما، الأول صادق الأدفوى وكان عاملا بقسم
الهاتف، والثانى حرير السويسى، وهذا لم يعرفه أحد من قبل، ولم
يسمع به حتى النمرسى المعنى بتقصى أصول العاملين، وانتماءاتهم،
أهوائهم، وأمزجتهم، خاصة أولئك القريبين من الطابق الثانى عشر،
غير أن البروفيسور انتظر طويلا، عاد سيادته إلى الاتصال به عبر حرير
السويسى بالتحديد، كان يشك أحيانا فى وقوع المكالمة، لكنه يستعيد
تفاصيلها، ويحرص على إنباء الآخرين بها بمناسبة وبدون مناسبة، كان
يحيد بأى حوار ليقول فجأة:

«سيادته اتصل بى . . »

يسأل محدثه

«من ؟»

يقول، مشيرا إلى أعلى .

«سيادته طبعا . . »

ثم يروى حوارا جرى، فى البداية يقص على مستمعه ما قاله هو فقط، على أساس أنه غير مخول بإفشاء ما قيل له، ثم تطور الأمر ليقص حوارات لا صلة بينها وبين تلك المهاتفة اليتيمة، واستمر فى ذلك وأمعن حتى كان يرد أحيانا على أحواله بنفسه، فثمة مكالمة متخيلة تثير عنده الراحة والرضا، وأخرى تبث فى نفسه الانزعاج حتى ليضطر إلى بلع جرعة مضاعفة من مهدئ نصحه الطبيب باستخدامه لينام .

لم تكن علاقة البروفيسور بالسائقين على ما يرام دائما، لكنه استطاع على مدى سنوات عديدة أن يتعامل معهم، وأن يتفهم أحوالهم . وأن ينوع أساليبه، ولم يكن جاهلا بسخريتهم منه، وتسميتهم الحركية له «قلقاسة»، واستعادتهم بعض الوقائع الصغيرة التى صارت من نوادر المؤسسة، مثل واقعة السمك .

حدث أن صدرت توجيهات من أدارة المتابعة بسفر عربة مجهزة إلى فندق الغزل القديم بمدينة بورسعيد فى مهمة لم تُعرف بالضبط . أثناء توقيع البروفيسور للأوراق الخاصة بالمهمة خطر له أن يكلف الغنايمى السائق بشراء أكلة سمك طازجة .

«أعرف أنك ولد مفلفل وجدع . . »

«رقبتى لك يا بروفيسور . . »

على الفور أخرج أوراقا مالية من فئة الجنيهات العشر، كتب على ورقة بيضاء تماما خلو من أى شعار يمت إلى المؤسسة تفاصيل ما يرغب :

جمبرى كبير وسبيط وشبار بورسعيدى .

«أى شبار . . بورسعيدى . . فاهم؟»

بسط راحة يده موضحا طول السمكة الواحد، أجاب الغنايمى .

«أعرفه وجربته»

لم تفت البروفيسور الغمزة لكنه لم يتوقف عندها ولم يعلق حتى لا يقع التبسط، طلب من الغنايمى أن يتناول الغذاء على نفقته، البروفيسور دمياطى الجذور، عنده ولع بالأسماك فى أحوالها المختلفة. مقلية ومشوية ومطجنة، يعدها بنفسه. امرأته لا تتقن التعامل مع السمك ولحمة الرأس، أنهما موضع هيامه فى سائر أنواع الطعام، ومما يتردد أن المؤسس صحبه عند زيارته إلى إيران فى نهاية الأربعينيات، وكان الهدف إعداد طبق مصرى خاص، لا يعرفه إلا أهالى السواحل المخضرمين القدامى، طبق الملوخية الخضراء بالجمبرى، وتم تقديمه إلى شاه إيران فى عيد جلوسه على العرش، أعجب به وأثنى عليه وطلب بقاء الطباخ المصرى الماهر الذى أعد هذا الصنف المدهش، لم يمانع المؤسس. كان مشغولا بشيئين يسعى إلى استثمارهما فى بحر قزوين، أولا الكافيار الإيرانى فريد المذاق والذى يُعد الأول من حيث الجودة ويأتى فى المرتبة قبل الروسى، ثانيا . . البترول، ولم تكن الثروة النفطية الكامنة هناك

معروفة وقتئذ، لكن لم يتم الأمر . تعددت الأسباب والروايات، منها عدم وجود الملوخية الخضراء وصعوبة نقلها طازجة من مصر وقتئذ، واختلاف أحجام الجمبرى الفارسى مما أربك البروفيسور، لكن السفير المصرى يؤكد أن الشاه لم يعجبه دماغ البروفيسور وهيئته الغريبة واعتبر النظر إليها شؤما، لذلك أفلت بحر قزوين بما يحوى من المؤسس!

الغنايمى من أمهر السائقين، مشهور بعشقه لامرأة زنجية الأصل من قبائل الدنكا، تقطن ناحية الظاهر، ويصفها بأنها الرحمة ذاتها، وأصل الندى، لا يُكلف بمهمة إلا وينجزها على الفور، له وسائل شتى فى التعامل مع الموظفين، خاصة المكلفين بالأوراق الرسمية، خبير بدار المحفوظات والوثائق القومية بالقلعة، لتردده عليها صار ملما بمواضع ملفاتها وأنواعها حتى ليعرفها أكثر من العاملين بها، مدخله إليهم كتيبات الدعاية المؤسسية، من تقاويم مختلفة، وكراسات لتدوين الهواتف، والملاحظات، وصور دعائية للمشروعات.

اشترى السمك طازجا، تماما كما حدد البروفيسور، أثناء عودته، عند بلوغه كوبرى نفيشة جنوب الإسماعيلية، طلب منه ضابط النقطة المتحركة إبراز البطاقة والنزول. فتح الحقيبة الخلفية، على الفور تراجع الواقفون، رائحة ثقيلة، عفنة. يكاد يرى لها قوام ماثل فى الحر اليوليوى الصعب. اضطر الضابط إلى سد أنفه بيده عند تطلعه للتأكد من عدم وجود جثة متعفنة.

هل تعمد الغنايمى نسيان الثلج؟

هذا ما يقطع به الجميع، رغم تناوله رغيفا وشطره إلى نصفين، وضع كل منهما على إحدى عينيه. وقسمه الثلاثى بنسيانه الثلج. زملاؤه

لم يصدقوه، قالوا إنه كاذب لا يمين له، قصد إحراج البروفيسور الذى ابتلت ملابسه الداخلية خجلا وخشية عندما أبلغه ضابط نقطة المباحث المتقدمة بما جرى، اضطر إلى الذهاب لضمان الغنايمى بعد تقديم بطاقته العائلية المعتمدة.

يمكن القول إنه أصيب بجرح صعب الاندمال، هو من حرص طوال حياته على النأى بنفسه عن الشبهات، بعد عمر مديد، يصبح متهما أمام المؤسسة كلها باستغلال النفوذ، وتسخير المال العام إرضاء لشراهته.

لم يتلق توبيخا، لم يتخذ ضده إجراء، لم يجد حتى تلميحا، لو أن ذلك جرى لكان أفضل، ذلك أن شعورا داهما بالخجل جثم عليه، صار خلفية لكافة تصرفاته، إذا رن الجرس، يتأهب لمكالمة من الطابق الثانى عشر، تتضمن إشارة إلى واقعة السمك، إذا وصله خطاب فلا بد أنه يحوى استدعاء إلى جهة ما. لو تطلع إليه أحدهم ظنه يضمر أمرا يتعلق بالجمبرى، أو الشبار. أى حوار يجرى أمامه، لابد أنه يتضمن تلميحا ما.

كل الكلمات والمعانى والإيماءات تؤدى، ثمة خجل لا يتضاءل مع الأيام، وخشيته من فضيحة ستبدأ فى لحظة لا يمكنه تحديدها، صار بمناسبة وبدون مناسبة يدافع عن نفسه. يؤكد أنه دفع ثمن السمك، لكنه معترف بخطئه فى استخدام إحدى العربات المملوكة للمؤسسة فى شأن خاص.

لكن أحواله فى مجملها لم تعد تطمئن، إذ بدأت ليالى أرقه، وتفكيره الدائم فيما يحدث هناك، فى الطابق الثانى عشر. وكثر تبوله على نفسه، وزاد عليه الحصر، والحاجة إلى دورات المياه عند انعدام الإمكانية،

وصعوبة الموقع. مثل ركوبه المصعد، أو المواصلات العامة، أو لحظة مثوله فى اجتماع هام يستحيل مغادرته.

صار يخشى مغادرة البيت، ويكره البقاء فيه، إذا خلا بنفسه تشنجت ملامحه وذرف دمعا، وشرع فى مرافعة منطوقة أمام قضاة لا يراهم أحد غيره.

وجبة سمك أطاحت بالبروفيسور. صار ذلك مثلا يرويه العاملون والمنتسبون والمتابعون للأحوال. طبعا عندما يصغى البعض الآن إلى ما خلفه البروفيسور قلقاسة يبتسمون، يعدونها حالة مرضية، كان استغلال النفوذ فى العصر الشمولى يعد فضيحة، اختلاس بيضة من الجمعية التعاونية يستنفر الأجهزة المعنية. ها. أين ذلك مما يجرى الآن؟

غير أن الحديث فى هذا يطول. ما يقتضى شرحه. أو بمعنى أدق ذكره تلك الحالة المؤسسية النادرة، الغريبة، التى عرفها سائر العاملين فى الجراج بعد غياب البروفيسور الذى بدأ عاديا. ثم طال، فأدرك الجميع أن الأمر لا يتعلق بأجازة أو انقطاع عارض لظرف طارئ، لكنه فصل وانفصال وأن البروفيسور قلقاسة صار من الشخصيات التى يسرى حضورها بالذكرى والسيرة إذا استدعاها شخص ما.

خلال هذه الفترة بدأت تلك الحالة المؤسسية. عندما لا يعرف العاملون من يدبر أمورهم. من يحسم ومن يوجه تفاصيل العمل اليومى التى لا نهاية لها، لا شىء يتوقف، لكن أخطر الحالات تبدأ عندما يجهل القوم مدبرهم، من يصدر القرار؟ من يحسم؟

من التعبيرات الدارجة هنا «الرئيس المباشر»، فى بعض المراحل، خاصة الحقبة الشمولية جرت السخرية منها، لكن لم تفقد دلالتها أو مضمونها قط، فثمة «مباشر» لابد من التعامل معه. التوجه إليه، اتخاذه معبرا أو أداة للوصول إلى ذلك المحتجب، الجالس فى مكان ما من الطابق الثانى عشر، من تنتهى كافة الخطوط إليه.

من يدير الجراج؟

العربات تجيء وتمضى، المعدات تدور وتتوقف. الصيانة مستمرة، أوامر التشغيل تنفذ بدقة. البنية مستمرة، ثمة أخطاء يتم تلافيها بسرعة، كأن البروفيسور يدير عجلة العمل. كأنه لم يفارق موقعه، قابع، متمكن فى مكتبه، والله إن الناس ليفتقدونه، بل إن معظمهم ليحن إلى أيامه، ولحظات ثورته، وانفعاله المفاجئ، وعودته إلى هدوئه، كان أبيض القلب، لا يحمل ضغينة لأحد، ولم يعرف الجراج مديرا مثله، ليته لم يرشح لرئاسة المؤسسة، كان ذلك بداية اهتزازه ورجته، قبل واقعة السمك، هنا لابد من الإشارة إلى أحد تداعيات تلك الحالة المؤسسية، فما إن يفتقد أحد القطاعات رئيسه المباشر لسبب ما. اعتقال مفاجئ، إجراء استثنائى، مرض، يقبل القوم على بعضهم، يتضامون، يتقاربون، يحجم كل منهم عن إبداء التذمر، أو افتعال الشكوى، أو إثارة القلاقل، إن تراصا يبدأ، ويستمر مدة إلى أن تنجلى الأمور. لا يعرف أشد الخبراء علما بأحوال المؤسسة المدة التى يمكن اعتبارها حدا أقصى لهذه الحالة، والعناصر المؤيدة، الداعمة. هذا مما يستعصى على التفسير، ومما يتردد، أن المؤسس أبدع فى التكوين، حتى أن النظام كله يمكن أن يمضى بذاته فى حالة التعرض لهزات عنيفة، وخلو الطابق الثانى عشر من عقلية

متوائمة. يكفى ما حدث أثناء الحقبة الشمولية. وتعاقب القيادات المفروضة، الغريبة.

ما ينطبق على الأصل يسرى على الفرع، هذا ما أدى بالجراج إلى الانضباط والاستمرار مع أن الحالة المؤسسية النادرة عمالة، مستمرة بوجهيها.

فى توالى الأيام يصمت النشطاء فى أحوال القيل والقال. لكن شيئا فشيئا يتغير الوضع، أحيانا تنتهى الحالة بإجراء محدد، وأحيانا بسلسلة من التطورات الهادئة التى لا يلحظها أحد فى البداية.

إلى أى نوعية ينتمى ما جرى؟

فى خطوة غير مسبوقة، اتصل النمرسى شخصيا بعم شرف، استدعاه إلى الطابق الثانى عشر مباشرة. ولم يكن الجميع فى حاجة إلى تخمين أو اجتهاد ليكتشفوا أن أمور الجراج تُدار بواسطة سيادته، وأنه يُتابع أدق التفاصيل وأصغرها شأنا. وقال بعض القدامى إنه يعود إلى الأصول، قال المؤسس يوما إن من يضع يده على الجراج يمسك البنية كلها ويسيرها كيفما شاء!

لماذا شرف الدندراوى بالتحديد؟

السؤال متعلق بعم شرف نفسه، لفرادته وقدمه، من الطبيعى أن يختار سيادته من يعمل معه. وبالتأكيد جاء قراره بعد إمعان وحصر. لكن ما حير العاملين التعليمات المصاحبة.

فى لقاء سيادته بعم شرف خاطبه باسمه مجردا، ثم أمره بالانفراد، ألا يخالط زملاءه خلال فترات الانتظار، الكف عن ارتياد المقاهى ليلا،

خاصة مقهى رشيدة النمساوية، التوقف عن تناول الإفطار على عربة الفول الشهيرة، ناحية بولاق والتى يقصدها بعض من ذوى الحيثيات المرموقة، خاصة الفنانين والصحفيين، ينتظرون داخل عرباتهم، ويسرع إليهم الصبية بالسندويتشات ذات المذاق التام.

بدأ عبده النمرسى إعداد مكان لسائق سيادته، أمر بحفر تجويف مستطيل فى الجدار يشبه المحراب، بيضاوى، تتوسطه دكة مستديرة من رخام صقيل بلا مسند، إلى هذا الموقع الفريد، صار أمر عم شرف الذى عُرف بين زملائه السائقين وعلى سائر الطرق بالحمامة، لخفته وهدوئه ولماحيته، وتحليقه بسمو أخلاقه وكريم صفاته وعشقه للمزاج الجميل. تمضى عليه الساعات فى انتظار متوحد بالوقت والمكان، شاخص إلى الأمام، لا يلتفت يمينا أو يسارا، نفس الوضع الذى يتخذه عند قيادته شاحنة على الطرق الطوالى التى يحفظ معالمها، مطباتها ومنحنياتها، وله فى كل موضع منها ما يدهش السامعين إذا حكى وأفصح، لكنه على الطرق كان يتفرج عليها وتتفرج عليه، له أماكنه الحميمة، وصلاته الوطيدة، ومسراته، وأحواله، لكنه هنا شاخص، قابع، لا يرد التحية حتى كما أمره النمرسى، حدث أثناء عبور سفير كوريا الجنوبية المدخل فى طريقه إلى المصعد الرئاسى أن لمحه. وانحنى ثم واصل سيره، ظنه تمثالا متقنا للمؤسس.

عندما تسربت أنباء وضعه الجديد إلى معارفه حنوا وأشفقوا. كيف يقيد هكذا، هو من أمضى عمره مرفرفًا، مهفهفا على الكافة، يتنقل من موضع إلى آخر، من وقت إلى وقت، وإذ يفرغ يجلس بين القوم، من مقاهى بولاق إلى نواصى الحسين والسيدة والأرصفة المحيطة بقايتباى

والسيدة نفيسة حتى ليعجب البعض من مكثه المستمر على مرأى ومسمع، ليلا ونهارا، متى ينام إذن؟ متى يمضى إلى بيته؟ كيف تظل ملامحه نضرة طوال جلوسه إلى مقعد القيادة، لا يفتر طرفه ولا يدركه نعاس أو يبدو عليه ذبول.

لم يتغير تعبير وجهه الهادئ، الرقراق، إلا بعد انقضاء ثلاثة شهور على جلسته تلك. مجرد تبدل طفيف لم يلحظه حتى المقربون منه، الغريب أنه تكيف مع وضعه الجديد المتناقض مع كافة ما نشأ عليه، وما عرضه، وفيما بعد قال لامرأة بدينة تبيع البليلة من أذان الفجر إلى ما قبل شروق الشمس، مكانها المختار، المفضل، المعروف منذ الأربعينيات، عند مدخل حارة الجودرية فيما يلى مسجد المؤيد. إنه فى البداية فوجئ، كأن جرارا ثقيلا ظهر أمامه فجأة أثناء تقدمه على السريع. عليه أن يتصرف، ألا يستسلم لأى وضع مهما بلغت خطورته، الثبات مهلكة، هكذا أوهم نفسه أنه يجلس إلى عربة يألفها ويتطلع عبر النافذة إلى ما يمر به، لصيق بمقعد القيادة.

قال إنه جاهد فى البداية، لكنه لم يستسلم للضيق، استمر محدقا أمامه، بدأ باستعادة ما رآه وعاينه فى أسفاره، لأول مرة يدرك أنه لم يتفحص ما مر به، ولم يفكر فى الأشخاص الذين عرفهم، راح يسترجعهم على مهل، وأمعن فيما تلى ذلك فصار يخصص يوما لطريق معين، أو لموقف مر به، أو لمكان ارتبط به، أو شخصية عرفها ولم تفارقه ملامحها، أدهشه ذلك، خاصة عند اكتشافه أمورا لم يتحقق منها وقت وقوعها، ثم بدأ يتذكر لحظات لم يكن واثقا أنه عاينها أو مر بها، تداخل هذا بذاك. لكنه فى كل الأحوال استغرق ولم يضايقه إلا حصر البول.

قال عم صديق النوبى فى إحدى مرات بوحه النادرة. وكان ذلك فى نادي الروس البيض الذين هربوا من الثورة البلشفية وجاءوا إلى مصر، واستأجروا شقة فسيحة فى الطابق الأول من العمارة المجاورة لمقهى فينكس بشارع عماد الدين. وكان المؤسس يرتاد هذا النادى لصلته بأنثى مجرية، لا يمكن الإحاطة بأوصافها. ولتفضيله الفودكا، التى أتقن الروس اللاجئين صناعتها أو الحصول عليها بوسيلة ما، وعندما توقف عن الزيارة وقضاء الأوقات به، أرسل عم صديق ليحضر له زجاجة فودكا. واستأنس الصامت، النبيل بالمكان. فصار يتردد ويمضى الوقت الجميل. والمؤكد أن امرأة روسية هامت به حبا، وأنشأت به الصلة، ولشدة هواها، كانت تلحسه بلسانها من شعر رأسه إلى أظافر قدميه وتتمرمغ أمامه باكية! . فى هذا النادى الذى أغلقه الحكم الشمولى فضفض عم صديق كثيرا، ومما قاله إن عم شرف يفوق المؤسس فى عدد النساء اللواتى يعرفهن، له على كل طريق أكثر من عاشقة، وأنه أهلك بصمته كثيرات، بعضهن نبيلات، قادرات، لهن الوسع والنهى. عم شرف صاحب مزاج نادر، لكنه غير موفق مع امرأته، تذيقه المر وتسبب له متاعب شتى، قال عم صديق متعجبا: هذه الغبية. . كيف تغضب عم شرف الدندراوى، الجميل، الجميل! ومصمص شفتيه أسفا.

عم شرف قديم، حلو الحضور، إنسانى القسمات، لا يمكن تحديد التاريخ الذى التحق فيه. بعض الأوائل يؤكدون أنه قاد العربة التى استقلها المؤسس لمعاينة قطعة الأرض والحفرة الدائرية، لكن. . هذا مشكوك فيه.

مع مرور الزمن. وتعاقب الأجيال، واختفاء الشهود على مرحلة

معينة. يبدأ توارى التفاصيل التى ظل الكافة يتطلعون إليها كحقائق مفروغ منها، يجرى ترديد وقائع أخرى، لا يمكن إرجاعها إلى مصدر معين. خاصة مع توارى المصادر. وانعدام التوثيق، وشدة التأويل، تلك حالة مؤسسية يعرفها المتابعون المدققون، وتعد من سمات الكيانات القديمة، الراسخة، والحديث فيها يطول.

المؤكد أن المؤسس اختاره للعمل سائقا للملك فاروق خلال الأربعينيات، عندما طلب منه أنطون بوللى ترشيح أحدهم من الموثوق بهم، شديد الصمت، ليصحب جلالته فى الرحلات الخاصة جدا.

حتى الآن لا يعرف أى إنسان، على أى مستوى، ماذا رأى أو سمع، لا نفع معه تودد الجواهرى أو دهاء عطية بك، ولا شدة ما تعرض له بعد قيام ثورة يوليو وتقديمه إلى محكمة الثورة بعد التحقيق معه فى السجن الحربى، استجوبه قائد الشرطة العسكرية أحمد أنور بنفسه، وإزاء صمته انفرد به الشاويش سامبو الدنكاوى فى زنزانة الحبس الانفرادى بالسجن الحربى، وكان متخصصا فى تعليق الرجال من أعضائهم.

عندما سأله البروفيسور عن صحة ما يقال إن سامبو أمضى أربعة أيام بلياليها ينتف عانته شعرة، شعرة، أومأ عم شرف مؤكدا، وعندما واصل البروفيسور محاولا الوقوف على التفاصيل عاد إلى صمته.

لولا المؤسس لما خرج حيا من الحربى بشكل ما، تدخل عند ثلاثة ويقال أربعة من أعضاء مجلس قيادة الثورة، كان على صلة وثيقة، قديمة بهم، أحدهم جمال عبدالناصر شخصيا. نجح فى إبعاد سامبو عن عم شرف، وقف نتف العانة، بقى جزء صغير منها يؤكد بعض

القدامى إن ما عداه لم يعد ينبت شعرة واحدة، لكن من العوامل التى استفزت سامبو، طول ذكر عم شرف ومتانته.

فى بداية الثمانينيات اهتم عدد من الباحثين الشبان بمركز الدراسات التابع للأهرام وتعاقبوا على عم شرف، أسرهم بلطفه وبساطته حتى أن أحدهم شرع فى تأليف كتاب عنه، لكنه لم ينطق، لم يكن هؤلاء آخر من جاءه. قصده بعض المؤرخين والباحثين العاملين فى مؤسسات دولية، ومعاهد متخصصة، متقدمة تتبع منظمات أجنبية، انتشرت فى الديار خلال السبعينيات. بعضها متخصص فى أحوال المؤسسة.

لم يستجب لضغوط مادية، مغرية، ذروتها عرض من العضو المنتدب للجمعية الملكية بأدنبرة، أن يحصل على مليون جنيه إسترلينى مقابل الحصول على صور نادرة ملتقطة له مع الأميرة فايزة، أثناء عمله سائقا خاصا لها عقب طلاقها من شاه إيران، وقبل زواجها من إسماعيل شيرين والذى اتخذ اسما تركيا فيما بعد. بولند أجاويد واستقر فى بيت يطل على البوسفور.. الأميرة فايزة، الزهرة، النضرة، باعثة البهجة.

يقول الأشمونى أدق من يستنتج السرائر عبر رؤية عابرة للملامح، إذا أردت إضاءة عم شرف الأسمر بمصباح داخلى نافذ، لا يمكن رصد مكانه يكفى النطق باسم الأميرة فائزة. عندئذ تتيبس ملامحه التى قدت من صبر وغموض عجيب، لكنه لا يتكلم، كل الناس تأخذ وتعطى، تسأل وتجيب، عداه هو، إنه مستمع فقط فكأنه مازال طفلا فى القماط، لم يتعلم نطق الحرف بعد، وبرغم ذلك إلا أن كثيرين، لا يفرغون من الجلوس إليه إلا ولدى كل منهم اقتناع بأنه أتم حوارا وجادله بالتى هى أحسن.

كثيرة تلك الحكايات حوله، عن خبرته، ومرجعيته، دقته الأصولية فى القيادة، وجلسته التى أصبحت من معالم التاريخ المرورى فى إدارة الانضباط المركزى.

جلوسه عبر سنوات طويلة متعاقبة، خاصة أثناء قيادة الناقلات الضخمة ذات المقطورات، كذلك الحافلات ذات الطابقين، وحتى العربات الصغيرة بدءا من الرولز الفاخرة، النادرة، إلى الأنواع الصغيرة الواردة من اليابان والنمور الآسيوية. قعدته الأمامية تلك شكلت هيئته وصاغت حضوره.

دماغ مرفوع بعمق، بثقة، متطلع إلى نقطة ما.. هناك إلى الأمام، مصغ باستمرار، قادر على رد التحية وتوصيل المعنى أثناء عبوره المدن والجسور والأطراف النائية، له صحب حميم. بل ومعجبات، أقاموا معه الصلات المتينة لحظات مروقه الخاطفة، وهذا غريب!

من هؤلاء، ذلك الرجل مرتدى الجلباب ذو اللون الواحد الذى لايتغير، درجة من البنى الفاتح، و«بلغة» مغربية الجلد والصنعة، زعفرانية اللون، اعتاد الجلوس عند مدخل متجر متخصص فى السجاد الإيرانى، ضبط مواعيد الإغلاق والفتح على مرور عم شرف، عندما عمل على خط المعادى، المخصص لنقل العاملين من مكان الضاحية.

بمجرد اقتراب العربة يقف الرجل أمام المتجر، يتطلع إلى هلة عم شرف. تنفرج أساريره، إذ يحاذيه يرفع يده بالتحية. يرد عم شرف ملوحا متوددا، مبتسما.

يا سلام.. تلك الابتسامة مصدر الإشراف كله، سعدية الجرجاوية

التى تجلس فى المقعد التالى مباشرة، لاحظت المتغيرات فى التحية المتبادلة. مرة تكون اليد مفرودة الأصابع، مضمومة، مرة أخرى منفرجة، أحيانا مستقيمة أو منحنية. تلتقى نظرتهما للمحة، خلالها يحدث التبادل البليغ، يحاط عم شرف بالأحوال كلها، ويعرف ذا البلغة الزعفرانية المغربية ما يجب أن «يتبع، وما يمكن حدوثه، والأصول الواجبة.

هكذا.. بدون نطق أو تبادل لفظ، ليست الحالة الوحيدة، على كافة الطرق التى قطعها أقام مثل هذه العلاقات، وأنشأ تلك الصلات، وعشق من لم يجلس اليهن ولم يلمحهن إلا لحيظات مارقة، لكنها حوت التساؤلات والأجوبة، والإيضاحات الممكنة.

ذات صباح تمهل، من انحناءة ظهره أدركت سعدية أن أمرًا جرى، المتجر مغلق، فى اليوم نفسه طلب من البروفيسور إعفاءه من هذا الخط، حاولت سعدية التدخل لاثنائه عن قراره، توسلت إليه، إذ أبدى صبرا جميلا خلال نزولها وعودتها بأطفالها الثلاث كان ذلك يوفر عليها جهد توصيلهم ونفقات عربة المدرسة، وقلق الانتظار، لكنه واجهها بعينين صارمتين، حزينتين، لن يمر بالطريق الذى خلا من صاحبه هذا. ولن يقصد الناحية، الغريب أن البروفيسور لم يخيب له مطلبا، بشكل ما كان يستجيب إليه. ربما لبركة غامضة أو لأسباب تتصل بطول المدة.

على الطريق المؤدى إلى مدينة رشيد بيت وحيد، تبرز مقدمته المثلثة حادة بشرفاتها الغريبة المدببة، لا يعرف أى إنسان العلامة التى كانت تدفع هذه المرأة التى شاع أمرها إلى الظهور فى الشرفة الأولى بمجرد اقتراب عم شرف.

جرى ذلك زمن عمله على الخطوط الطوالى الأولى. قبل أن يتوسع المؤسس فى شبكة النقل التى تدرس تفاصيلها الآن فى كليات الهندسة.

لم يطلق بوق سيارته كما يقسم معظم السائقين الذين لمحوها وتعلقوا بطلعها وفيضها الغزير، طول شعرها، وانطلاق ثدييها من قميص النوم الرهيف ذى الحمالات، الدال على كتفين تمتد لهما استدارة وتمام مكانة، لحظة تقاطع نظراتهما كانت تخصب الأشجار. غير أن الأنثى التى دفعته إلى التوقف والالتزام، مكانها فى الجنوب، تقيم فى بيت من طابق واحد، متواضع، على أطراف مدينة سمالوط، إذ شوهدت العربة التى تحمل شعار المؤسسة تقف بالقرب من قصر آل الشريعى القديم والذى تحول إلى مقر للسنترال المحلى، ثم إلى مصنع للسجاد اليدوى، لكن أحد المقربين من عم شرف، والذى لم ينقطع لسنوات عن تناول الإفطار بصحبته من عربة الفول أكد أنه لم يضاجع امرأة قط فى الحرام، ولم يزد على ذلك.

كل من عرفه ناداه باللفظ المفضل إلى قلبه، من قديم يصغى إليه ويعلم أن من يحبه يصفه به، (الحمامة) لأنه لم يركن أبداً إلى موضع بعينه، لم يستمر فى سهرة حتى نهايتها.

لماذا وقع اختيار سيادته عليه هو بالذات؟

إن توجسا سرى بين السائقين القدامى، خاصة عندما ألزم بهذه الجلسة فى المدخل، وحيد، على مرأى من كل عابر، لا يمكنه المفارقة، صحيح أن بعضهم اطمأن عليه، عندما تناقل العاملون بشاشته، وتطلعه صامتا، مبتسما إلى الكافة، حتى أن البعض من كبار المسئولين ورؤساء القطاعات بدأوا يتفاءلون به.

ما جرى لعم شرف يذكر بما حدث لفوزى الإدكاوى عامل التحويلة،

أمهر من أدار بدالة المؤسسة قبل تحديثها وأذكى من عمل فى الإتصالات وبه يضرب المثل فى الهيئة ، وسيرد ذكره فى موضعه . إذا أن اهتمام سيادته بالجراج أثار حيرة الكثيرين ، ولكن مع مضى الوقت أتضح ما كان يهمه ويعنيه من ضرورة إحكام قبضته على هذا المرفق .

غير أن عددا من الذين أزعجتهم التطورات البادية مع بدء استقرار سيادته واحتجابه لم ينظروا إلى ما جرى لعم شرف باعتباره قراراً داخلياً لا أهمية له . بل إنه إجراء يهدف إلى أمر آخر ، ذى دلالة .

عم شرف من العناصر القديمة فى المؤسسة ، مثله كصديق النوبى ، والجواهرى ، والبروفيسور ، وغيرهم ، أولئك الذين عاصروا المؤسس ، إنه أحد السبعة الذين أوصى بمد خدمتهم إلى آخر لحظة فى أعمارهم ، بحيث يفارقون المؤسسة وهم يعملون ، بالطبع لم تحترم هذه الوصية ، تماما كما جرى مع أمور أخرى كانت تبدو ذات قداسة . ولن تمس ، لكن . . هل يتصور أحد أن أى عنصر مصان تماما بعد إبطال الكثير من العلامات التى صاغها المؤسس وتمناها ، مثل إنشاد الموشح الأندلسى الشهير على ضريحه .

لماذا اختار عم شرف ، أجمل «حمامة» منفلتة ، محلقة؟ منذ انتزاعه والجراج فقد ركنا متينا ، خسر روحه ، تمسك كثيرون فى اعتماد سيادته على عم شرف ، خاصة أنه يتقن القيادة وله هواية بتتبع الطرز الجديدة من السيارات ، والاطلاع على أحدث الإمكانيات والتطورات ، وكثيرا ما شوهد بمفرده ، إما فى شوارع القاهرة ، أو على الطرق السريعة ، وهذا ما أدى إلى ذلك الحادث الغامض ، الذى اقترن بما جرى لعم شرف فى نفس اليوم .

عــــزب

بدأ الأمر بعد الظهر، حوالى الثالثة، لا يمكن معرفة المصدر بالتحديد أو تعيينه، هكذا الأحوال من قديم، ورغم سائر المتغيرات التى طرأت أو استقرت إلا أن ثمة أموراً يصعب هزها أو تبديلها أو فهمها.

بالطبع تختلف الصيغة من ناحية إلى أخرى ومن شخص إلى غيره، لكن المضمون لا يتغير، خاصة فى الوقائع الكبرى، بالطبع لا يلغى ذلك المهارات الفردية مثل طريقة الرواية، أو الإنباء عن الخبر، أو كيفية الإفضاء به، لم تعلن ساعة بيج بن الثانية إلا وكان كل شخص متواجد على علم أن سيادته تعرض لحادث أليم، هكذا وصف فى البداية، انقلبت به السيارة الخاصة عدة مرات، ويبدو أنه أصيب إصابة جسيمة.

هنا تعمل الحالة المؤسسية عليها، ما من ترتيب مهما أوتى من الحنكة والدربة يمكن أن يفطر سلوك الكافة مثل تلك الأحوال الخفية، إن الهمس يقابل أولاً بحذر بالغ. من يدرى . . ربما خبر كاذب، ربما أطلقت جهة ما هذه الفرية لاختبار رد الفعل.

عند مستوى معين، يتحدد اليقين أن ما يجرى تداوله ليس خيالات، أو إشاعات إنما ثمة حدث حقيقى، هنا تبدأ الاجتهادات، لا يحسها عادة

إلا بيان رسمى موثوق به. لأن كثيراً من البيانات لا يصدقها العاملون، ما معيار الثقة هنا؟ هذا مما يطول شرحه فلنرجئه.

همس بعضهم بوقوع اعتداء إرهابى، إن رئيس المؤسسة من الشخصيات المستهدفة، ليس لذاته فقط، إنما لمكانة التكوين وتأثر مجالات عديدة بكل ما يمسه، يتجاوز الأمر الأوضاع الداخلية إلى مستويات لا يمكن حصرها، كثيرون يعلمون أن سيادته رفض الحراسة، وأرجع العالمون بطبعة ذلك إلى رغبته فى الحفاظ على تحركاته خفية، نائية عن كل رصد، أحيانًا يختفى ثلاثة أو أربعة أيام، لا يعرف أهل الطابق الثانى عشر مكانه. لأنه يتصل بهم من أماكن لم يطلعهم عليها. ولاتدرى بها حتى زوجته الأجنبية التى اختلف البعض فى تحديد جنسيتها، فرنسية أم نمساوية، لا . . بل من أب إنجليزى وأم يونانية مولودة فى مصر، الأدق أنها روسية هربت أسرتها بعد الثورة البلشفية إلى البلقان، وأكد آخرون أنه تعرف إليها عندما أقام فى المانيا الديمقراطية موفداً من خليفة المؤسس الثانى لدراسة نظم الاتصالات، هذا فى الظاهر، لكن فى الواقع لم يكن ذلك إلا مهمة مخابراتيه متقنة، للحصول على أسرار صمام خاص يمنع تسرب القمح من الصوامع المعدنية، تزوجها ليس حبًا فيها ولكن لكراهيتها الشديدة للنظام الشيوعى، واطلاعها على أمور دقيقة؛ إذ كانت أمها من كبار المتنفدين فى جهاز الأمن الشرقى. لم يعرفها أحد، ولم تظهر فى المؤسسة، لكن مجلة الفنون المرئية نشرت صوراً لفرح كبير، ظهرت إلى جوار سيادته، تفحصها عبده النمرسى مطولاً، ولكنه لم ينطق، غير أن أحد السائقين من الجيل الوسط مال على زميل له وأكد أنه رآها

عند خروجها من مطعم قديم إلى جوار سينما قصر النيل يرتاده السفراء وعلية القوم القدامى. قال إنها حادة الملامح، لكنها بلا أرداف ولا صدر لها . . مسح !

بالتأكيد لم تكن بصحبته عند وقوع الحادث.

لم تستمر طويلا حكاية الاعتداء الإرهابى، حادث عادى نتج عن انفجار الإطار الأمامى، أو انحراف إلى الرمال، المؤكد أنه كان ينطلق بسرعة لم يعرفها رجال المرور على الطريق الصحراوى، يقود العربة المرسيدس حديثة الطراز التى أمر بشرائها فور توليه.

سيارة من طراز خاص، لم تظهر أمام المبنى، فى الموقف المعتاد قرب الحفرة الدائرية، مؤكد أن عم شرف قادها لأنه تسلمها من التوكيل واتجه بها مباشرة إلى بيت سيادته المعروف فى المهندسين، كان ينتظره أمام المدخل، سلمه المفاتيح، ومنذ تلك اللحظة لم يرها.

عند ظهورها على الطريق كان هواة العربات والمتخصصون والهواة ومن بقلوبهم أمل يتعقبونها ويحاولون الفرجة عليها من وراء ومن قدام، كثير من الإضافات التى طلبها بنفسه تدل على طول باع، ودقة إلمام.

كيف تنقلب سيارة حديثة كهذه ؟

لا توجد عربة تستعصى.

المهم وسائل الأمان، وهذه بالذات مزودة بأشدها تطوراً، بمجرد وقوع الخلل تنتفخ الوسائد، تحتوى الجسد فى مقعد القيادة، تحميه من الصدمات العنيفة، عندما تأكد الجميع أنه حادث مرورى، ردد بعضهم

أوصافًا للحطام الذى لا يمكن أن يتصور إنسان خروج من بداخله سليمًا ، أو حتى بإصابات خفيفة ، كأن ألة ضخمة طحنتها طحنًا .

هنا يمكن رصد بداية حالة مغايرة إلى حد ما ، فثمة من يرصد ، وأخر يأمل ، ويمكن القول إن عددًا لا يستهان به من العاملين تبادلوا نظرات ذات طبيعة خاصة ولزموا !

كل تصرف محسوب الآن وإن شاب بعض ردود الفعل الغموض ، مثل زعيق بعض قدامى العاملين ذوى الصلة الخاصة بالأولياء والأضرحة ، رفعوا أيديهم وعقيرتهم : يارب .

لكن . . ما المقصود بالضبط .

الدعاء لسيادته بالنجاة ، أم الدعاء بتأكيد ما سمعوه وخلاص الكافة من قبضته وتصرفاته الغامضة؟ يمكن القول إن مشاعر مضغوطة ، ممنوعة من البوح أطلت من العيون .

سرى الهمس بنجاته ، وخروجه من الحطام سليمًا لم يمس ، حتى أنه مضى بنفسه إلى نقطة الشرطة القريبة لتحرير محضر بالواقعة تمهيدًا لمطالبة شركة التأمين بأخرى مماثلة تمامًا .

وكأن بعضهم خشى من ثبوت ذلك ، فتحدثوا عن هرس مؤكد ، وأنه اختلط بالحطام حتى ليصعب فرز كل منهما عن الآخر ، ومما ذكى الأقاويل وأشعل الهمسات ظهور عبده النمرسى على الشاشات الداخلية متحدثًا عن إنجاز كبير سيعلن قريبًا لسائر العاملين والمتعاملين وكل من له صلة بهذا الصرح الهائل ، ذلك أن حلمًا كبيرًا سيتحقق ، إذ تقرر بشكل

نهائى قبول المؤسسة عضواً فى (الفيفا)، وأن هذا يعنى الكثير، وقال إنه بمجرد الإعلان عن مراسم الالتحاق والحصول على العضوية الكاملة فى (الفيفا) فإن إجراءات تسر الكافة سيعلن عنها، ومن المعروف أن المقصود بالأخبار السعيدة دائمًا خير يعم، إما منحة استثنائية أوعلاوة فى غير موعدها، أو توزيع مساكن تم الحصول عليها من الهيئات العمرانية، أو عبوات مواد غذائية بأسعار مخفضة.

بعد أن فرغ النمرسى من كلامه وأتم بيانه، ظلت الشاشات المعلقة فى مواجهة الأبصار الشاخصة فارغة، إلا من نقاط بيضاء متراقصة، ثم ساد صفو لثوان، ظهر بعده وجه جديد على الشاشة لكى الكل يعرفونه، صعد من الجراج إلى الطابق الثانى عشر مباشرة، وبدأ يلمع، والتلميع من العبارات المتداولة منذ زمن الخليفة الثانى للمؤسس وهذا أمر شرحه يطول، ربما عدنا إليه.

ما قاله النمرسى عن الانضمام إلى (الفيفا) مثير، وكثيرون ينتظرونه منذ مدة، إما لإدراكهم أهمية الخطوة أو للحصول على المنحة، ولكن الإفضاء بالأمر فى مثل هذه الظروف أفقده بريقه، وغطى عليه ظهور عزب الميدومى.

إن ظهور أى شخص الآن على شاشات الاتصال، فى هذا التوقيت بالذات له معناه ومغزاه، ويحدد اتجاهات عديدة، بل يمكن القول إن الموضوع لا يهم العاملين داخل المؤسسة فقط، إنما يمتد إلى قطاعات واسعة لها مصالح، ومراقبون أجانب يرصدون من مواقعهم فى السفارات لكتابة التقارير، وبالطبع السفارة الأمريكية فى مقدمتهم،

إن الوضع حساس جدًا نظراً لحجم التعاملات والقروض الممنوحة من المعونة وتشابكات أخرى. إن قوات المارينز أول المستنفرين، يتولى جنود البحرية تأمين داخل المبنى الضخم، الذى تعلوه هوائيات عجيبة لا ينافسها فى الغموض إلا تلك الموجودة فوق الطابق الثانى عشر.

رغم الموجه المكتومة فى المؤسسة ولكن ما شغل الناس هذا الظهور المكثف لعزب الميدومى والذى يعرف الصغير قبل الكبير الأسباب الداعية له. إنها مسئوليته عن ثلاجة البيت أولاً وأخيراً، ولهذا تفصيل.

محاذير ثلاثة

لا . . ليس الأمر كما يبدو من الظاهر ، بالتأكيد لها صلة وثيقة ، ربما ليس فى كافة المجالات ، ولكنها موجودة وراء تصعيد البعض أو اتخاذ قرارات محددة ، وليست بعيدة عن أمور يتم اتخاذها فى اجتماعات الطابق الثانى عشر ، صحيح أن الوضع واه جداً بالنسبة إلى ما كان عليه أمر صفية الابنوبى ، أو انتشار القليوبى ، أو حتى رشيدة النمساوية التى لعبت الدور الرئيسى فى الإسراع بإجراءات الالتحاق بالفيفا ، لكنها موجودة بشكل ما ، عند درجة معينة ، ليست منسحبة كما يخيل للبعض ، وليست ضعيفة ، لكنها تمارس عليه تأثيراً قويًا بحيث أنه يخشاها ، وبالتحديد بعد فقدها ابنتهما إثر الحادث الغامض الذى تعددت حوله الأقاويل .

ما هى حكاية عزب الميدومى إذن؟

أبداً . . إنها تفاصيل تتكرر فى المؤسسة ، وأحيانًا بنفس الشكل ، لكنها فى كل مرة تثير الاهتمام وتدعو إلى التأمل فى أحوال الخلق ، بعد تولى سيادته وتمكنه من الأمور ، وإجهازه تمامًا على البروفيسور قلقاسة ، شكت امرأته الأجنبية من تلف المطاط الذى يحكم إغلاق الثلاجة مما يؤدى إلى إفساد الطعام ، لقد ألقت فى صندوق القمامة بأصناف أجهدت

نفسها فى الإشراف على طهيها وتدبير حاجاتها، وبيت بلا ثلاجة صالحة يواجه مشاكل جمة.

الثلاجة نادرة، تمامًا مثل العربة، ذات بابين، ومساحتها كبيرة، أحضرها معه بعد عودته من المانيا الديموقراطية، لكنها صناعة غربية، ليس لها توكيل فى القاهرة، وهو لا يرغب الآن بزج نفسه فى كل كبيرة وصغيرة، لو أنها قبلت مدبرة أو شغالة مقيمة لتيسر الأمر، لكنها كانت تفضل قضاء كل شيء بنفسها. عدا تنفيض البيت، كانت تزورها سيدة من أقصى الجنوب، صامتة تمامًا، كل منهما لا ينطق إلا نادرًا، ورغم دقة المرأة الجنوبية وأمانتها الشديدة إلا أنها لا تتركها. إنما تشرف عليها وتوجهها ربما لتشغل نفسها، هى الغريبة، الوحيدة، التى لا عمل محدد لها، ولا صلات اجتماعية، إضافة إلى حزنها الثاقب على ابنتها التى قضيت مبكرًا جدًا، تضع صورها فى البيت كله، وكثيرًا ما رآها تبكى صامتة، فيدعها ويغلق الباب على نفسه وينقطع لساعات أو عدة أيام بمفرده.

مثل هذه الأمور الصغيرة تربكه، لم يتعامل مع الشارع إلا نادرًا، لايعرف البيع والشراء، إن المدد الطويلة التى أمضاها فى الغرف المغلقة إما للدراسة أو التدريب أو العمل أورثته طبعًا خاصًا ورغبة فى العزلة والقبوع، ينزعج من المكالمات الهاتفية، أو المقابلات الشخصية، لكن إذا وصلته رسالة يبادر إلى كتابة الرد فورًا، وأحيانًا يتجاهل بعض الخطابات أو المذكرات فلا يعرف أحد - حتى العاملون فى مكتبه - مصيرها مما أحدث بلبلة واضطرابا، خصوصا أن كثيرين تتعلق أحوالهم بتوقيع منه، إن القول بمكتب المؤسس المفتوح لكل الساعين إليه يبدو الآن وكأنه من مبالغات الماضى البعيد.

إن قضاء الحوائج الصغيرة أمر له أهله، والمهارة فى إدراك ما يحتاجه أمثال سيادته، انتشار القليوبى ألمت بالموقف، لها وسائلها التى أكتسبتها بالخبرة وطول تمرس. ليس من الضرورى أن ينطق سيادته، إن الوعى المرهف لدى من يحيطون به يتدخل ويعين ويفهم وينجز.

اتصلت بأحد العاملين القدامى وطلبت منه البحث عن شخص ذى مهارة خاصة فى إصلاح الأجهزة الكهربائية، خاصة الثلاجات.

لم يكن أمر عزب الميدومى مجهولا لكثيرين، لكنه كان معروفا عند مستوى معين، إنه طويل، نحيل، أصلع، ذو مهارات يعجب لها من يسمع عنها، يُقال إنه أصلح قطارا لحق به عطب أثناء سفره إلى أسوان، وفك ماكينة طحين إنجليزية المصدر، اندثرت الشركة التى صنعتها، وكانت مستعصية على عتاة المهندسين والاخصائيين، لا يعرف أحد أين درس بدقة؟ لكن المؤكد أنه خدم عدة سنوات بالجيش المصرى، وأبتكر عدة أمور هامة أدت إلى اهتمام فرع الخدمة السرية بالموساد، لكنهم لم يتوصلوا إليه. وظيفته الرسمية، كاتب بأقسام الصيانة، لكنه لا يجلس إلى مكتب محدد، دائم الحركة والتجوال، ما بين الجراج لإصلاح الأعطاب الصعبة، المعقدة، أو بعض الفروع المنتجة، أو فى مكان ما من لمبنى العتيق لتشغيل جهاز تكييف، أو إعادة التيار الكهربائى، إن الخرائط الخاصة بالمياه والكهرباء محفوظة فى الخزانة السرية بالطابق الثانى عشر، هذا معروف منذ زمن المؤسس، لكن.. هل الوضع كما هو أم تغير؟، وإذا كانت الخزانة ماتزال فى موقعها بعد التغيرات العميقة التى لحقت بالطابق الرئاسى، فأين مفاتيحها؟

إن جهودا مكثفة بذلها اليابانيون للحصول على بعض التصميمات

الخاصة بالمبنى، وأسرار بعض المعاملات التى أنجزتها المؤسسة، عزب الميدومى هو الذى تولى تضليلهم، لديه هواية قديمة، التردد على سوق الخردة القديم فى العتبة الخضراء، وأيضا وكالة البلح، كان يقضى ساعات فى تقليب الأجهزة القديمة محركات طائرات احترقت فى أماكن شتى وانتهى بها الأمر إلى العتبة، وأجهزة راديو متعددة الأنواع، وأسطوانات عتيقة، مختلفة اللغات واللهجات، أجهزة استماع مكانها الآن المتاحف لفرادتها وندرتها، مكبرات صوت، مصابيح كهربائية مختلفة الأحجام، أكياس، برايز، سلوك مختلفة، قطر بعضها أقل من ربع ملليمتر، وأصناف أخرى تتجاوز العشرين سنتيمترا، كشافات ميدانية، ومصابيح يدوية، وبقايا فنارات، ومخلفات جيوش أجنبية.

كان قادرا على فك القديم، وإدخال عناصره فى جديد لم يُعرف مثله وله فى ذلك تفانين عجيبة. لا تعنى هذه المهارة وضعا استثنائيا خاصا فى المؤسسة. ربما يشتهر شخص بقدرة خاصة، وفى لحظة معينة ـ ربما تأتى أو لا تأتى ـ يجد نفسه مطلوبا لوضع يحدث عنده الارتقاء، لا شىء يتوه أو يندثر هنا، لكل أوانه، ولكل موضعه فى البنية، وثمة فرصة كامنة يأمل كل إنسان فى اللحاق بها، إدراكها، وهذا عامل خفى لتلك الحالة النادرة من الصبر، حيرت الخبراء الأجانب الذين قُدر لهم الاقتراب.

عندما توجه عزب الميدومى لإصلاح الثلاجة أدرك أن ثمة فرصة تلوح، لكنه لم يكن واثقا، خاصة أن المرأة الأجنبية الممصوصة، الخالية تماما من الصدر والأرداف عاملته كخادم، أصدرت إليه التعليمات من طرف أنفها،

وأشارت إلى المطبخ، طبعا لم يستغرق الأمر معه سوى ساعتين يمكن

القول إنه أجرى صيانة كاملة، ليس بإعادة الغطاء المطاطى. ولكن بفكه المحرك وتركيبه بعد تنظيفه وضبط بعض حركاته وتغيير قطع منه بأجزاء أخرى لم تدر هى كيف حملها. كان خاوى اليدين، ليس معه أى جهاز، أو مفاتيح، كأنه كان يستدعى ما يريد من الفراغ فيلبى!

كان أمامه طريقان للعودة إلى البيت، الأول عادى ومكشوف، أن يترك خللا صغيرا يظهر بعد فترة مما يستدعى الاستعانة به مرة أخرى، أو يبتكر، ضميره لم يسمح له بالأول، كان عليه أن يتوصل إلى حيلة متقنة، تماما كعمل يديه الذى بدا واضحا على وجهها المقدد إعجابها به. وكأنها تتفرج على حاوى.

بعد أن نفض يديه، وتراجع إلى الخلف قليلا، قال إن هذه الثلاجة لا مثيل لها الآن. ولكن سرها فى امتلائها.

ماذا يعنى ذلك؟

لابد أن تمتلىء بالمخزون من الطعام، فيمتص الموجود بالبرودة النافذة، الزائدة، المتدفقة، إن هذا الفراغ يمكنه استيعاب مخزون شهر، تطلعت صامتة، كأن ملامحها قدت من حجر.

لابد أن عزب الميدومى جاهد ليحتفظ بالعديد من الانطباعات التى كتمها ولم يظهرها ولم يفض بها حتى إلى أم أولاده عند خلوتهما. لا يعرف أحد ماذا يمكن أن تنتهى إليه الأمور مع السادة عند حلول خلل ما، غير أن استقرار الصلات والحدود غير المرئية يوفر قدرا من الحماية، لا يمكن تخطى الخطوط الخفية، ويصل الأمر بالإنسان إلى حد الاندماج التام مع ذاته، فعندما يواجه عزب السيدة مثلا، لا يمكن أن يخطر بذهنه

إلا ما ينطقه فعلا ، فقط هى البداية والنهاية عندما لاحظ نحافتها وجفاف قدها ، لكنه فيما تلى ذلك كان يخشى مجرد ورود خاطر يشى بما فكر فيه أو لاحظه ، هكذا يرتد إلى الحالة الصارمة ، صحيح أن صاحب الفضل على الجميع كان يتبسط مع العاملين . لكن . . هو من يبدأ ، ويحدد ، كذلك خلفاؤه ، الأمور فى جوهرها لم تتغير ، لا مع توالى المراحل ، أو اتساع القطاعات ، أو بشائر الانضمام إلى (الفيفا) .

باختصار اقتنعت ، طلبت منه أن يرتب الحاجات كما دل وشرح بعد شرائها من السوق ، الحق أنه برع وأتقن رغم أن شراء الفاكهة والخضروات واللحوم والمعلبات والأجبان وأنواع الخبز لم يمارسه من قبل .

أدى أيضًا مهام أخرى مثل صيانة الموقد الغازى على أتم وجه ، وتمكن من محاصرة الرائحة الكريهة المنبعثة دائمًا من الأنابيب والتى أثارت انتباه بعض عضوات منظمة البروهيلفسيا السويسرية واللواتى اجتمعن بها بتوصية من رشيدة النمساوية التى بدأت تسعى ، لكن ما رسخ مكانته الحوض الألمانى .

عندما اقترنا كان شرطًا أن تصحب معها الحوض ، وبدا ذلك غريبًا ، لكنه إزاء إصرارها قبل ، وبذل جهدًا لينقله بتوصية خاصة . إنه حوض من الصاج الأبيض المطلى المتين ، يتسع لقامة متوسطة متمددة ، قام مهندس ألمانى يعمل فى شركة متخصصة بتركيبه لكنه اعتذر عن تشغيله ، لا يعرف ذلك ونصحها ألا ترهق نفسها بالبحث ، لم يوجد إلا حوض مماثل فى قصر عابدين لكن لا أحد يعرف مصيره بعد ثورة يوليو المباركة .

على جانبيه فتحات دائرية ، بعد امتلائه بالماء وتمدد المرء فيه . تدير

مقبضًا متصلاً بجهاز دائرى يشبه المنبه القديم، فيه ثلاث عقارب وأرقام على مستويين. أولهما كبير والثانى صغير، إذا اقترنت العقارب يبدأ الدفع النفاث. تيارات قوية دافعة تقلب المياه وفى الوقت نفسه تدرك الأجزاء الحساسة من الجسد بلمسات دائرية ودفعات انقضاضية، فيتم أمر التدليك وترتخى العضلات وتهدأ النفوس.

سيادتها حرمت من هذه المتعة التى اعتادتها منذ طفولتها، ويبدو أن ثمة أسبابًا أخرى يمكن استنتاجها أو التلميح إليها، إذ يبدو أن اكتشاف حواف ومراكز جسدها مرتبط بتلك التموجات واللكزات.

عزب الميدومى تمكن بعد ثلاثة ساعات من التركيز العميق والعمل المتواصل، لم يبل شفتيه بنقطة ماء، أو رشفة شاى، من تشغيل الحوض، تجاوزت بهجتها كل حد. إلى درجة تغير ملامحها لمدة ثوان، لم تتبدل منذ وفاة ابنتها فى تلك الحادثة الغامضة، تشابكت أصابع يديها، ثم راحت وجاءت وطلبت من عزب الانصراف والحضور غداً، هذا العصر أمضته متنعمة متقبلة متمتعة بتدليك التيار النفاث.

تلك نقطة التحول الحقيقية وما عدا ذلك مجرد إشاعات ونميمة أو تخمينات فى أحسن الأحوال، صار عزب مسئولاً عن الثلاجة وعن إصلاح أى عطب، بدءاً من ضبط هوائى التليفزيون، إلى إعادة التيار المقطوع، وبالطبع شراء البضاعة من السوق، بل واقتراح أصنافا معينة لم تعرفها سيادتها. حدث أن وصلت مندوبة (الفيفا) إلى المقر، وكان ذلك خطوة مهمة قبل الانضمام النهائى، عرض سيادته عليها بتردد وخجل التفكير فى دعوتها إلى العشاء، أبدت تبرمًا، واجهته بملامحها الجامدة التى يخشاها ويعد لها، أومأت موافقة، كيف علم عزب الميدومى؟

ليس مهما الوقوف على ذلك، أموره الخارقة متوالية حتى أن التوقف أمام كل منها وتفسيرها يتطلب جهداً، عرض عليها قائمة طعام للعشاء فريدة، غريبة، هى نفسها لم تعرفها من قبل.

فطير مشلتت، وحمام محشى بالفريك والزبيب، وبط مطهو بالقلقاس البلقاسى، ومحشى كوسة بخلطة خاصة قوامها عجينة الياسمين، وباذنجان مقلى بالصنوبر، وجبن قديم محفوظ فى بلاص أثرى، وعسل أسود من كوم أمبو. كيف؟ من؟ لم يصرح لأحد قط، ولا لمح لسيادتها حتى إنما أكد أنه لا قلق ولا عسر، ثمة مطعم يبعد عن العاصمة حوالى مائة كيلو متر، إلى الجنوب قبل مدينة بنى سويف، مشهور، يعد أطباقًا من صميم الريف، ودسم الماضى، معروف للسائقين منذ الستينيات، عندما بدأت سيدة صعيدية تطهو صنفًا واحداً من الخضار ونوعًا واحدا من اللحم، اتخذت مكانًا لها بجوار شجرة جميز عتيقة مطلة على ترعة الإبراهيمية مباشرة، سرعان ما ذاع صيتها بين سائقى الناقلات الفخمة والعربات الأجرة السريعة، كان السائق ينطلق من أسوان، أو من موقع السد العالى زمن الحكم الشمولى ولا يكسر رغيفًا إلا عند أم الغلام، لم يكن لديها أبناء ذكور، كانت تساعدها ابنتها الوحيدة، الفارهة، الفائرة والتى كانت سببًا إضافيًا لتوافد الكافة، لم يكن لها أى صلة بمنطقة أم الغلام الواقعة شرق مسجد مولانا الحسين، بل إنها لم تعرف بوجود مثل هذا الشارع المهم إلا بعد أن أخبرها عم شرف وحكى لها ما فعلته البائعة الفقيرة عندما تلقت رأس الحسين الشهيد التى حُزت فى كربلاء وطارت فى اتجاه مشرق الشمس إلى مصر، لمدة أربعين يوما تسبح بحمد الله وفضله، حطت فى حجر هذه الأم التى كان ابنها

يجلس إلى جوارها وكان فتيا، جاء جند يزيد - لعنه الله - يبحثون عن الرأس، ما كان منها إلا أنها حزت دماغ ابنها وافتدت بها الرأس الشريف المقام فوقه الضريح المهيب، الذى أولاه المؤسس عناية خاصة، وأمده بمصابيح وثريات وبلاطات من خزف مغربى، وسجاد فارسى وآخر تركمانى، موضع رأس الحسين الشهيد الذى حطت فيه مازال مضمخا بالعطر حتى الآن، والناس تتبرك به، أما المنطقة المحاذية فتسمى كلها بأم الغلام.

كانت تصغى إليه متعجبة، مستوعبة، من خلاله اكتشفت سيادتها بلدا مغايرا، وأناسا مختلفين، المهم، وافقت على اقتراحه، وأمرت سائق العربة المخصصة لخدمة البيت بمصاحبته، اتجه غربا إلى الجنوب، لم يصحب معه عم شرف أو عم جويلى أو القويسنى النطاط، لكنه استخدم اسماءهم عند أم الغلام التى تقدمت فى العمر الآن، تجلس وراء مكتب مرتفع، تقبض من الزبائن، معصماها لايبدو منهما أى مساحة، تغطيهما الأساور الذهبية، مطعمها تقصده الأفواج السياحية، ولا بد من الحجز مقدما، وبعض هواة الأكل من العالم يجيئون خصيصا ليلتهموا الفطير الناعم، الطرى، الذى يشر سمنا، وفى الشتاء الماضى وجه إليها وزير السياحة خطابا يشكرها فيه على مساهمتها فى تنشيط السياحة بعد الضربة التى لحقت بها إثر الهجوم الإرهابى على أحد المنتجعات السياحية الشهيرة، المطلة على البحيرة الشمالية، إنه أحد مشاريع المؤسسة المستحدثة فى السنوات الأخيرة.

بمجرد دخول عزب الميدومى المطعم اتجه مباشرة إليها، وقال إنه فى عرضها، إنه . .

تطلعت إليه بهدوء

«أنت زميل شرف . . جئت معه مرة»

بدا دهشا ،

«أمازلت تذكرين يا أم الغلام؟»

قالت بلهجة علقت بذهنه .

«ومثله ينسى . . فينه وفين أيامه . . صحيح عملتوه تمثال؟»

لم يعرف الرد المناسب ، لكنها أراحته وأزالت عنه الحرج عندما قالت : «ملكمش فى الطيب نصيب» .

«البركة فيك»

قالت منهية استغراقها

«طلباتك»

تلا عليها القائمة من الذاكرة ، بعد نصف ساعة غادر المطعم ، بعد ساعة ونصف كان يرص الأصناف ـ الملفوفة فى ورق معدنى يحفظ الحرارة ـ على المنضدة الرئيسية فى المطبخ .

إصلاحه الحوض الألمانى ، انبهار سيادتها بمذاق الفطير المشلتت مع الجبن المعتق والعسل الأسود ، والحمام المحشى بالفريك ، واللحم المغاير طعمه تماما لكافة ما عرفته بما فى ذلك اللحم الخاص الذى لا يقدم إلا لضيوف اليابان الكبار فى نهاية زياراتهم ، أغنام تُربى فى حظائر مكيفة الهواء ، يقدم إليها العسل الأبيض النقى ، والبيرة المصنوعة من حشائش

السافانا المستجلبة، لم يمح مذاقها من ذاكرتها إلا اللحم الملفوف الذى تتقن أم الغلام تربيته فى مزرعتها الخاصة وطهيه، إضافة إلى انضباطه وإخلاصه وإدراكه ما تفكر فيه قبل النطق به، هذا كله دفعها إلى إقراره.

بعد ستة شهور من دخوله البيت أول مرة لإصلاح الثلاجة، فوجىء بما جرى، سيادتها أبلغته بنفسها.

«مبروك . . ستعمل فى مكتب البك»

بتلقائية تطلع إلى الأرضية، إلى السقف، إلى الأركان، قالت «تعال كل أسبوع مرة»

الحق أنه لم يقصر فى حقها قط، الثلاجة ما تزال مسئوليته، طبعًا الأصناف تنوعت وتحسنت، بل إنه أرسل إلى القرية التى ولدت بها وأمضت فيها طفولتها وصباها، ورتب مع شركة الخطوط إحضار جبن الماعز طازجًا طريًا من هناك مباشرة. الحوض الألمانى تحت رعايته أيضًا، فتحات دفع الماء تعمل بكفاءة، يتفحصها وبنظرة فاحصة يعلم أيضًا كم مرة استحمت وكم أمضت من الوقت؟

إنها السبب فى صعوده إلى الطابق الرئاسى، لم يحلم بالطلوع إليه كساع أو عامل نظافة، إذا به يصبح مسئولاً عن كل كبيرة وصغيرة، بما فى ذلك الغرف السرية التى تحوى الشفرة الخاصة، وأرقام الأرصدة، والملفات شديدة الخصوصية، صحيح أنه لا يلم بالتفاصيل، لكنه مسئول تمامًا عن الفتح والإغلاق والتأمين الذاتى والجرد الدورى، وبالطبع حاجات سيادته من قبل ومن بعد، كما يعنى بها هناك، أفاض فى بذل كل جهد ممكن لإرضاء سيادته وإن لم يتغير ولاؤه الداخلى بالنسبة إليها.

إنه يطلعها على ما يجرى رغم تظاهرها بعدم الاهتمام، إنه الآن فى مرحلة الإفضاء بالمجمل، ولكنه شيئًا فشيئًا سيدخل إلى لب التفاصيل.

عزب الميدومى يبدو على درجة من الخواء، قوامه الطويل وعدم ثباته فى وقفته وطريقته فى المشى، حيث يفسح ما بين خطاه ويتمايل على غير انتظار، وربما يرفع يده فجأة ليهرش طرف أنفه، وهذه حركة بديلة لما كان يفعله من قبل، عندما وجد متعته وراحته فى إدخال إصبعة لتنظيف أنفه وإخراج ما به وتكويره وتأمله بهدوء. سيادته حذره عندما انفرد به بعد دعوة عشاء حضرها رئيس شركة باير للأدوية، قال إنه يتسامح معه إذا عرف امرأة أو إذا قبل هدية من شخص أو جهة، لكن ثمة ثلاثة أمور لو ارتكب أحدها عليه أن يذهب من تلقاء نفسه.

ألا يكذب.

ألا يسرق من الطابق الرئاسى ولو ورقة بيضاء.

ألا يلعب بأصبعه فى أنفه.

كما تعلق المرأة حلقًا فى أذنيها، وضع عزب الميدومى هذه المحاذير الثلاثة فى رأسه، ولشدة تركيزه لزم وأمتثل.

من خصائصه الفريدة قدرته على الحديث الحميم خاصة إلى النساء، ثمة ملامح أنثوية فى طريقة أفضائه للأسرار، كما أنه لا يخيب ظن المستمع إليه أبدًا، لابد أن يأتى بالعديد من التفاصيل الصغيرة، بعضها حقيقى والآخر من ابتكاره، وأثناء حديثه يشير إلى مصادر لا يرقى إليها الشك، فإذا كان الأمر يتعلق بالقيادة السياسية، يشير إلى مقابلته شقيق ضابط فى الحرس الخاص ومنه عرف كل شىء، أما إذا اتصل الأمر بنجمة

سينمائية مشهورة، فهو على صلة بسائقها أو شخص تربطه بها علاقة خاصة. وإذا دار الخبر حول مقابلة مهمة على أعلى مستوى، أو مقابلة مهمة، فإن جاره الذى يسكن فى الطابق الثالث موظف مهم يعمل فى قسم السموم بجهاز المخابرات الخاص، ومثل هذا كثير.

لكن ذلك ينطبق على البداية، بعد انقضاء فترة يقدرها البعض بعدة أسابيع تغيرت ملامحه، بدأ يكتسب سمات العاملين فى الطابق الثانى عشر، حتى قوامه الذى يعد من أقوى عناصر حضوره راح يتخذ هيئة مختلفة.

أيا بلغت المتغيرات، ومهما تقدمت أوضاعه، لم يغب عنه لحظة واحدة أصل نعمته وأساس ارتقاء حاله. وجودها القوى خلفه ومساندتها غير المنظورة حاش عنه الهوام وأولهم عبده النمرسى.

أصبح جزءًا من الطابق الذى لا يجرؤ رئيس أى قطاع على الصعود إليه إلا بإذن خاص مطبوع على ورق أحمر مصقول عليه كتابة بخط ثلث من حبر أسود. إن وضعه يتجاوز الآخرين. بما فيهم عبده النمرسى شخصيًا، إنه مسئول عن مكتبه عن لوازمه، عن الورق المسطر الذى يفضل كتابة مذكراته عليه، وعلب الأفلام عالية الحساسية التى تسجل ما يجرى فى العتمة، والمستخدمة فى تصوير بعض الضيوف ذوى المكانة فى لحظاتهم الخاصة، كما إنه يعنى بضبط درجة الحرارة ومتابعة عمليات التنظيف التى تتولاها شركة سويسرية كبرى، متخصصة، معروف عنها إخفاء أسرار عملائها، تمامًا مثل البنوك الشهيرة، مؤسسات رأسمالها فى كتمانها، فى قدرتها على صيانة السر.

بالطبع لا يقوم عزب الميدومى بذلك الجهد كله، إنما تعاونه إدارة

شديدة الأهمية. أنشأها بقرار خاص خليفة المؤسس الثالث، لكنها لم تكتسب أهمية قصوى إلا مع تولى عزب أمورها، بالطبع يرجع الأمر فى ظاهره إلى إمكانياته الفطرية التى أذهلت خبراء شركة «أراك» متعددة الجنسيات، ولكن المؤسسة تعلم من أصغر شخص إلى سيادته أن مصدر قوته الحقيقية يكمن هناك في البيت، فى دعمها له وإيثارها لكافة ما يمت إليه، كل شخص يقف على الحقيقة، من لا يجرؤ على قولها تصريحًا ينطلقها تلميحًا، ومن يجبن يومىء أو يشير من بعيد، أو يعبر بنظرة أو التفاته، للعاملين فى المؤسسة طرق شتى فى الإفصاح، الحقيقة أن عزب لم يشهر قدراته الجديدة فى الانتقام ممن أهانوه يومًا أو ضايقوه، لم يصف حسابات ظن بعضهم أنه سيبدأ بها، لكن هذا لا يعنى أنه أحجم، ولكن مقدار الجهد الذى تهيأ لبذله بسخاء وفيض كان مهولاً، فمن ناحية هو حريص على أيجاد مبرر لقدومه، ثم الوصول إلى نقطة يصعب معها إقصاؤه، تمامًا كما حدث فى البيت، وهى المنيعة، الغريبة، الصامتة، التى يخشاها العتاة، خاصة بعد فقد ابنتها منه، وما ترتب على ذلك. أما الجهد الآخر فيجب من خلاله مواجهة ما يقدم عليه الخصوم، وأخطرهم على الإطلاق عبده النمرسى الذى توثقت مكانته، وأصبح من عتاة الطابق الثانى عشر، فى مثل هذه الحالة، أى قدوم شخصية جديدة إلى هذا الموقع الحساس، يكون تقبله صعبًا خاصة فى البداية، وأشرس مقاومة تأتى من الذين تشابهت بداياتهم معه، ولكن يضاف إلى ذلك نفور فظ، خص به الميدومى، وكما تقول العبارات المتبادلة فى المقر القديم: «حطه فى دماغه».

عندما بلغه الخبر وتأكده من تحطم السيارة تمامًا، استقر داخله ثقل

بغيض، إنه مازال فى البداية، لم يتمكن بعد، كل الاحتمالات مفتوحة الآن، قائمة، اتجه إلى دورة المياه الالكترونية الملحقة بمكتبه، لطم خديه، شد شعره، حتى اللحظة لم يجرؤ أى إنسان على إظهار الحزن، الأخبار ما تزال غائمة، ماذا جرى لسيادته بالضبط؟

لا أحد يعرف، العربة انتهت . . نعم، لكن . . ماذا عنه هو؟

الموقف غامض. إنه مضطرب، يفترض أسوأ التداعيات بالنسبة إلى وضعه، أقدم على إتيان حركات لا رابط بينها، مثل إدخال إصبعه مرة فى أنفه، أو صفع خده، وفتح فاه إلى أقصى قدر.

ينادى نفسه.

الثبات، اجمد يا عزب، ياسيّئ الحظ.

يعلم أن اللحظات القادمة، صعبة فاصلة، صعبة لأنه يجب أن يظهر الحزن المؤطر بغير هلع، إنما بجدية وهم فادح، إخفاء ما يعتمل داخله من مخاوف، التماسك مطلوب، ضرورة وضع أولويات عاجلة، أهمها الوقوف على حقيقة ما جرى، ثم إبلاغ سيادتها بدقة أوروبية وحرص سويسرى!

إذا أطلعها أى إنسان آخر على حقيقة ما جرى قبله فلن يستحق البقاء فى مكانه، استغرقت الاتصالات التى أجراها سبع دقائق، استخدم قائمة الهواتف الخاصة بالمكتب الدائرى والمسموح له بالاطلاع عليها، قبل أن يستوعب ما توصل إليه، رفع سماعة الجهاز الأزرق المتصل بمنزل سيادته، بالتحديد فى الصالة الرئيسية، فوجئ بصوتها الهادئ،

الواثق، قالت إن النمرسى أحاطها علمًا منذ دقيقتين، فخشى أن يتسرب إلى صوته بعض ما قبض حلقومه وفجر المرارة فى روحه.

منذ متى يتصل بها النمرسى؟

إنها لا تجيد حتى نطق اسمه، ما هدأه قليلاً توجيه بعض الأسئلة إليه، تدقيقها فى أمور بعينها، رغم أنه لم يلم بها، لكنه أقدم على إرضاء فضولها بما تيسر له من قدرة على الاختلاق والتدفق المقنع، غير أن ملامح النمرسى مثلت أمامه حتى غطت على ما جرى.

فتـــور محيـــر

كل الاستفسارات الخاصة بالموقف مؤجلة الآن، مثل: هل اتصل بسيادتها من قبل؟ مكالمة عابرة أم فاتحه لصلة لا يعرف مداها بالضبط؟ المهم الآن أن يتهيأ للتطورات المتوقعة.

اتصل بالجراج، بدا مديره الشاب مستنفرا، خاطبه بود:

«راضى بك، أتمنى تجهيز ثلاث عربات على الأقل..»

قاطعه المدير متسائلا: لماذا؟، قال متعجبا إن العربات يجب أن تتجه على الفور، هنا قال راضى مقاطعا وبلهجة حاسمة إنه لا يستطيع تحريك سيارة واحدة فى غيابه بدون أمر مباشر منه، ولديه الوسيلة التى تصله به، أو قرار من السيدة سهير الفيومى التى تنوب عنه فى هذه الناحية بالتحديد لم يشأ عزب إطالة الجدل، إن أمورا عديدة ماتزال مجهولة عنده، مثل موقع سهير الفيومى، رغم أن جمالها لا يرقى إلى فتنة صفاء الأبنوبى التى ماتزال المؤسسة كلها تذكر ردفيها، ونعاس عينها اليسرى مع يقظة اليمنى، صوتها مازال يتردد فى مقدمة الأخبار الموجزة، والمفصلة، والبيانات المفاجئة، ورسائل سيادته، يتردد عبر الشبكة الخاصة، وفى العديد من شركات الطيران العربية والأجنبية، إذ تشرح إجراءات التأمين

والإنقاذ، ويتردد أن بعض الذواقة تمكنوا من الحصول على تسجيلات عالية الجودة، يصغون إليها فتنتشى أحوالهم، هذا الصوت المثير، الجامع لنعومة الأنوثة وخشونة الذكورة، عجب!

سهير هى الوحيدة التى صمدت، طال أمرها معه، نعم.. إنها هامسة، لكنها عادية، طويلة، بياضها مثل طلاء الجدران، شقرة شعرها صناعية، لا تشبه هانم الدمياطية، ولا رشيدة النمساوية، ولا أى أنثى من أولئك اللواتى أودعن فى المؤسسة أثرا وخلفن حكايات تروى، وغمرات بهجة.

الاهتمام بها ضرورى، لكن ليرجئ هذه الخواطر كافة، يكفيه الآن إثبات المبادرة فى كل قطاع، وإدارة. سجل اتصاله بالجراج، وطبعا البيت الذى سبقه إليه للأسف النمرسى. الصراع طويل ويقتضى اليقظة والهدوء، ليرتب أولوياته.

سيادته فى المقدمة الآن، ما يخصه يجب أن يسبق أى اعتبار اخر، تعمد الظهور فى المواقع الحساسة بالطابق، رغم كل شىء يجب ألا يتصرف منفردا. ليراعى النمرسى، ليقترب منه وكأنه يطلب منه المساندة فى مواجهة الظرف الصعب. من دواعى الحنكة ألا يقدم على خطوة بمفرده، التوقيت المناسب لتوجيه ضربة مؤثرة إليه لم يحن بعد، إنه أحدث عهدا والوقت الآتى فى صالحه، النمرسى محال إلى التقاعد منذ العام الماضى، باق بقرار استثنائى يتم تجديده سنويا، تحيطه شبهات تتجاوز دوره المعروف، لكن نشاطه فى هذه الناحية وخبرته بالنساء وقدرته التى لا مثيل لها على استمالتهن.

اتصل به على الشبكة الخاصة بالطابق الثانى عشر، يظهر اسم الطالب على شاشة صغيرة فى مقدمة الهاتف.

صوت النمرسى فاتر، غير متحمس، لكن به فضول.

اعتذر فى البداية لإزعاجه لكن الظرف دافع، لقد فرغ للتو من كتابة البيان الذى سيوجه إلى العاملين فى المؤسسة باسم اللجنة النقابية، يهنئ سيادته بالنجاة من الحادث المروع، ويقترح إقامة حفل رمزى، أو تقديم مصحف نادر فى علبة من الفضة المنقوشة، إنه يعرف عائلة العجاتى المتخصصة فى الخان.

بعد أن بدا واضحا أنه انتهى، أجابه النمرسى بفتور ناعس عما إذا كان اتصل بحرير السويسى أو صادق الأدفوى؟

قال إنه لم يقدم على ذلك لظنه . . . ، هنا قاطعه النمرسى قائلا إن كل ثانية الآن لها قيمتها، وليس من المعقول تضييع الوقت فى معرفة البديهيات، عليه الاتصال بهما ليقف على ما يجب علمه . . شكرا!

الحق إنه فوجىء، لكنه لم يصدم، لم يتأثر بما سمعه، يلوم نفسه لأنه ركز على خدمة سيادتها وأهمل الجزئيات، اتصل بهما، أصغى إلى صوت حرير السويسى المعدنى، الآلى، ذى النبرة الواحدة، نصحه بالمكوث فى مكتبه. وعدم الإدلاء بأى معلومة إلى أى جهة خارجية أيا كانت، عدم الحديث إلى رؤساء القطاعات، أو الزملاء، بمن فيهم العاملون فى الطابق الرئاسى، لأن الأنظار كلها متجهة إليه الآن. طبعا . . ممنوع الانصراف.

إذن . . خاب تدبيره، أخشى ما توقعه، أن يسبقه النمرسى إلى إذاعة

البيان قبله بكل ما يترتب على ذلك من معان، ليس بوسعه الآن إلا الالتزام، أن يمكث حتى اتضاح الموقف.

لو أنه تجول فى الطوابق الأخرى، لو أطلع على الهمس الدائر فى القطاعات والأقسام لدُهش بالتأكيد، كافة التفاصيل معروفة، المصادر متعددة، لا يمكن تحديدها بدقة. يمكن القول إن غزارة البث نابعة من السائقين والحراس الجدد، الوقائع عديدة، لكن الروايات اتفقت على ثباته، وهدوء أعصابه بعد تمكنه من الخروج سليما، العربة انقلبت عدة مرات، هل انفجر أحد الإطارات؟ هل انحرف بحيث دخل فى الرمال؟ المهم أنها انقلبت بالفعل، هذا الطراز الحديث مؤمن بحيث ينتفخ البالون تلقائيا، يحيط به كالمشيمة المؤطرة للجنين. بعد خروجه تطلع إلى الحطام، بدا هادئا، متينا، قوى الأسباب، كأن الأمر يخص غيره، اتجه إلى كابينة الهاتف الصحراوى، كان عاطلا، أوقف عربة نقل ذات مقطورة ومضى إلى نقطة شرطة العامرية، حرر محضرا بالواقعة، لو أنها تخصه لما أبدى أى بادرة، لكنها ملك للمؤسسة، والمحضر ضرورى لتقديمه إلى شركة التأمين، الشركة ملزمة بعد تحقيق صورى شراءأخرى شبيهة تماما، ثمنها يتجاوز المليون ونصف مليون جنيه مصرى.

شوهد عم شرف يفارق الموقع المخصص له حوالى الرابعة والنصف، ثمة تغير طرأ على مشيه، أرجعه بعض زملائه إلى قعدته الطويلة بلا حراك، وصمته، هو الذى أمضى عمره على عجلات متحركة من مكان إلى آخر ومن وقت إلى وقت، ثمة أطراقة مستجدة على من يعرفه، وحزن خفى لا يعهده من يألفه وخبره عن قرب، أما انتقال خطوه فصار إلى خطى الإنسان الآلى أقرب.

طبعا تحرك عم شرف تم بناء على تعليمات من الطابق الرئاسى، لكن من أصدرها؟ هذا ما اختلف فيه، المؤكد أنه ليس عزب وليس النمرسى أيضا، رجح البعض ظهور سهير الفيومى، بالطبع قام بالإبلاغ المباشر الأدفوى أو حربر السويسى، كلاهما.. لا فرق.

لابد أن عم شرف متجه إليه، حتى مدير الجراج نفسه رياض المنزلاوى لم يعرف وجهته، تحركات السيارات الرئاسية لا يطلع عليها إلا المكلفون فى الطابق الثانى عشر. وما لم يصرح به عزب الميدومى أن أحد أهدافه الكبرى ضم حركة العربات إلى تخصصاته ولهذا أسباب عديدة لا تخفى.

إن حركة سيادته محيرة، اعتاد أن يصحب السائقين، ثم يطلب ممن يرافقه التوقف، يجرى ذلك عادة فى مكان ناء. طريق المقطم فوق الهضبة، أو بعد بلدة الكريمات، المهم نقطة نائية، قفّراء، يطلب المفاتيح، ينتقل إلى مقعد القيادة وينطلق تاركا السائق الذى دفعه سوء الحظ بمفرده، وأحيانا بدون أن يتبادل معه كلمة واحدة، يقول محمد المنياوى إنه انتظره ثلاثة أيام متوالية تحت البيت، لم يفارق خلالها السيارة، تحايل فى فتح الباب وقضاء حاجته من خلال وضع فريد لا يقدر على اتخاذه لو طلب منه ذلك الآن، لماذا أمضى هذه المدة؟ لأن سيادته نبه عليه أن ينتظر فى حالة عدم النطق بما يعنى الانصراف، يومها غادر صامتا، مبديا الجهامة، خشى على نفسه، إن ردود أفعاله لا يمكن التبؤ بها، والانفراد به مخيف كما صرح المنياوى لامرأته فى أشد لحظاتهما تقاربا وحميمية، وما جرى له متداول، معروف، وإن لم ينطق به أحد علانية، الغريب أن ما يجرى هنا ذائع، والتفاصيل مرصودة من قبل القيادة السياسية، والجهات

المعنية، لكن الأمور تقف عند حدود الرصد والمتابعة، لا إجراء ولا أمل في اتخاذ خطوة ما توقف بعض ما جرى أو يحدث بالفعل، ربما لأن أرباح المؤسسة والنمو الظاهرى بكافة قطاعاتها يغطى على ما يمكن اعتباره مثالب أو عيوبا، صحيح أن الأمر زاد عن حده، وضاعف منه انقطاع الأمل تقريبا فى تغيير ما، أى تغيير بعيدا عن نفوذه وقدرته، ولكن متانته البادية تفوق أى توقع. ومن موقعه فى الطابق الرئاسى كان يرى كل شىء رغم تعدد الجدران وكثافتها، ويطول بقبضته من يرغب، وبالتأكيد من يكن محمد المنياوى يشكل بالنسبة له أى تحد، أو أى مصدر لاستفزاز ما، ما ضايق سيادته وجود هذا السائق، فقط مجرد مثوله وسعيه، ولهذا تفصيل لا تكتمل معرفة السائقين إلا بعد الإلمام به.

... تخمينات وتساؤلات

قال البروفيسور يوما إنه يسند إلى محمد المنياوى المهام التى يحرص فيها على إظهار الوجه المتطور، المشرق للمؤسسة، إذا جاء خبير أجنبى مهم ينتظره ويرافقه المنياوى، إذا خرج أحد المسئولين فى أمر حساس لا يصحبه إلا هو، إنه سائق المهام الخاصة، وذلك لرسوخه فى المظهر، وإتقانه الأصول، ورسوه، كان عم شرف أكثرهم خبرة، ليس بالقيادة فقط، ولكن بالحياة أيضا، لكن له شطحاته، ولا يعرف مخلوق أى حد سيبلغه فى ظل وضعه الحالى الذى يتناقض تماما مع عمره الذى وزعه على الطريق. لكن المنياوى كان مثالا يحتذى فى المظهر، والجوهر.

قوام رياضى، يوحى لمن يراه أنه يقف على أطراف أصابعه متأهبا للانطلاق فى مسابقة للجرى، أو تسديد لكمات فاصلة لخصم يحاول النيل منه فى الحلبة، كان يبدو أصغر سنا من عمره على الأقل بعشر سنوات، يقال إن صفاء الأبنوبى سال لعابها من أجله، وأنها رغبت وهددت. لكنه لزم ولم يحد. كان يردد دائما إن الخباز الشاطر لا يأكل خلسة من الفرن التى يعمل بها، واللص الماهر لا يسرق فى المنطقة التى يقيم بها، لم يكن قوامه متينا، صبًا فقط، لكن أناقته من الأمور المحيرة حتى الآن، يرتدى نظارة خضراء من ذلك النوع الذى يستخدمه الطيارون

على الخطوط العابرة للمحيطات، ملابسه مهندمة، لم يره أحد فى قميص واحد يومين متعاقبين، أحذيته تلمع كالمرآة، كان يفضل اللون النبيتى الغامق، ولا يرتديه إلا من إسكافى أرمنى فى حارة ضيقة متفرعة من شارع عبدالعزيز، كيف يوفر هذه الأناقة من راتبه المحدود؟ أين تعلم هذا الأدب الجم؟ أسئلة عديدة ترددت ولابد أن بعضها وصل إلى سيادته، لكن . . لا يقع هذا بين الأسباب التى أدت إلى استدعائه للخدمة على السيارة الخاصة المجهزة؟ كما يعلم عبده النمرسى وطبقا لما رواه، فإنه كان يحذر الركوب مع المنياوى، ليس بسبب أناقته وتألق مظهره، إلى درجة أن بعض الموظفين فى المقار الرئيسية، والفنادق الكبرى، كانوا يتوجهون إليه باعتباره البك صاحب الحظوة، ثم يفاجأون به يتقدم إلى الباب ويقف بأدب جم ويفتح لينزل النمرسى قصير القامة، أصلع الرأس، أو ليظهر عزب الدمنهورى بطوله المهتز، وتخلخل قوامه، ونسيانه حركة أصبعه باتجاه فتحة أنفه!

السبب الحقيقى لا يمت إلى هذا كله، إنما بدأ اهتمام سيادته به، أو بالتعبير المتداول سرا فى المؤسسة «حط عينه عليه» عندما علم أن أبرز سماته، عدم قدرة أى إنسان على الصمت إزاءه، وحار كثيرون فى الأسباب الدافعة، النمرسى أشار إلى قدرته على الإصغاء، صفاء الأبنوبى أشارت إلى ملامحه الحاضة على الطمأنينة، الباثة للأمن الهادئ المترقرق غير المفروض من جهة ما، هانم الدمياطية أشارت إلى خاصية نسائية فى تكوينه، خفية، لكنها تؤدى إلى فضفضة من يتحدث معه، والتدفق، أما زملاؤه فلم يبدوا له إلا محبة ومودة، لجدعنته، وغيرته على عمله، ولأنه لم يتردد حوله، أى إشاعات أو أمور مشينة، مرة - فى

إحدى العطلات الرسمية ـ صحب أطفاله الثلاثة ، يومها انتحى به عم شرف هامسا ، طلب منه ألا يكرر ذلك ، الناس عيونها وحشة ، والأولاد باسم الله ، ما شاء الله ، جمال وذكاء وأدب ، ابنتان وصبى هو الأصغر .

أى سائق هذا؟

هكذا تساءل سيادته ، وكان سعيد النخيلى مقربا منه فى ذلك الوقت ، لا يفارقه ، وينام فى حجرة قريبة منه فى الفندق المطل على النيل والمحجوز فيه جناح باسمه على امتداد السنة ، فى أى وقت يمكنه الحضور أو الذهاب ، مع من يشاء ، لا ينظر إليه أحد ، ولا يجرؤ إنسان على اعتراض طريقه حتى بالبص ، إنه أحد الشخصيات العشر المحظور مراقبتهم بأوامر مشددة من القيادة السياسية ، وإن أبدى سعيد النخيلى شكا فى ذلك ، سعيد هذا ظهر فى الطابق الرئاسى فجأة ، ولم يمض وقتا طويلا ، وله وقائع سيرد ذكرها ، هو من أبلغ محمد المنياوى قرار سيادته باختياره سائقا للعربة الخاصة المجهزة بالهاتف المتصل مباشرة بالأقمار الصناعية ، الحق أن محمد المنياوى أصغى مبهوتا إلى النخيلى ، لكنه كتم ، فأمثاله لا يحق لهم اعتراض ، ليس بوسعه إلا الامتثال ، لكن يمكن القول إنه منذ سماعه القرار بدأ انسحابه وإن اجتهد فى إظهار غير ذلك ، ونذر للسيدة نفيسة إطعام الفقراء أرغفة وفولا نابتا إذا ما انتهى أمره بسلام ، هكذا . . كل السائقين الذين عملوا معه لحق بهم أذى ، خدمته صعبة ، وأمره محير ، ربنا يستر .

كما توقع المنياوى اتصل به الأدفوى وأبلغه بالجلوس بعيدا عن استراحة السائقين ، وعدم التطيب بأى عطر إلا ما سيهبه سيادته إليه ، وحذره من النظر فى المرآة العاكسة بهدف رؤية سيادته أو الإصغاء إلى

أنفاسه حتى ، باختصار عليه أن يلغى حواسه تماما ، أن يستجيب فقط لما يطلب منه ، وأن يجيب عن الأسئلة التى ينطقها سيادته بأقل الألفاظ الممكنة . من المفروغ ، المقطوع ، طبعا . . ألا يناقش حتى لو كان التوجيه خاطئا ، غريبا .

منذ اللحظة الأولى التى وقعت عينا سيادته عليه قرر أن يستهدفه ، الفارق شاسع ، والمقارنة مستحيلة ، لكن سيادته قال لسهير الفيومى فيما بعد إنه لم يكره أحداً فى حياته كما بغض هذا السائق ، حتى سهير التى يعرف الجميع أنها تمكنت منه بعكس الأخريات لم تفهم ، ولم تفسر ما جرى حتى الآن ، لماذا لم يتخلص منه على الفور إذن؟ ، ربما قدر ذلك ولكن بطريقة أخرى ، يقول السائقون إن أناقة المنياوى لم تعجبه ، لم يطق قامته المحترمة ، وذلك البث الهادئ ، الراسخ ، المنبعث منه ، تركزت كراهيته على وقفته المتأهبة ، وتلك السماحة البادية فى عينيه ، وهذا الترقرق الذى يتدفق منه . خاصة عندما يبدأ الإصغاء إلى محدثه ، إذن . . هنا يكمن أحد الأسباب التى تؤدى بكل من عرفه أو اقترب منه إلى الفضفضة والإسرار له .

فى اليوم الأول لم يتحدث إليه ، وقف محمد المنياوى قرب الفتحة الدائرية ، فى الموقع المخصص للعربة الرئاسية ، بمجرد أن لمح سيادته فتح الباب ، أمسك بالمقبض ، بالغ فى الانحناء حتى يبدو أقل منه حجما ، وأصغر شأنا ، وأفقر مهابة ، لكن المشكلة أنه كلما خفض جناحيه ازداد تحليقا ، وكلما حاول إضفاء تعبير الذلة والمسكنة بدا أعمق شمخة ، وأكثر نزوعا ، خط السير تلقاه عبر الهاتف من حرير السويسى نقلا

عن سهير الفيومى، حتى لا يجرى أى حوار بينهما. هذه تعليمات سيادته الشخصية.

غير أن الأمر ليس بهذه البساطة، الفروق واضحة.. نعم، هذا سائق، وهذا رأس المؤسسة وسيدها القوى، المتصرف فى شئونها.. نعم، ولكن ثمة حيز ضيق يضمهما معا لمدة من الوقت، ومن ناحية أخرى، مصير كل منهما مرتبط بشكل ما بالآخر، لهذا مهما كانت الصلة رسمية، جافة، فإن أمورا غير منظورة تعمل عملها.

الحق أن أول توصيلة كانت صعبة بالنسبة للمنياوى، كان يسعى إلى فهم ما يبدو من سيادته بدون أن يلحظ ذلك، ليس بهدف التجسس عليه، ولكن ليريحه، ليتجنب ما يزعجه، ليصبح جزءا مكملا له، ومنفصلا عنه، خلال خدمته مع الآخرين كان يعرف من ملامحهم ما يريدون قبل النطق به، ولكنه لم يعرف قط مثله، إن وجه سيادته هادئ تماما، لا يمكن استنتاج أى مشاعر أو انفعالات من خلال عينيه، أو حركة فمه، دائما شفتاه مطبقتان، مزمومتان، منحنى إلى الأمام فى انكسار بادى، حزين إلى حد ما، ولكن تمرق فى عينيه نظرة خاطفة ترجف من يواجهه، إنه مطرق دائما، ويجمع الكل إن حضوره اتخذ هذا التكوين منذ تلك الحادثة التى راحت ضحيتها ابنته الوحيدة، الجميلة، والتى يغلق الباب على نفسه ليذرف دمعا، أو يشد شعره ألما، الظروف التى راحت البنت غير معروفة بالدقة.

رالروايات هنا متعددة، لكن كثيرون الآن لديهم اقتناع بوقوف عزب الميدومى على أمور دقيقة من خلال تردده على البيت، ويبقى هذا كله غير مؤكد، لم يبد عليه أى رد فعل، ولم ينطلق كلمة أو ملاحظة تتعلق

بالقيادة، كان يطيل التحديق إلى واجهات البيوت، وأحيانا إلى عربات النقل ذات المقطورة، نجح المنياوى فى رصد طيف انزعاج ما. لذلك حاول تجنبها، الابتعاد عن السير خلفها أو إلى جوارها، توقف برفق أمام البيت وحرص على المناورة بهدوء، حتى يتمكن سيادته من النزول إلى الرصيف مباشرة، اتجه مباشرة إلى مدخل العمارة الفسيح، وقف اثنان يرتديان الملابس المدنية لكنهما أديا التحية العسكرية، الحراسة الخاصة، رفض سيادته المرافق الدائم وكتب تعهدا بذلك أرسله إلى هيئة تأمين الشخصيات العامة. لكنه وافق على وجود هذه الحراسة الثابتة أمام البيت، ولم يحدث يوما أن تبادل مع أحدهما كلمة أو رد تحية، ولم يأمر بإرسال كوب ماء إليهما، لكن سهير الفيومى اتخذت قرارا بصرف مكافأة لكل فرد منهما من مخصصات المكتب، قيل إنها خمسون جنيهًا.

لم يتلق المنياوى تعليمات من سيادته بالانصراف أو الانتظار، بعد تردد دام حوالى ساعتين، اتصل بالأدفوى على الرقم النقال، أبدى اعتذارا لأنه تجرأ وأقدم على الاتصال، لكن.. لم يخبره أحد بما يجب أن يفعل، سأله الأدفوى: هل مازلت تقف أمام البيت؟، قال: نعم. أمره الأدفوى أن يعود بالسيارة فورا إلى موقعها الخاص، قال إن مهمته تنتهى تماما عند دخول سيادته البيت، وكان من المفروض أن يتلقى تعليمات بهذا لكن يبدو أن ثمة خطأ وقع، عليه بعد ذلك أن يتجه إلى البيت ويمكث فيه تحسبا لأى طارئ. أو استدعاء مفاجئ، صحيح إن سيادته يتحرك بسيارته هو، ويفضل القيادة بنفسه فى مشاويره الخاصة، لكن قد ينشأ ظرف ما يقتضى استدعاءه، طبعا ممنوع الجلوس فى المقاهى. أو تدخين المعسل، أو لعب الطاولة أو التواجد فى الأماكن غير المرغوب

فيها، وعندما حاول أن يستفسر عن طبيعة الأماكن وتحديدها، قال الأدفوى منهيا المكالمة، أفهمها أنت، أما عن موعد صباح الغد فسيتم إبلاغه ليلا.

عندما رجع إلى البيت، انقبض قلب امرأته وأم عياله، لديها القدرة على رصد أحواله من بعيد ومن قريب، تقرأ ما عنده بالنظر، وتعرف من تردد أنفاسه المدى الذى بلغته أحواله.

لا.. إنها غير مطمئنة، لأول مرة تلحظ انحناءة كتفيه، رغم احتفاظه بالمظهر، لكن ثمة ميل بدأ، أدركته منذ اليوم الأول، حتى الأطفال تفرقوا بعد إبداء فرحهم بحضوره وبقائه بينهم، ولكنه تجاوب معهم من خارج، وداعبهم بينما الهم مدركه، وعندما انفردت به. حملق إلى السقف وزفر، حضنته وملست عليه، لكنه قابلها بصمت منكسر عجيب، هو الذى لا يصمد معه إنسان، ويبادر كل من عرفه إلى بثه ما يشكو منه، هو الذى لم تر منه عيبا أو تقصيرا، المدرسون والناظر والجيران إذ يرون أطفالهم لا يصدقون أن أباهم سائق.

إيقاع أنفاسه تغير، أبقى الباب مفتوحا، خشيت رنين الهاتف ليلا، الحق أنه لم ينم، أغمض عينيه، أينما ولى بالخاطرة أو الفكرة يراه، يلاحقه بصمته، بقبوعه فى أقصى المقعد الخلفى، تضامه على نفسه، لملمة ذاته، غير أن إرساله يقوى فى لحظات بعينها، كثيفة، نفاذة، تكاد تحرق ظهره، وتؤلم روحه.

فى اليوم الخامس خاطبه لأول مرة مباشرة، سأله عن أحسن الطرق التى مارس عليها القيادة، أجاب باختصار وخضوع واستجابة وافرة، كل ما أراد إبلاغه من ولاء، قال إنه طريق الصعيد، تساءل سيادته : لماذا؟

قال لأن كل من يمشى عليه مؤدب، لو خرج عنه سيلقى حتفه فورا، المخاطبة ليلا بالأضواء، والأصول مرعية.

عاد سيادته إلى صمته الغميق، لم يعلق، لم يبد استحسانا أو أى رغبة فى المجادلة كأنه لم ينطق. طبعا المنياوى كان ألم بصيغة المخاطبة الواجبة، حذره الأدفوى من استخدام عبارات مثل «ياباشا» أو «معاليك»، نصحه باستخدام لفظ «سيادتك» عند الحديث مباشرة، أو «الأستاذ» فى حالة الحديث عنه غيابا.

لمدة أربعة أيام لم ينطق لفظا واحدا، أخطر ما جرى خلالها نظرة عابرة رصدها المنياوى عند نزوله، لم يدر، هل هو المقصود بكل هذه الكراهية البادية؟ لماذا يتطلع إليه باحتقار هكذا؟ هل ارتكب ذنبا؟، لا يدرى غير أن نفسه صدت عن الأكل، ولم يعد ينفع معه السمك المقلى بحذق والذى تخصصت فيه أم العيال باعتبارها سويسية أصيلة، كانت أكلة نهاية الأسبوع سمك البلطى المقلى بالتحويجة التى أتقنتها، كان يتصدر المائدة فى صالة البيت، يطعم الأولاد بيده، ينتزع الشوك من اللحم الطازج الطرى، يزقهم بحنية ورفق، ويتمهل حتى يقضى أحيانا ساعتين، ثم يتكئ إلى مسند الكنبة، الصغرى فوق ركبته، روحه فيها، لكنه لا يخل قط بمداعبة الوسطى وإرضاء الكبير، ومعاملته كصاحب، يتفرج مع أولاده ويسهر بصحبتهم حتى تطلب منهم النوم إذ يدنو الفجر، ثم يبدأ همسهما، مناغاتهما.

فى البداية ظنت أن وهنا أدركه، حتى أنها داعبته قائلة برقة ولوم خفى، «ربما لم أعد أعجبك».

التفت إليها، معتذرا، متقربا، شاكيا بغير نطق، دنت منه، ضمته إلى

صدرها، بدأت تهدهده، تخشى عليه كأنه طفلها، أصبحت أما له. حانية، ساعية إلى دفع الأذى، التخفيف من أثقاله، أن يشركها معه، لكن . . ماذا يقول؟ من المستحيل إقدامه على البوح حتى فى صميم تلك الخلوة، لا يقدر على إبداء إشارة، حضور سيادته يسد عليه جهاته، يتمدد راقدا بينهما، يفصلهما، يباعد كل منهما عن الآخر، من يدرى . . ربما يراقب البيت بشكل ما، وسائله عديدة للإحاطة بأحوال العاملين ودقائقهم، الكل يعلمون بوجود خط هاتفى يمكنه من الدخول على أى مكالمة والإصغاء إليها، لذلك يلزم كل إنسان حذره، بدأ ذلك منذ صعود حنفى أمهر عامل تحويلة إلى الطابق الثانى عشر وغياب صوته المتميز، واختفاء قدراته التى أدهشت بعض المسئولين فى الدولة، ومنهم رئيس الرقابة المركزية، كان يمكنه تتبع الشخص المطلوب بمهارة ودأب حتى يتصل به، وتفصيل ذلك أمره يطول.

خلال الأسبوع الثالث من بدء الخدمة مع سيادته، التقى عم شرف به، جرى ذلك قرب مقهى رشيدة، بعد أن تبادلا المودة، بدا أن عند كل منهما ما يود الإفضاء به إلى الآخر، لتعايشهما زمنا طويلا، ولانتمائهما إلى نفس المهنة فإن رغبة فى القربى تنمو، رغم الحذر والخشية.

قال شرف بلهجة خاطفة إنه يوصيه بأمر واحد لا غير، ألا يتحدث معه، ألا يتبادل الكلام حتى لو أبدى الآخر الود عينه.

لكن . . كيف؟ دلنى، أرشدنى يا عم شرف، يا أمير يابن الأمراء، هل من المعقول أن يسأل سيادته ولا يجيبه؟

أصغى جيدا، موزعا انتباهه بين القيادة والتقاط كل حرف، استفسر سيادته عن سنوات حرب الاستنزاف، كيف تحدث إلى جندى فى

الخلاء، وأيضا واقعة إضاءة المصابيح القوية فى اتجاه مواقع العدو برأس العش.

أخفى دهشته، لأن هذه الوقائع مضى عليها سنوات طوال، لا يعرفها إلا قلة، على أى حال.. معروف أن أى إنسان يدخل فى خدمة الطابق الرئاسى، فإنه يتعرض لتحريات شتى ونبش الماضى القريب والبعيد، فما البال بمن يعمل مع سيادته مباشرة، بل يجتمع به منفردا فى حيز ضيق مثل فراغ العربة.

باختصار يجب أن يكون كما يرغب سيادته، إذا أراده صامتا فليسكت، وإذا رغبه ناطقا فليتكلم ولكن بما يُلبى حاجة الطرف الآخر، عليه أن يعرف متى يتوقف، ومتى يستمر فى الحديث، وكيف يبدى الإصغاء، ممن اهتموا به، وحرص على متباعته، عم شرف، طبعا جرى ذلك قبل وقوع الاختيار عليه، عم شرف أضمر حبا لمحمد المنياوى ومودة صافية جميلة وبشهادته التى أبداها همسا فى مواطن كثيرة فإنه قام بالواجب الأتم وأخلص ولم يزل، ماذا جرى إذن؟

سيظل ما حدث مجهولا، فى منطقة التخمينات، خاصة أن محمد لم ينطق رغم أن بعضهم سعى إليه ليفضى ببعض مما شاهده أو سمعه، لكنهم ارتدوا جميعا خائبين.

بالطبع تتعدد الروايات والتفاصيل، فى المؤسسة يدور الحديث وينمو مع الوقت، ثمة ما يقال علنا وما يهمس به سرا، . باستمرار كان ثمة همس وحكْى، لكن ما يتغير نوعيته، وكما لاحظ بعض المتابعين للشئون المؤسسية فإن شخص سيادته أصبح محورا وبؤرة، رغم الرهبة الواقعة، والخشية النامية، والوسائل الجديدة التى لم يعهدها القوم من قبل.

ماذا جرى؟

ثمة من يقول إن خاصية محمد المعروفة عنه عملت عملها وأن سيادته ولج دائرته عندما بدأ الحديث وهما فى الطريق إلى ضاحية المعادى، حكى الوقائع الحقيقية لموت ابنته، كان يتحدث محدقا فى نقطة ما، ولم يدر محمد هل يتوجه سيادته إليه أم يحكى لنفسه؟

لكنه فى كل الأحوال سمع، وليته لم يصغ، كل ما جرى بعد ذلك ترتب على لحظة البوح تلك.

آخرون، وهؤلاء من المتعاملين مع الجراج، وليس من العاملين فيه، طبعا الفارق دقيق وجذرى، قالوا إن سيادته اعتاد التكوم فى ركن العربة، حتى ليصعب على محمد رؤيته فى المرآة العاكسة، وأثناء تقوقعه هذا يسأل باختصار عن أمور غريبة، وأحوال عجيبة، الأمر بدأ بعد أن نطق مستفسرا عن الرجل، هل يمكن أن يصبح شاذا فى عمر متقدم؟

ثمة صيغة ثانية: هل يمكن لرجل لم يعرف الشذوذ طوال عمره أن تقوى الرغبة المعاكسة فيسعى إلى من يضاجعه؟

هناك صيغة ثالثة: ممكن أن يتحول الرجل إلى شاذ بعد الخمسين؟

طبعا تعددت الصيغ والمضمون واحد.

ماذا جرى بالضبط؟

لا يمكن القطع وإن أكد الآخرون أن المشكلة تكمن فى حضور محمد وقوامه، وكره سيادته لكل وسامة أو مهابة. كان محمد المنياوى مفرودا، عريض الصدر، رياضى المطلع، له قبول ومنه سيادة بادية،

كثيرا ما وقعت مشاكل لظن من يروه أنه سيد ومن يصحبه تابع، وهذا معروف فى بعض فنادق الخمس نجوم، ومداخل النوادى الكبرى.

إذن.. لماذا وقع اختيار سيادته عليه؟

للإجهاز عليه.

هل يحتاج إلى هذا الوقت وتلك الفترة؟ ألم يكن قادرا على تحقيق ذلك بخطوة واحدة؟

ربما.. لكنه يستغرق فى ذاته ويلقى أمره الأتم إذ يلتفت شيئا فشيئا حول مصير ما. أحيانا بدون نطق، أونظرة أو لقاء مباشر، وهذا ما بدأت المؤسسة تعرفه منذ تمكنه ومثوله وتسيده على الأركان والفروع، بعد أن أظهر ما أراد، وزلزل المنياوى، رصد تهدلا فى كتفيه وانكسارا فى عينيه، لكنه فوجئ فى الأيام التالية أن ما ظنه عطبا كان سببا إضافيا للمهابة وهذا عجيب، غريب، يطول الحديث فيه.

أبدى الدقة ثم القسوة، طلب منه النزول فى الطرق البعيدة التى يدفعه إليها، يأخذ منه مفاتيح العربة ولا يبدى أى اهتمام بالوسيلة التى سيصل بها إلى أول منطقة عامرة.

يقول المتدينون فى المؤسسة إنه يجىء إلى الطابق الثانى عشر ورائحة البيرة تفوح من فمه، وأنه يعب منها عبا، ولا يتناول أى مشروب كحولى آخر مع قدرته على ذلك، فقط نوع واحد من البيرة التشيكية المصنعة من حشائش لا تنمو إلا فى سهول تلك البلاد.

هؤلاء يؤكدون نطقه صراحة، عندما تساءل فجأة بعد طول صمت.

«ما هذه المنظرة على الفاضى والمليان. . . »

المؤكد أن كثيرين من العاملين، خاصة فى المراتب الصغرى سادهم ارتياح عندما سمعوا بوقوع الحادث. وتطلعوا إلى الخلاص منه. واستعادوا ما صدر عنه، وما جرى منه تجاه كثيرين، بالتأكيد. . كان أبرزهم محمد المنياوى، وبرغم ما تردد عن نجاة سيادته وقرب وصوله سالما إلى المقر الأصلى، فإن نفرا لا يستهان به طوى فى الصدور أملا بالخلاص منه، والحيدة عنه.

المتنــــاوبان

بقى ما جرى على الطريق الصحراوى فى إطار الصمت، لم تنشره أى جريدة، ولم تشر إليه أى وكالة أنباء عربية أو أجنبية، حتى صحف المعارضة المحلية لم تذكر سطرًا واحدًا. أرجع القوم ذلك إلى نفوذ النمرسى القوى المستمد طبعًا من قوة سيادته وشدة مكانته.

لم يره أحد لحظة دخوله المبنى العتيق، وركوبه المصعد الرئاسى، لكن مثول عم شرف فى موقعة بعد اختفاء طال عدة ساعات يعنى عودته، إنه صموت ممتثل، لا يجيب على استفسار، ولا يرد.

فى مثل هذه الأحوال تتوالد الحكايات وتتعدد التفاصيل، قيل إن الرصاص أطلق عليه من عربة بيجو طراز عام تسعة وسبعين، حاذته أثناء انطلاقه بسرعة شديدة على الطريق المحاذى للمزارع المخصصة لتربية الخيول، المرسيدس محصنة، لكن إحدى الرصاصات استقرت فى العجلة الأمامية، اختل التوازن مما أدى إلى انقلاب العربة عدة مرات، كان الملثمون الأربعة يتهيأون للانقضاض عليه، لكن ظهور سيارة سوداء مغلقة الأبواب والنوافذ دفعهم إلى الهرب، توقفت السيارة ونزل منها رهبان دير وادى النطرون، هم الذين أنقذوه، وطمأنوا قلبه، ونصحوه بالإبلاغ الرسمى فى نقطة شرطة العامرية.

الرواية الصادرة عن الطابق الرئاسى تشير إلى اختلال عجلة القيادة عندما انحرف إلى الرمال، العربة كومة من حديد الخردة، من يراها لا يصدق أنه خرج منها سالمًا، فقط مجرد خدوش فى رسغه الأيمن وساقه اليسرى، الكل متوجس، حذر، اضطراب خفى يسرى غير ملحوظ، تردد أن النمرسى اتصل برؤساء القطاعات وأبلغهم برغبة سيادته فى ألا يظهر أى إنسان الجزع أو الفرح، أو إرسال برقيات ملونة. أو باقات زهور، أو إظهار أى علامة غير عادية تشير من بعيد أو قريب إلى الفرح بنجاة سيادته، إنه يعتبر ما جرى أمرًا عاديًا، وأن الله سلم، ومثل هذه الأمور تؤدى إلى بلبال لا داعى له.

النمرسى هو من أبلغ الرسالة، لكن من ناحية أخرى تأكد العاملون أن سيادته لم يتجه إلى مكتبة الدائرى الذى يمارس منه الإدارة الرئاسية، بل قصد مكتب عزب الميدومى فى إشارة جديدة ذات مغزى.

المشكلة التى واجهت المتواجدين بالطابق الرئاسى، ما أبلغهم به النمرسى، التوجه إلى سيادته، مصافحته بشكل عادى، ودى، مع عدم إظهار أى تعبير ينم على الجذع، أو الخشية من الاحتمالات التى كان يمكن أن تقع - لا قدر الله -، المبالغة معروفة فى مثل هذه المواقف، وسيادته يمقتها تمامًا.

موقف غريب، كل ما سعى إليه، عليه ألا يتظاهر بأى إشارة تنم على ما جرى، فى الوقت نفسه على كل منهم أن يبلغ سيادته بالنظر، بتحميل الحروف المكونة للألفاظ العادية مالا يوجد فيها الفرح بنجاته ومثوله سالمًا.

رشف القهوة التى أعدها الميدومى بيده وحملها إلى سيادته وصبها

على مهل تمامًا كما يفضلها، ثم اتخذ موقعًا له بالقرب منه، عاقدًا يديه خلف ظهره، حريصًا على التطلع إلى كل قادم، رن الهاتف المحمول مرتين، وخلالهما أجاب سيادته باقتضاب.

«نعـم . . ».

«آه . . ».

«شكرًا . . ».

لأول مرة يتحدث عبر الهاتف على مرأى منهم ومسمع، بالطبع ما يجرى فى الطابق يتغير عند بلوغه القطاعات الأخرى، إن هذه الإيماءات الثلاث حملت دلالات عديدة. فثمة من يقول إن القيادة السياسية اتصلت به من موقع متقدم باتجاه الحدود الغربية حيث كانت تجرى محادثات معمقة مع الزعيم الليبى المعاصر.

وآخر يؤكد أن قائد جهاز أمنى سيادى أطلعه على الإجراءات الخاصة بمطاردة الجناة.

أى جنـاة؟

لا أحد يدرى.

الموضوع الذى فرض نفسه، تكليفه النمرسى بالإبلاغ، واختياره مكتب الميدومى.

غير أن أمورًا أخرى دخلت المتداولات، ما جرى لعم شرف، وتعيين قائد أمنى للمؤسسة، وهذا يحدث لأول مرة، مما جعل المتهامسين بوقوع حادث اعتداء إرهابى يتطلعون بنظرات ذات معنى ومغزى !

حـــراســـــات

لم تعرف المؤسسة نظام الحراسات الخاصة الذى بدأ فى السبعينيات وانتشر واتسع فى العقدين الثامن والتاسع وتوطد فى آخر القرن مع تصاعد النشاط المضاد وتزايدالعنف .

يذكر المعمرون ومن بلغوا مرحلة الوصايا أن الأبواب لم توصد فى المبنى الرئيسى . كانت تترك مفتوحة بعد انصراف العاملين ، لم يقف عند المدخل إلا الأشمونى ليتأكد من هوية المترددين حتى لا يزعج أحدهم المؤسس - رحمه الله - خاصة أبناء بلدته الذين تعاملوا معه بعشم وجرأة غير مقدرين دقة ظروفه وحراجة وقته .

عديد من الطوابق فى المبنى الرئيسى تخلو تمامًا ، بعض الغرف لم تقفل أبوابها رغم احتوائها على أوراق حساسة ومراسلات ، غير أن أمرًا وقع فى منتصف الأربعينيات قبل عبور الحلفاء من بريطانيا إلى أوروبا ، إذ ضبط أفندى وسيم المطلع بصحبة امرأة شابة ، متينة فى غرفة القياسات الدقيقة ، كانا يتضاجعان فوق مكتب المدير ، اكتشفهما صدفة عم صديق النوبى - رحمه الله - أثناء مروره على غير عادته متأخرًا ، عندما سمع الشخر والنخر والصرخات المكتومة .

اتضح أنه مدرس ابتدائى يعمل بالمدرسة القريبة التى أنشأها المؤسس لأبناء الناحية، لاحظ خلو المقر بعد انصراف العاملين، خاصة الطوابق العليا التى تظلم تمامًا فى الليل، كان مزنوقًا فى مكان يجمعه بتلك البنية الطرية، المفياضة، التى يوقظ صوتها هوامد الرجال ويثير غيرة النساء إذ تنادى على الحليب الطازج.

عندما أبلغ سيادته بالواقعة طلب عبر الهاتف التحفظ عليه وتأجيل استدعاء الشرطة، بعد اللقاء خرج المدرس مصحوبًا بالأشمونى على مرأى ومسمع من الجميع، خاصة صديق النوبى الذى ضرب كفًا بكف، الحقيقة أن المؤسس لم يبد إعجابه بذكاء المدرس وجرأته فحسب، بل عرض عليه العمل فى فرع استيراد المواد الحافظة للصابون، لكن المدرس اعتذر وقال إنه عاهد الله على أن يظل معلمًا للصبية حتى نهاية خدمته.

ضحك سيادته وطلب منه أن يمضى إلى حاله، وألا يمر أمام المبنى، بُهت المدرس الذى بدا إنه يسعى إلى تحقيق مناورة ما لم تخف.

ترتب على الواقعة تشديد النظر إلى مداخل المقر، لكن لم يصل الأمر إلى تخصيص أفراد متفرغين للحراسة، كان للشرطة هيبة حاضرة وقوة نافذة واستمر ذلك إلى بداية العقد السابع. كان السعاة يمرون على الغرف ويتأكدون من إغلاق أبوابها وعند انصرافهم يعلقون المفاتيح إلى لوحة خضراء لا يعرف أحد أين مستقرها الآن؟

لم يرتبط ظهور أول حارس خاص بمدبر الأمور - الخليفة الثالث - إنما بشخصية شاحبة الصيت، من المناطق الخلفية فى الإدارة، أسمه «عطا الباروطى» مدير لقطاع «التسلسل الدفترى». يحار القوم فى توصيف عمله، كذا المؤهل الذى يحمله، أحيانًا يقال إنه دبلوم تجارة قديم، ومرة

أخرى يؤكدون إنه خريج مدرسة التمريض الإنجليزى، ويقول بعضهم إن ملفه لا يحوى إلا شهادة ميلاده!

صامت، مغمغم إذا نطق، مغبش إذا تطلع، على ملامحه آثار نوم وغطيط، لم يقع عليه بصر إلا وكان منحنيًا، كأنه يوشك على صد ضربة ما، غير أنه اكتسب أهمية استثنائية بدءًا من العهد الثامن، تحول مفاجىء، ليس لظهوره فى بعض المناسبات المهمة، أو لتلقيه دعوات منتظمة لحضور الاحتفالات الرسمية التى تنظمها الجهات السيادية، إنما بسبب ظهور عم محمد المخبر كما أطلق العاملون عليه، مع أنه لم ينتم إلى رجال الشرطة السرية، إنما من أفراد الإدارة الجديدة التى أنشئت لحراسة عدد من الشخصيات المهمة، المستهدفة من نشطاء المتشددين، جرى تعجب، وعبر كثيرون عن دهشتهم، وقال الجواهرى: رحم الله سيادته، كان يمشى قاطعًا الطريق الخالى المؤدى إلى المبنى الرئيسى. ويرتاد المقاهى، ويركب أحيانًا عربات الأجرة، ويجلس بمقهى ركس صباح الجمعة، رغم أهمية المؤسسة المتنامية ودورها المتصاعد وقتئذ فى خدمة الاقتصاد الوطنى، خاصة بعد دخولها سوق الذهب والأحجار الكريمة الذى كان وقفًا على أسماء معينة معظمها من القبط أو الأرمن، غير أنه سعى إلى أشهرهم وتعاون معهم فاتحًا لهم أسواقًا جديدة، طمأنهم على مجالاتهم، أكد أن هدفه الحقيقى، دخول السوق العالمى لأهداف بعيدة المدى ستعود على الأمة بخير وفير.

مما يتردد حتى الآن وجود خزائن سرية بالقرب من الفتحة الدائرية تحوى أطنانا من الذهب تفوق تلك المودعة فى القبو الاستراتيجى للدولة داخل البنك المركزى، إضافة إلى مجوهرات نادرة مثل فصوص التاج

الامبراطورى الروسى، ولؤلؤة فى حجم بيضة النعامة، أثمن ما اعتزت بامتلاكه أسرة الهابسبورج. وقلادة من الياقوت النقى ازدان بها جيد الملكة فيكتوريا. ومجموعات من قلادات أسرة محمد على المالكة، وتلك أهم عند البنك المركزى من سبائك الذهب الغليظة، بعضها فى حجم فلنكات السكة الحديدية، إذ تعد من ركائز الغطاء النقدى، وخلال مرحلة الصمود الاقتصادى الأولى ساعدت على عبور المراحل الحرجة، مجرد وجودها ضمان. وليس هذا كله إلا جزءا من الخبيئة العظمى وبعض من هوامشها!

إن إجراءات تأمين هذه الودائع النفيسة من العلامات التى تركها المؤسس. إذ تعتمد على ميراث طويل. بعيد المدى فى إخفاء لفائف البردى، والأثاث الجنائزى، وطرق التمويه، ولكم بذلت البنوك السويسرية من جهد وعروض مغرية للإطلاع فقط على الإطار العام ولكن قوبلوا برفض حاسم، إنه المادة الأولى فى الأسرار العليا للمؤسسة والتى تنتقل من جيل إلى جيل فى أسرة أحد العاملين المقربين جداً من سيادته، غير معروفة بالضبط. ولكن المؤكد أن التلقين الأول الذى يتلقاه من يتولى الأمور عبر تلك العائلة، إذ يطلعونه على حجم الودائع ولكنهم لا يفضون إليه بوسائل التمكن منها. وكان ذلك أمراً مسلماً به، لكنه فيما يبدو لم يقنع الخليفة الحالى ولهذا تفصيل يرد فيما بعد.

لم تعرف القطاعات كافة أى نوع من الحراسة الظاهرة، لذلك كان ظهور حارس خاص للباروطى مثيراً وملفتاً.

لماذا؟

لا أحد يعرف، تحدث البعض عن تهديد أصولى، وقال آخرون إنما يتعلق الأمر بعمليات خاصة لا يعرف العاملون شيئًا عنها ولا تدرج فى التقرير السنوى الذى تودع نسخة منه فى دار الوثائق القومية.

اتصل به رئيس اللجنة النقابية مهنئًا، جاء صوته الأخنف مستنكرًا، متسائلا.

«لماذا؟».

«الحراسة».

أجاب بهدوء بارد.

«وهل يحتاج هذا إلى تهنئة؟»

تراجع آخرون عن إرسال برقيات إليه بعد تأكدهم انقطاع الصلة بين ظهور الحارس واحتمالات تصعيده إلى موقع أرفع. إن ظهور أى إنسان جديد ذكر أو أنثى يثير الفضول العميم والتساؤلات، من هو؟ من جاء به إلى هنا؟ هل يستند إلى شخصيات مهمة داخل المؤسسة أو خارجها؟ لكن عم محمد المخبر وضعه مغاير، إنه يتبع جهة معروفة، إذ ينتمى إلى إدارة الحراسات المتميزة التى أنشئت حديثًا بعد تزايد العمليات الإرهابية، سجل خدمته يتجاوز الثلاثين عامًا أمضى معظمها فى المباحث العامة، تدريبه متقدم، سدّاد فى الرماية، قامته متوسطة، ممتلىء قليلاً، ضغطة يده متينة عند المصافحة وإن بدا وجهه مجهدًا، ظلال غميقة تحيط عينيه، مازال نطقه للألفاظ ريفيًا. صبور، كتوم، لا يتحدث عن مهام عمله إلى أقرب الخلق إليه، متخصص فى مراقبة اليساريين عامة والشيوعيين الماويين والجيفاريين وأصحاب قناعات الكفاح المسلح، يعرف

ملامحهم، والمقاهى التى يلتقون بها، أقام صلات مع عدد منهم، مارس التعذيب خلال حملة الاعتقالات الكبرى التى أعقبت اضطرابات الخبز، وقع عليه الاختيار للخدمة فى الحراسات المتميزة لدربته وحنكته، إنها من الوحدات المتقدمة، رواتب أفرادها مرتفعة نسبيًا، ويتقاضون بدلات عدة، إضافة إلى هبات خاصة من الأشخاص المعينين، لكن . . ليس فى كل الحالات، بعضهم على درجة من البخل والتقتير بحيث لا يرسل إليه كوب ماء أثناء الانتظار المنهك، أو يقدم إليه طعامًا أثناء الوقوف فى الطل أو القيظ بينما البك يأكل ويشرب على راحته فوق، وكثيرًا ما تطول ساعات انتظارهم فى العراء، أو خارج قاعات المطاعم وأمام الفنادق الكبرى.

الحق . . البـاروطى هادئ وكـريم، اصطحبـه واشـترى لـه قـمـصـانًا وحلتين، واحدة صيفية والثانية شتوية، وأطقم ملابس داخلية، يعرف أن معظمهم يهتمون بالخارجية ويهملون التحتية، أوصاه بالعطر، العطر، العطر! . فيما بعد عرف عم محمد السبب، خاصة بعد ركوبه العربة وإغلاقه النوافذ، إنه يعانى اضطرابات معوية حادة، أحيانًا يضطر إلى تخفيف الضغط فيتطلع القوم إليه، عند انفراده بشخص مهم تصدر عنه قرقرة ودربكة وأحيانًا صفير وعويل، عولج مرات وتناول وصفات بلدية وشرب النعناع الجبلى المزروع فى الساحل الشمالى، لكن لم يأت هذا بنتيجة حاسمة، أكد هذا عم محمد فيما بعد.

رغم أنه مـصـدر غـازات مكثفـة لكنه يوشك على الإغـمـاء إذا شم رائحـة كريهـة غيـر صـادره عنـه، خاصـة العـرق، لا يطيقـه، هـذا ما شرحه لعم محمد أول أيام خدمته معه بوضوح لأنه سيلازمه، يجلس إلى جوار السائق، فى ظروف معينة، سيجاوره طبقًا لتعليمات الإدارة،

إن المتطرفين أشداء مدربون جيدًا، بعضهم أمضى سنوات فى أفغانستان، لكنهم ليسوا الخطر المباشر على الباروطى، من يستهدفه إذن؟ . هذا ما لا يجد له إجابة حاسمة، يخرج الأمر هنا عن أمكانياته، إنه مكلف بصد هجوم مباغت. ربما يقع بعد دقائق أو أيام وقد لا يحدث أبدًا.

فى الأيام الأولى التزم التعليمات الحرفية. قبل توقف العربة أمام المدخل يتأهب، يتطلع متفحصًا ثم يفتح الباب، يقفز فى حركة خفيفة، رشيقة، متقنة، تستقر قدماه بينما جذعه يميل إلى الخلف ليتناسب عكسيًا مع حركة السيارة التى لم تستقر بعد، يتلفت مستوعبًا، يمشى خلفه، يتبعه كظله، يركب معه المصعد، لا يفارقه إلا أمام المكتب، عندئذ يلزم مكانه.

فى اليوم الأول ظل واقفًا، مستنفرًا، لم يرمش له جفن، عندما أدركه وهن استفسر عن مقعد، جاءه كبير المعاونين بواحد متين، وحدد له موقعه المواجه للباب بحيث يمكنه التطلع إلى الداخلين والخارجين، لزوار الباروطى صفات مغايرة عن الأقسام والإدارات الأخرى، لا رابطة يمكن أن تصل بينهم، موظفون فى سفارات أجنبية وأصحاب ورش صغيرة ورجال أعمال قدامى وعاملون بمصانع الفخار وقمائن جير ومعاصر زيوت من الطرز القديمة، ومعارض حلوى ذات فروع، ومستوردون للأسلاك الكهربائية، والأجهزة المعاونة ونقابيون محترفون وقيادات متقدمة من الحزب الوطنى الحاكم، وناشرون للكتب الجامعية وضباط من رتب مختلفة وتجار غلال من سوق أثر النبى، وعاملون بمكاتب السجل المدنى وبعض الجهات الرقابية، وآخرون لا يمكن تحديد أعمالهم أو مجالات نشاطهم وهؤلاء أربكو عم محمد لعجزه عن التخمين الذى

أتقنه عبر سنوات طويلة من المتابعة . سألوه فى الإدارة عن حقيقة وظيفة الباروطى ، لم يقدم إجابة محددة كما اعتاد ، الضابط شاب صغير لم يمض على تخرجه وقت طويل ، تطلع إليه مظهراً الشك وذكره بولائه الأصلى ، عندئذ تناول مصحفًا ، فتحه على سورة يس ، وضعه على عينيه وأقسم أنه لم يتعرض لأى تأثير مؤسسى ، وأنه مهتم جداً بتحديد عمل البك لكنه فشل .

الحقيقة أنه ينتمى إلى المؤسسة ولا ينتمى ، عمله ليس متصلاً بأحد شخصياتها فحسب ، إنما يتمتع بامتيازات إضافية مثل أحقيته فى المنح والحوافز والعلاج الطبى المجانى ، بل إنه أسر إلى الطبيب بوهنه فى «البيت» نتيجة لشغل البال وظروفه الضاغطة ، إن زوجته لا تطلب ولا تسعى ، إذا رغبها استجابت وإذا كف لا تشير من قريب أو من بعيد ، راضية دائما ، شاكرة الستر ، إنه يود . . يتمنى قدرة محدودة تمنحها بعض حقوقها عليه ، قدم إليه الطبيب المتمرس مجموعة من الأقراص الملونة والعينات المجانية ، يبدو أنها حققت أثراً إيجابيًا ، إذ رفع عم محمد يديه بالدعاء للطبيب بعد أن أدى صلاة المغرب . عم محمد له نصيب فى المنح التى يقبضها العاملون الدائمون والمؤقتون عند حلول العيدين وشهر رمضان الكريم وقبل دخول المدارس ويوم آخر حدده المؤسس ولا يعرف سره حتى الآن ، السابع من مايو ، المؤكد أنه ليس عيد ميلاده فهذا معروف وله احتفال أشرف على ترتيبه لسنوات طوال عم صديق ، كذلك يتلقى نصيبه من الهدايا فى الاعياد والمناسبات ، مثل حلوى مولد النبى ، وهدايا رأس العام ، لكن هذا كله لم يؤثر قط فى ولائه للجهة التى يتبعها ، إنه غريب مهما طال مكثه ، وامتد عمله هنا . إنه قديم ، ملتزم بالأصول وملف خدمته نظيف تمامًا .

شخص ما، ربما من الطابق الثانى عشر اتصل بالباروطى وطلب منه إبعاد الحارس من الممر، لماذا؟ . لا إجابة محددة، كثير من الأمور لا يمكن شرحها أو تحديد مصادرها أو مساراتها، قال الباروطى إنه مسموح له بالجلوس مع السائقين، أو بمقهى رشيدة، المبنى فسيح، المهم. . عليه الإخطار بمكان تواجده، المقر مزود بأحدث أجهزة الاتصالات، يتم تطويرها باستمرار، وبرغم هذا سيخصه بجهاز حديث لا يسمح باستخدامه إلا بإذن خاص من المجلس المركزى للأمن القومى.

فتح الخزانة السرية بعد ضغطه أرقاما، تناول جهازاً أسود معدنيًا أقل حجمًا من علبة السجائر محلية الصنع، يوضع فى الجيب، يعلق إليه كأى قلم، إنه جهاز للاتصال، يرسل ويستقبل فى دائرة قطرها خمسة عشر كيلو متراً، لكن استخدامه لا يتم إلا فى الحالات الحرجة، مثل وقوع حادث أو هجوم ما، ثمة زر أخضر له خصوصية قصوى إذ يتصل بالأمن السيادى، يجب ألا يلمسه إلا عند وقوع الكارثة، إن استخدامه فى غير موضعه سوف يثير مشكلة للأجهزة المتخصصة.

عم محمد استوعب كافة ما قيل له، أمضى عمره يصغى وينفذ ما يخطط له، تناول الجهاز بثقة، لم يظهر أى ارتباك، أومأ برأسه، لكنه أخفى قلقه، إذ أصبح الجهاز موضع شغله ومركز تفكيره، دائمًا يصغى لعله يرن، أو يشتبه عليه الأمر، أشد ما يخشاه أن يلمس الزر الأخضر، فى البيت لا يتركه بعيداً، شرح لامرأته خطورته، حذرها أن يلمسه أى ولد من الثلاثة، أو ابنته المتخلفة عقليًا، بلغ حرصه عليه أنه كان يصحبه معه إذا دخل الحمام الضيق، يسنده فوق رف صغير مخصص للصابون، يصب الماء على رأسه ونظره مشدود إلى الجهاز حتى لو حرقت الرغوة

عينيه، يوميًا يدعك جسده مرتين باللوف والصابون المعطر، إزالة عرق سنوات طويلة ليس بالهين، لكن عليه إرضاء البك، ألا يعصى له أمرًا، سمع من يؤكد حدة غضبه إذا بدا رغم هدوئه البادى وصمته الدءوب، تركيزه كله على الجهاز الآن، لو غفل عنه يجفل.

المقهى محطة الراحة الوحيدة فى شقائه الطويل، هنا يتخفف من الشدة المتصلة، من استنفاره الدائم والمرتبط بتوقعه هجوم ما، حتى بعد انفراده بنفسه، دائمًا يتوقع الخطر، يعرف رواد المقهى فردًا، فردًا، يأمن بينهم، الغريب يظهر بسرعة، مطلع على أسرارهم، متتبع لأحوالهم، ليس كمخبر، لكن من موقع الصاحب الذى تتجدد إنسانيته باللقاء وتنجلى أحواله.

أحيانًا يلجأ بعضهم إليه لقضاء أمور صغيرة، نجح دائمًا من خلال صلاته الطيبة بشخصيات تولى حراستها، لم يردوا له طلبًا ولم يخيبوا له مسعى، انضباطه معروف، وسجل خدمته نظيف.

عند اقترابه من المقهى تسرى عنده حيوية، تنزاح هموم وتشب عاطفة تجاه الكافة، إنه ينتمى إلى هذا الجمع، تلك الألفة. والدعابات المتبادلة، وارتشافه الشاى الثقيل بمتعة، وجلوسه ساعات يتابع لعب الطاولة، لم يلق بالنرد قط. ربما بتأثير ما تلقاه من تحذيرات فى طفولته وصباه، المقهى باعث على الفساد، لكن جلوسه تلك الأوقات الآن منجى!

لم يضايقه الانتظار، اعتاده، لكم اقتفى آثار بعضهم حتى ولوجهم عمارات شاهقة أو سرايات فاخرة، عندئذ يبدأ كمونه فى الشارع، وحيدًا معرضًا لكل سوء، يسترجع خلال انفراده مكنون ذكرياته البعيدة، يتأمل

نفاصيل المكان، يستوعبه، أشد ما يؤلمه أن يتعامل معه آخرون بازدراء، أو إهمال.

ارتاح إلى السعاة، فى البداية لم يخفوا حذرهم، إنه من الشرطة السرية، أطلقوا عليه فى البداية «محمد المخبر» لكن، بعد تعدد الحراس، وتأسيس الجهاز الأمنى الخاص وثبوت الفروق. صار معروفًا بعم محمد، ثقة متبادلة توطدت، حتى صار موضعًا أمينا لأسرار العديدين منهم، لم يتحدث قط عن عمله، كثيرة تلك الأسرار التى ستمضى معه، رغم كافة ما رآه من الباروطى فلم يفش أمرًا، حتى بعد وقوع ما جرى، اقترض منهم وأقرضهم، تكلموا وأصغى، اقتسم معهم الأرغفة. أحب ناجى أفندى بطرس القبطى، موظف الأرشيف القديم، العارف بأصول الكتابة الديوانية وخاصة المذكرات. إنه حجة فى ذلك ومرجع لا يستهان به، أعاده المؤسس إلى بعض الهيئات والمصالح لتقديم النصح والخبرة. ائتنس كل منهما بالآخر، خاصة بعد أن عرض عليه بطرس أفندى الجلوس عنده فى مكتبه الخالى من أى فتحة، جدرانه صماء، أكد البعض أنهما يعرفان بعضهما من قبل، مع أن عم محمد من بحرى، وناجى أفندى صعيدى، الأول يسكن فى كفر الزغارى، والثانى قرب ميدان السكاكينى، ممن سعى إليه وتعلق به فرغلى العربى. إنه أحد الشخصيات الأولى التى ارتبطت بالمؤسسة ولا يعرف أحد بالضبط الظروف التى أدت به إلى تلك المنزلة، كان سيادته عند خروجه من المقر يصغى إليه ويقف معه مددًا زمنية غير قصيرة.

كان لفرغلى العربى هيام بالخشب وكافة ما يرتبط به، خبير بأنواعه، ضليع فى التعامل معه، كيفية معالجته، صناعة أدوات شتى منه، بدءًا من

طرز الأثاث المتنوعة إلى الأقلام الرصاص والإطارات الصغيرة وعلب الزينة الموشومة بالزخارف المنمنمة. عم محمد يعرف سر استدعائه إلى قصر عابدين ومكثه داخله ستة شهور، لا يخرج ولا يدخل منه، الشائع أنه أعد سريرًا ذا مقاس خاص للملك فاروق بعد أن تزايد وزنه وصار لا يقدرعلى النوم إلا إذا اتخذ وضعًا معينًا، مما اقتضى سريرًا له مواصفات خاصة، هذا ما يعرفه القوم، لكن ما صنعه محمد العربى مختلف تمامًا. إذ أعد مكتبًا متوسط الحجم يحوى أدراجًا سرية يصعب الوصول إليها إلا لمن يعرف السر، هما اثنان فقط، الملك نفسه، ومحمد العربى، احتسبت أيام غيابه مهمة تقاضى عنها مرتبًا كاملاً، لم يحاول المؤسس أن يستفسر منه، حتى بعد قيام الثورة وطرد الملك وبدء الاستيلاء على مقتنيات القصر ومنها هذا المكتب الذى ظل مصدر حيرة لفترة طويلة وكان سببًا فى إدراج اسم فرغلى العربى فى كشوف المشبوهين، فإذا بدأت حملة ضد الشيوعيين اعتقلوه، وإذا جرت هجمات أمنية ضد الإخوان المسلمين انتزعوه من بيته، وهذا لرفضه الإفضاء بسر المكتب تنفيذًا لعهد قطعه على نفسه بين يدى الملك، هل يخالفه؟ هل ينقضه؟

مستحيل، ظل وفيًا مع شدة النوازل، كان محبًا لعم محمد، دائم التقرب منه، وكان عم محمد يتعجب لسكنه البعيد فى ذلك الوقت، بيته عند قدمى أبى الهول، يفتح النافذة فيطل على ابتسامته الغامضة والأفق الأهرامى المهيب. ولد هناك من عرب نزلة السمان، ومنها بدأ حبه للخشب، لا يرى قطعة إلا ويقبل عليها، يشذبها، يهذبها، يصنع منها شيئًا، لم يجمعه بعم محمد أمر معين أو سبب محدد، بل إن الصمت يبدأ فور تلاقيهما، يتطلع كل منهما إلى الآخر، ينطقان عبارات المودة ويعودان إلى سكوتهما، المهم . . أنهما توافقا.

إنه أبوى الحضور، لطيف الطلة رغم خشونته وقسوته البادية، واكفراره أحيانًا، مما أثار محبة الجمع له مواظبته على أداء الفروض فى المصلى الصغير الذى أسسه العاملون فى الطابق الرابع، مساحة خالية غير مستخدمة قرب المصعد، فرشوها بحصير اشتروه من انبابة القريبة، أول من رفع الأذان وأم المصلين الأستاذ جمعة الشيوعى الذى أثار فضول عم محمد كثيراً.

كان صوته جميلاً قويًا وبه حنيات، يجذب كل من يصغى إليه، بدأ الأذان بعد عودته من ليبيا، مما أدهش عم محمد مواظبته وإخلاصه فى أداء الفروض وحرقته أثناء التلاوة، كان يتوضأ بعناية ويتخذ وضعًا فيه امتداد عبر الفراغ، يرفع يديه، يتمهل فى رفع الأذان، كيف يتفق ذلك مع ماضيه السياسى اليسارى والذى أدى به إلى السجن مرة ثم المعتقل مرة أخرى؟، لم يكن السجن السياسى قبل ثورة يوليو بالقسوة التى عرفها الكثيرون بعدها. كان للسجين الحق فى الزيارة وطلب الطعام المخصوص والملابس لكن بعد صدور الأحكام كانوا يكبلون بأثقال الحديد، وقد أبطل ذلك عام أربعة وخمسين فى حفل مهيب حضره قائد الجيش عبدالحكيم عامر وبمراجعة الصور يمكن رؤية المؤسس بوضوح أثناء تكسير القيد إيذانًا ببدء عصر الحرية كما ذكرت الصحف، لماذا شارك؟ لا أحد يدرى.

عرف جمعة السجن إذن فى أواخر الأربعينيات ويبدو أنه دخل النشاط السرى إرضاء لصاحب حميم حدثه طويلا عن المساواة، والطبقة العاملة وتغيير العالم إلى الأفضل، انضم إلى تنظيم صغير لا يرد ذكره كثيراً عند التاريخ للحركة الشيوعية، أمضى سنة ونصف فى المعتقل، بعد خروجه بدأ سعيه للسفر إلى الخارج، لم تكن هجرة المصريين إلى الدول

العربية النفطية بدأت بعد. بل إن فكرة السفر كانت غريبة، مستبعدة، قاصرة على سفر المدرسين وكانوا يتقاضون مرتباتهم من الحكومة المصرية. نجح جمعة فى الحصول على جواز سفر وإذن خاص، وسافر إلى ليبيا فى زمن لم يكن فيها من المصريين إلا البعثة الدبلوماسية، بعد ثلاث سنوات عاد صامتا لا يفضى بأى تفاصيل عن عمله هناك أو حياته لكن أحد زملائه قال إنه يحتفظ فى بيته بصورة مع الملك السنوسى فى إحدى زوايا الطريقة الصوفية السنوسية، بدا ميالا إلى الصمت، عزوفًا، حريصًا على أداء الصلاة فى أوقاتها، لكن أجهزة الأمن المتخصصة لا تعرف هذه المظاهر، تكرر استدعاؤه بين فترة وأخرى، لكنه لم يدرج كعنصر خامل إلا بعد إحالته إلى التقاعد عقب التأميمات الكبرى، وانقطاع أذانه من المؤسسة، ويؤكد البعض أنه يجاور سيدى عمر بن الفارض حتى الآن. ما بقى منه عند عم محمد دقته الشديدة فى التوقيع عند الحضور والانصراف، ومواظبته على أداء الصلاة وإخلاصه فى الأذان، سعى العاملون إليه وقولهم إن الله غفور رحيم. كان المصلون ينصرفون جميعًا عدا هو وعم محمد، يبقيان قليلاً، أحيانًا يبسط يداه بالدعاء أو يتمتم ثم يصافحه بحرارة وينصرف صامتًا.

من الذين حيروا عم محمد أيضًا بيومى مجنون الحنفيات، كان يفارق أشد الاجتماعات حساسية فجأة ويتجه عبر الممرات والصالات إلى دورة مياه فى أحد الطوابق ـ عدا الثانى عشر ـ ليغلق صنبوراً مفتوحًا، أو ليحكم آخر يسرسب الماء. كانت حاسة السمع لديه عجيبة، لم يسمع عم محمد أو غيره بمثيل لها. لا ترصد إلا صوت قطرات الماء المنسابة نتيجة إهمال، قبل انصرافه يطوف بدورات المياه كلها، والمعامل الخاصة، حتى صنابير

الورش والجراج، شيئًا فشيئًا نسى اسمه وعرفه القوم بمجنون الحنفيات، يقلقه يوم ما قد لا يبلغه تجف فيه مياه النيل نتيجة حدوث تغيرات مناخية فى الهضبة الاستوائية أو عند منابع النهر، كتب عدة مقالات فى صفحة الرأى بالأهرام، ولكنه لم يلق ترحيبًا خشية إثارة الفزع عند الرأى العام، تفرغ تمامًا لجمع أدق المعلومات عن الموقف المائى، وتردد كثيرًا على مركز البحوث المائية، بذل جهودًا لإغلاق الصنابير المفتوحة، وإصلاح صناديق الطرد المعطوبة، وله أمور شتى معروفة، لكن ما أكده البعض يبدو أنه صحيح، فجنون بيومى لم يكن إلا امتدادًا لهواجس متمكنة من المؤسس نفسه!

كان عم محمد يتردد على كثيرين، يتجول فى الأروقة والمكاتب، أحيانًا يتوقف هنا أو هناك. فى البداية عامله البعض بحذر. إذ إنه يمت إلى جهاز الأمن ليس جزءًا من المؤسسة رغم أنها تضم من لهم صلة قوية بتلك الأجهزة مثل الأزميرلى الذى خرب بيوتًا لكنه أولا وأخيرًا من التكوين. بدأ منه واستمر فيه، أما عم محمد فطارئ، يتبع جهة خارجية، يتقاضى مرتبه منها ويأتمر بها، رغم أنه مال إلى العاملين، وإلى المكان، وتمنى أن تمتد مهمته وألا تنتهى.

خاصة بعد أن سهل له الباروطى الحصول على امتياز العلاج الطبى ومكافأة خاصة تصرف له من الخزينة المركزية.

ما أقلق عم محمد غموض الباروطى، خاصة تلك المشاوير الغامضة التى يضطر خلالها إلى الانتظار فى الشارع لساعات بعد دخوله إلى مبان معينة فى الزمالك والمهندسين وعمارة مطلة على حديقة الأورمان قرب الجامعة، هذه العمارة بالذات كان يتردد عليها كثيرًا فى الصباح أثناء

مواقيت العمل. عم محمد ذكى، حساس، فى البداية شعر بمهانة. لكنه برر الأمر، فهو يستنتج، وليس متأكداً تماماً، ثم إن عمله حماية الباروطى، إضافة إلى ذلك فلم يطلب منه الرجل شيئاً، مرة واحدة فقط التفت إليه عند توقفه فى شارع البرازيل، قال بلهجة رسمية، كأنه يلقى بياناً:

«إذا لم أرجع خلال ساعة، اطلع لتستعجلنى، الطابق السادس، شقة واحد».

قبل انقضاء الساعة بخمس دقائق رجع إلى العربة. دخل مسرعاً وكأنه لم يقل أى شىء، لفترة طويلة سوف يذكر هذه اللحظة ولحظة أخرى حسمت الصلة وظلت لغزاً ومثار رهبة عنده حتى الآن.

جرى ذلك عند العمارة المطلة على حديقة الأورمان، إنها البناية الوحيدة التى يخرج منها مسروراً، راغباً فى القربى، مستبشراً بالدنيا، خاصة إذا جاء ما بين الخامسة والسابعة.

ما جرى، وقع بعد السادسة والنصف، بعد أن دخل سيادته العربة وأدار المفتاح، بدأ مناورة يسيرة للخروج إلى عرض الطريق، عندئذ ظهروا فجأة، أين اختفوا؛ كيف أحاطوا بهم؟

من بوق محمول، بدأ الضابط يحذر من المقاومة، ويطلب الاستسلام الفورى، وكما يحدث فى الأفلام راح يردد.

«الباروطى سلم نفسك».

إنها اللحظات الأتعس طوال خدمته، إذ وجد نفسه بين نارين، فهو من ناحية مأمور، مكلف بحمايته، وها هو يواجه الذين أمروه بحمايته، يقف بمفرده فى مواجهتهم. يتصدى لنفسه، إنهم شرطة، ليسوا

متنكرين، كيف يتصرف؟ ماذا يفعل؟ هذا ما لم يكن فى حسبانه قط. غير أن الباروطى وضع حدًا للحيرة الفتاكة، إذ خرج رافعًا ذراعيه على امتدادهما، عندئذ تقدم الضابط المدرب شاهراً سلاحه، لوى ذراعيه بحركة خاطفة، أوثق معصميه بالقيد الحديدى، وتحسس جسده من أعلى إلى أسفل، أخرج مسدسًا عاجى المقبض كان مشدودًا إلى الكتف الأيسر، فيما بعد قال عم محمد لقائده المباشر إنه لم ير أى سلاح معه من قبل، ولم يرصد أى علامة تدل على ذلك.

لماذا أصدروا له أمرًا بحراسة الباروطى؟

لماذا هاجموه واعتقلوه بهذه الصورة العنيفة؟

لم يلق عم محمد جوابًا محددًا، وبدأ ينتبه إلى الغموض الكامن فى هذه المؤسسة، بقدر ما تبدو الأمور سهلة ميسورة بقدر ما تحوى من أحاجى وأسرار، عندما رأى القوة تتخذ أوضاع الهجوم امتدت يده إلى مسدسه الكامن، لكنه كف على الفور وغمره خوف وحيرة.

كان عم محمد المخبر أول الحراس الذين عرفتهم المؤسسة، ولم يكن آخرهم، إن شخصه الطيب، البسيط، مناسب لذلك الزمن الذى لم تكن فيه طوابق محظورة، أو مناطق مغلقة أمام معظم العاملين، ولم يكن أحد فى حاجة إلى بطاقة خاصة يمررها فى جهاز محكم ليفتح بابًا أو يعبر إلى قسم ما. لينتظر فى ممر أو يتناول طعامه مع أحد السعاة.

هذا عصر ولى وانتهى أمره، ويستعيده البعض باعتباره باعثًا على التندر والسخرية، فلكم تغيرت الأوضاع فيما بعد، خاصة منذ منتصف الثمانينيات، ومع اشتداد العنف الأصولى واستهداف العديد من العاملين، ظهر ذلك التعبير.

«فلان نزل له حراسة . . » .

يعنى ذلك تخصيص أحد رجال الأمن للمرافقة ، بالطبع يحتاج الأمر اثنين أو ثلاثة للشخص الواحد إذا كانت الحراسة لمدة أربع وعشرين ساعة ، وهكذا عرف الفرق بين المرافق والحارس المقيم الذى يقف أمام البيت .

ثم ظهرت القوة المكونة من عدة أفراد ويستقلون عربة تسير خلف سيارة المشمول بالحماية ، ويطل أفرادها من النوافذ ليشيروا إلى العربات الأخرى بالابتعاد وعدم الاقتراب ، وأحيانًا يشهرون أسلحتهم ، مما أثار شكوى العديد من الخلق ، فأرسل بعضهم إلى كتاب الأعمدة وأبواب البريد ، لكن . . الأمن . . أمن .

بالطبع خصص لسيادته قوة يتجاوز عددها عشرة أفراد مسلحين ، مدربين بقيادة ضابط برتبة مقدم المفروض أنه يلازمه ويجلس إلى جواره أو فى المقعد الأمامى ، لكنه فاجأ الأجهزة المعنية برفضه الحراسة ، مما دعا رئيس جهاز الأمن السيادى إلى الاتصال به وطلب خطابًا رسميًا موقع منه لأن المعلومات المتوفرة عند الدولة تؤكد استهدافه وبالتالى ثمة مسئولية تقع عليهم ، لم يتأخر سيادته ، إنما بادر إلى إرسال تعهد خطى واضح بعدم قبوله الحراسة . بدا وضعه غريبًا ، إذا يتحرك بدون حارس ، بينما بعض الموظفين العاملين فى مستويات أقل يقف على أبواب مكاتبهم حرس مدجج ، ويرافقهم آخرون ، وأمام بيوتهم ، لم يرفض أحدهم ، بل سعى البعض إلى التوسط لفرض الحراسة عليه ، ومنهم عزب الميدومى الذى بدأ أمره بمرافق يلازمه كظله ويتقدمه إلى الأماكن التى يقصدها حتى أنه يفتح له باب دورة المياه وينظر خلفه ويشد السيفون تحرزًا من وجود

عبوات موقوتة، ويسبقه إلى الأماكن المدعو لها. ويعاين المخارج والمداخل، ويطلب تذوق عينات من الطعام الذى سيأكله البك.

فى البداية قابل البعض ذلك بسخرية، وتساءل نفر منهم: أى عزب هذا وما أهميته؟ إلا أن المرافق أصبح اثنين، ثم ضوعف الأفراد، وظهر نفر جديد برتبة أمين شرطة يتمنطق بمدفع قصير مشدود إلى عنقه برباط جلدى عريض واضح للناظرين. ثم تخصيص سيارة لهم، كانت تتعقب عربته أو تحاذيها.

وقبل توقفها أمام البيت تطلق صفيراً متقطعًا يذكر المعمرين بنوبات الإنذار التى كانت تحذر المواطنين من الغارات الجوية. بينما تطل امرأته من الشرفة متطلعة إلى الفراغ مزهوة.

الحراسة تقتضى حراسة، إذ زاد عدد رجال الأمن وخصص مجلس الإدارة فى اجتماعه السنوى اعتماداً اضافيًا للإنفاق على مستلزماتهم، فى نهاية الثمانينيات ظهر الأمن الأزرق، بعد تكوين شركات خاصة أسسها ضباط أحيلوا إلى التقاعد مع ظهور النشاط الذاتى، وتحلل بقايا العصر الشمولى، كان المنطلق السفارة الأمريكية التى استعانت بعدد من رجال الأمن التابعين لإحدى هذه الشركات، واقتصر دورهم على تنظيم الدخول والخروج من الباب المخصص لطالبى التأشيرة، أما تأمين المبنى من الداخل فيتولاه رجال المارينز الذين لا يفارقون المبنى ولا يخرجون منه إلا لمغادرة البلاد وهؤلاء زنوج على درجة عالية من اللياقة البدنية، قساة، لا يعرفون إلا الرد الأعنف إذا اقتضت الأحوال.

لم تحدد جهة ما اللون المناسب لهؤلاء الحراس أو الشارات، لكن

ارتدى الجميع حللاً زرقاء وعلامات حمراء، شريطًا أو شريطين على الأكتاف، وتنافست الشركات التى تعددت وعندما طرح الأمر فى مجلس الإدارة رفض سيادته تمامًا الاستعانة بأى شركة أمن خاص، وقال إن هذا يعنى عجز المؤسسة عن حماية مقارها وفروعها ومشاريعها وخبيئتها العظمى، المفروض أن تقدم الحماية للآخرين من هنا، لا أن نلتمسها عند الآخرين، هكذا بدأ تأسيس إدارة الأمن الخاص، وهكذا بدأ ظهور رجال الأمن المتخصصين، تسلموا الأبواب والمنافذ، وتوارى ذكر الأشمونى، وإن كان العدد الكبير عند مدخل المقر يذكر المعمرين الذين يترددون لقضاء بعض أمورهم أو للحصول على أوراق لمخاطبة بعض الجهات، وقفة الأشمونى ودقته فى تفحص القادمين، واستنتاج الدخائل من المظهر. كان الأشمونى فريقًا بأكمله، ظللته العناية إن كان حيًا يسعى، أو أمده الخالق برعايته ورحمته لو أنه قضى.

ظهر تنظيم أمنى متعدد، متشعب، لكل طابق فى المقر الرئيسى، لكل مبنى، مسئول يتبعه متخصصون متفرغون على مستويات مختلفة، معظمهم غير معروف بأسمائه الحقيقية، مجهول للعاملين، حتى قالت سهير الفيومى - وهى المقربة - إن عدد الأمن زاد على عدد العاملين، واعتبر ذلك من قبيل التشنيع أو النقد المستتر، لكن يبدو أن القول لم يكن فيه مبالغة، وبدا بعض مسئولى الطوابق فى هيئات غامضة، لكل منهم مكتب صغير، لا يدرى أحد كيف وجدوا المساحات اللازمة، وتحدثت إحدى الموظفات عن نظرات مسئول الطابق الرابع، حيث تقع الإدارة المختصة بالتصوير، كان رجلاً طويلاً، متين التكوين، غامق السمرة، بطىء السعى، جانبى النظرة، يظهر فجأة، لكن ثمة شىء محيط به، يبث

خشية منه، ومقتًا له، رموشه ثقيلة، عيناه مكحولتان. لظهوره وقت معلوم، الرابعة بعد الظهر، يخرج من مكتبه مشمراً بنطلونه وقميصه، على كتفه فوطة وفى يده صابونه، يرتدى قبقابًا خشبيًا، يتجه إلى دورة المياه عند نهاية الممر الذى يلى الموضع المؤجر لمتعهد يقدم المشروبات الساخنة والمثلجة. إلى اليمين للرجال، إلى اليسار للنساء. يتطلع إلى الكافة بنظرة جانبية. مبديًا حدة وريبة. إنه مقيم فى تلك الغرفة الصغيرة، لا أحد يعرف طبيعة عمله بالضبط، متى يجىء؟ متى ينصرف؟ إلى جواره غرفة مستطيلة يجلس بها ست موظفات، إحداهن ترتدى الحجاب، قالت إنها فوجئت به داخل الغرفة يفتش حقيبتها، عندما صاحت به متسائلة عما يفعل، نظر إليها بثبات مؤلم، حتى أدركها رعب حقيقى فلم تقدر حتى على إبداء رد الفعل، ثم همست لإحدى زميلاتها فيما بعد إنه زارها فى المنام عدة مرات، وفى كل مرة تقوم مخضوضة، عندها فزع ورجفة.

ترددت حكايات عديدة عن خروجهم حاملين بعض المقتنيات والأدوات المستعملة، حتى أصبح الأمن فى حاجة إلى أمن ولم تكن الصورة بخافية على سيادته، إنما لمح إليها فى أحد الاجتماعات، عندئذ قال عبده النمرسى:

«رحم الله أيام عم محمد المخبر».

عندئذ تطلع إليه عزب الميدومى متوعداً، لم يخف كراهيته له، لكن ظهر له فيما بعد من اضطره إلى التقرب من النمرسى وخطب وده وسيذكر هذا فى موضعه.

على أى حال، لا شك أن الحادث الذى وقع لسيادته على الطريق

الصحراوى كان نقطة تحول فى النظام الأمنى المتبع حتى هذا الوقت، ورغم أن المتغيرات لم تقع مباشرة، إنما بعد عدة أسابيع، لكن الوشائج التى تربطها بما جرى لم تكن خافية. بدت بعض الخطوات غير مألوفة، مثل تعيين ضابط سابق خدم فى قوات الأمن المركزية لدولة جنوب أفريقيا العنصرية قبل وصول نلسون منديلا إلى السلطة، وكان أحمر الوجه. شديد الصلعة، باهظ التكوين، نافر العضلات، وعندما علم النمرسى تعجب متندراً.

«رحم الله أيام عم محمد المخبر».

حقبة الجلاديوس

ستظل تلك اللحظات فاصلة مهما جرى من محاولات للتمويه عليها أو التخفيف من آثارها، بمجرد عودة سيادته إلى الطابق الثانى عشر مكث فى مكتبه حوالى عشر دقائق أجرى خلالها عدة اتصالات هاتفية، ثم فاجأ الجميع بخروجه إلى الممر، وإبدائه الدقة واللطف اليسير، إن وجهه يستعيد ملامح طفولته النائية، يخفض صوته إلى حد يضطر محدثه إلى الاقتراب أو التركيز للإصغاء، ويصل الأمر إلى خفقان القلوب وترقرق المهج مع طول التطلع إليه، خاصة بالنسبة لمن يلتقى به لأول مرة، وهذا الهدوء البادى يشهد أيضًا تقلبه أو تغيره، لم يكن ينفعل محتداً، ولم يسمع صوته زاعقًا أو زائدًا عن الحد، بل إن أشد لحظات غضبه وفتكه عند انقطاعه واحتجابه عن الأقربين.

بدا سليمًا، عدا رباط طبى أحاط أصابع يده اليسرى، وبالطبع بذل الجميع طاقة قصوى للتوفيق - كما سبق الذكر - بين أمرين متناقضين تمامًا! إبداء الفرحة بالسلامة، وإظهار اللامبالاة تلبية لرغبته التى لا يمكن إلا الاستجابة إليها.

خطواته قصيرة، لكن المؤسسة بتكوينها كله ترقبها، لحركته آثار بعيدة المدى، تفتح بيوتًا وتغلق أخرى، تدفع البعض إلى المشرق وآخرين إلى

المغرب، تبعث الطمأنينة عند هذا والتوجس عند ذاك، هذا حقيقى، إن الوجهة التى يسدد إليها نظراته، أو درجة عمق تغضنات وجهه، أو حركاته اللا إرادية، مثل تراجعه بمقعده المتحرك، أو حملقته إلى السقف، هذا كله لا يخصه، إنما ينعكس على آخرين، وربما بدّل مصائر كاملة، هذا وضع ارتبط بسيادته، نتيجة عزلته وقبوعه فى مكتبه القصى، وفى أماكنه المجهولة بالعاصمة وخارجها والتى يمضى إليها وحيدا، يتصل بالخلق ولا يقدر أحدهم على الوصول إليه.

لم يكن الأمر هكذا بدءا من زمن المؤسس إلى وقت سيادته الحالى الذى يتم فيه هذا التدوين، لم يغلق باب المكتب الدائرى قط فى وجه من يقصده، بعض السعاة وصغار العاملين، بل إن بعضا من سكان الناحية حلوا مشاكلهم عن طريقه ـ رحمه الله ـ بدءا من رصف الطرق، ومد أنابيب الشرب، وإلحاق الأطفال بالمدارس، وإنشاء الوحدات الاجتماعية ومراكز فحص الحيوان والبشر.

ولّى هذا، والزمن غير الزمن، أصبح المركز فى الثانى عشر منعزلا، وعلى الجميع أن يخمنوا ما يجرى فيه، أما أقواله فلم يعد يصل منها إلا أصداء، باختصار أصبحت الأمور تدار من بعيد، بعد أن كان توجيهها يتم من قريب، وهذا حال وذاك آخر، لنا أن نتخيل إذن أهمية أى نبأ يتسرب من الثانى عشر إلى الطوابق الأخرى والمبانى المتناثرة والمنشآت التابعة، خاصة عن ظهوره المفاجئ وجلوسه بمكتب عزب الميدومى وتلطفه مع الكافة، كل متواجد قصده، بعضهم وقف مصغيا، لم يتحدث كثيرا، أومأ، علق، استفسر مرتين بالنظر، غير أن أهم ما تناقله الجميع سؤاله المباغت لسهير الفيومى التى تدير أمور المكتب الدائرى

وتشرف على الملاحق المتصلة به والتى يعد معظمها سريا بعد إعادة صياغة الطابق بواسطة شركة المقاولات الكورية التى صممت السفارة الأمريكية بجاردن سيتى، «أين الجلاديوس؟».

يمكن القول إن حقبة الجلاديوس بدأت منذ نطقه هذا السؤال، كثيرون من العاملين والمتعاملين والذين لديهم صلة لا يعرفون معنى اللفظ ولم يسمعوا به، لكن شاع ونطقه حتى الأميون، يتعلق الأمر طبعًا بالزهور، إذ جرت العادة منذ زمن المؤسس أن توضع باقة ورود تتجدد يوميا على منضدة مواجهة للمكتب الرئاسى، وأخرى فى غرفة الاجتماعات، كان رحمه الله يفضل البانسيه، ويعشق الأوركيدا، لم يتوقف توريدها يوما بواسطة صاحب مشتل صغير عند الكيت كات، مطل على النيل، استمر التعامل معه، حتى بعد التأميم، ثم التحولات الكبرى التى مازالت المؤسسة تعيشها، الخلفاء الذين تعاقبوا تبدلت أحوالهم، الثانى مثلا دخل وخرج ومارس المسئولية ولم يهتم يوما بالزهور، لم يتطلع إليها ولم يشعر بوجودها مما أحزن عم صديق الذى كان يوصى دائما بالنبات المتصل بالمبنى، وخاصة الزهور، كان يلقى عليها السلام عند رؤيتها ويحتضن الباقة بحنو ويؤكد أنها تشعر كالبشر، تفرح وتغضب، تنبسط وتنطوى، مازال يذكر حديث المؤسس عن زهرة رآها فى جزيرة إيطالية اسمها «يوميكا»، تخجل إذا تطلع إليها الإنسان أو لمسها، أكد عم صديق أنها موجودة فى مصر، وأنه شهد فى الواحات الداخلة نباتًا ينطق حروفا بعينها عند طلوع الشمس.

بمجرد تولى سيادته استفسر عن الجهة التى توفر الزهور، قالت سهير إنها ابنة صاحب المشتل، فتح الله عليها ولديها عدة محلات متخصصة

الآن، واحد فى الدقى وهذا مصدر كل زهور المؤسسة، وآخر فى جاردن سيتى، وثالث فى المعادى، قال إنه يفضل الجلاديوس، بعد اتصال سريع عادت سهير لتؤكد ترحيب ابنة صاحب المشتل وتعهدها على أن تحقق رغبة سيادته طوال العام، سيتم توفير الجلاديوس حتى فى غير أوانه، لم يبد أى رد فعل، ولكن سهير لم يغب عنها يوما واحدا الانتباه إلى الزهور، طزاجتها، ونداوتها، وصولها فى موعدها، صفها، كانت تعيد صياغتها وفقا للأوضاع التى يرغب.

فى هذا اليوم بالذات لم تظهر الجلاديوس فى الطابق الثانى عشر، ربما لأن سيادته كان على سفر، لكنها لم تنقطع فى الحقيقة قبل ذلك، اعتبرت سهير الأمر كأنه الزلزلة، سارعت إلى الاتصال بابنة صاحب الشاليه، أقسمت أن ظرفا طارئا عطل الشحنة الواردة من مدينة نايميخن الهولندية، الوقت ليس للجلاديوس فى مصر، لذلك يتم استيراده من الخارج، كان ممكنا أن ترسل زهرة قريبة جدا منها، لكن الجلاديوس لأهل الجلاديوس، إنها ستجهز باقة خاصة، فريدة طازجة، ستحملها شقيقتها الصغرى، كل ما ترجوه أن تسلمها إلى سيادته شخصيا.

سوف يستعيد لحظة ظهورها أفراد المكاتب الأمامية، وعامل المصعد التاريخى، وعم شرف الذى كان قد وصل إلى لحيظات حرجة فى موقعه المثبت إليه، وأيضا سهير الفيومى، وحرير السويسى وصادق الأدفوى، كل من وقعت عيناه عليها لأن كل من يقصد الثانى عشر، لابد أن يحاط المكتب الأمامى به حتى تبدى المعاملة الخاصة، فلا يسأل عن أى بيانات تتعلق به، ولا يطلب منه إبراز بطاقة أو ما يثبت شخصيته، ويصحبه أحد الموظفين حتى باب المصعد الخاص، هكذا.. عندما بدت لجميع من لهم

علاقة بالمدخل، سواء كانوا ظاهرين أو مستترين، أيقنوا أنها جاءت لتبقى، لتستكين قربه بتكوينها اللدن، الهادئ، وصوتها الهميس، منذ ظهورها عرفتها المؤسسة كلها بالآنسة جلاديوس، لكنها لم تكن عابرة مثل عمر أزهارها التى جاءت تحملها ذات صباح باكر.

أن يقيم سيادته علاقة مع إحدى العاملات أو المتصلات بالتكوين فهذا أمر يتناقله الجميع بشكل عادى، خاصة بعد أن ظهر منه ذلك، على غير ما كان يبدو عليه من انطواء حتى قبل صعوده إلى الطابق الثانى عشر، وبدء علاقته بصفية التى مهد لها ودبر عبده النمرسى، لكنها انتهت إلى ما صارت إليه. ولم يعد النمرسى هو المدبر والمسهل لأموره مع النساء، بل ظهرت وسائل شتى أولاها بعضهم اهتماما وبذلوا من أجلها الطاقة، وأحيانا كان يتخذ المبادرة من البداية إلى النهاية ولا يتردد عن الاقتحام، وكثيرا ما قيل، ويل لمن تعرفه!

من هنا جاءت فرادة الموقع الذى شغلته الآنسة جلاديوس، وعندما تجاوزت الحد الذى أمضته كل من شاع أمرها وانتهى إلى ما صار إليه أيقن النمرسى أن الأمر يستحق بذل الجهد، وأن هذه الفتاة تخفى أمرا يستعصى عليه، إنها ليست مثل اللواتى شاع عنهن التضارب من التفاصيل، والحكايات التى خرجت عن النطاق وشاعت فى بعض الأوساط.

من ذلك واقعة «منتزه الزياتى»، كانت بنية مستطيلة الحضور والملامح، مفرطة السموق، كل ما عندها طولى، حتى عيناها، تعيش بمفردها فى شقة ناحية مدينة نصر، ست غرف وثلاث صالات، ومطبخين، ودورتى مياه، إحداهما «بلدى»، والثانية «إفرنجى»، ورثتها

عن والدها، كان شيخا جليلا، مشهودا له، ملما بالتفاسير، ممسكا بالقديم، حقق مخطوطات وكتب لها الفهارس، وشارك فى تصحيح المصحف الشريف وضبطه، كان طيب السيرة، لم يحل بموضع إلا وأودع فيه عطرا ومحنة، وبعد رحيل امرأته دهمه حزن مقيت، انفرد وتقطعت به الأسباب، وعندما آن الأوان وحُد الأجل، وجدت «منتزه» وحدة لم تتوقعها، وافتقادا أقض رقادها زمنا ليس بالهين حتى استطاعت التعايش معه، ما من قريب أو بعيد ولهذا أسباب عديدة يصعب حصرها، أدت فى مجملها إلى إخراجها من دائرة الإناث محط النظر، لم يتقدم إليها أحد، وإن أشارت إلى تاجر أثاث معروف، له معرض عند ميدان الأوبرا، رغب فى خطبتها لابنه، لكن والدها لم يوافق، كل شىء قسمة ونصيب.

كيف دخلت إلى المؤسسة؟

لا يوجد من تعنيه الإجابة، لا يقع الاهتمام إلا عند البداية، تتردد الأسئلة المعتادة: من؟ من أين؟ أى واسطة؟

سنوات لم يبد منها ما يمكن أن يؤخذ عليها، عندما لمحها سيادته فى انتظار المصعد كانت تمر بأحوال بدأت منذ عام تقريبا، أهملت مظهرها، لم تعد تعنى إلا بما يمثل الحد الأدنى. لكن ما أصدق المثل القديم «كل فولة ولها كيال..».

بمجرد صعوده إلى الطابق الثانى عشر، طلب من سهير الفيومى إدراج موعد فى حدود الواحدة إلا الربع.

لا يعنى استدعاء النمرسى ارتباط المقابلة بامرأة ما، إن مهام عديدة

يقوم بها، مثل الإعداد للحفلات الهامة، وشئون المطار، لديه إدار
فيها أربعة عشر ذكرا وأنثى من خريجى الجامعات الأجنبية، يس
ممثلى الشركات والهيئات الأجنبية المتعاملة، لهم شأن فى تخليص
الحساسة الوافدة من الخارج، وتمرير الأوراق والحصول بسهو
الأختام والتوقيعات، إن سيادته يوليهم اهتماما، ويؤكد فى
الاجتماعات أنه لن يقبل أى منتسب جديد إلا إذا كان متقنا للانج
ماهرا فى استخدام الحواسب الآلية، لا يعنيه إلمامهم بالعربية، ا
يتغير والمؤسسة يجب أن تواكب، يقع الجهد الأكبر على النمر،
عملية التحديث التى يراقبها العاملون القدامى بحذر وعدائية إلى
لكنها لا تعلن عن مضمونها ولهذا حديث يطول، النمرسى أو
الخبرة والذكاء ما يجعله مدركا للفرق بين مقابلة وأخرى، حاسة
لا تخطئ تنبئه بالنوعية، طبعا الأمور لا تتم بصراحة حفاظا على ا
جميع الذين عاصرهم بدءا من المؤسس وحتى سيادته لم يجر ا
معهم إلا رمزا عدا المؤسس الذى كان يبسط غرضه مباشرة ويمز
بالمداعبة أحيانا.

فى تلك الظهيرة فارق النمرسى الطابق الثانى عشر حذرا، دهش
أنه رأى من الأحداث والطبائع ما يجعله بمنأى، لكن لا حدود وا
لما يمكن أن يلتقى به من نزوات ورغبات.

طبعا لم يسفر عن حقيقة المهمة التى سيقوم بها، من ناحية أخر
سيادته قليل اللفظ، محدود النطق، يتراجع إلى الوراء قليلا
الإصغاء، وربما يشرد وتترغرغ عيناه بدموع وشيكة تؤكد سهير ال

أن خاطرة أو صورة أو لمحة مرتبطة بابنته، يضع صورتها أمامه فى إطار فضى ورثه عن أمه.

بنية فى الرابعة عشرة تقريبا، زهرة، تدنو من مشارف التفتح والنجابة، يحذر كل من يتماس معه أن يذكرها أو يلمح إليها، إنها الباعث الوحيد على ألمه وحزنه وغضبه أيضا، من أجلها احتمل امرأته وأمورا أخرى، يحاذر النمرسى أن تقع عيناه على الإطار عند دخوله أو خروجه، عند دخوله المصعد لم يستطع التعبير عما يجول عنده، وجود العامل - إنه شاب أنيق، يرتدى حلة خضراء غامقة، محلاة بشعار المؤسسة، يضع على المقعد الدائرى المخصص له كتابا، مرة بالإنجليزية وأخرى بالفرنسية، كثيرا ما يكون موضع حوار سريع مع الزائرين، يعد عاملا تجاوزا، لكنه يتبع إدارة المصاعد المتفرعة من العلاقات العامة - إنه يتبع النمرسى بدرجة أو أخرى، لكنه اعتاد الحذر فى مواجهة الجميع، تزعجه الجرأة التى يبديها ناحيته شاب المصعد كما يسميه، ونظراته الجريئة، وتلك الحدة.

عندما اجتاز الممر الضيق المؤدى إلى مكتبه، قلص ملامحه، ردد بدون صوت، «نزهة؟ نزهة؟».

لم يكن أمرها صعبا، وإن لاقى مشقة فى طمأنتها ومحاولة بث الهدوء عندها، إذ ظنت أنها ستلقى عقابا، أو أنها ارتكبت أمرا، فى الأيام التالية تبدل أمرها. إذ استقام عودها، وتبدلت ملامحها كأن أخرى حلت، ولم يخف على عامل المصعد، كذلك الساعى الواقف خارج مكتبها، وزميلاتها الأربع، تلك النظرة الألقة، وذلك التطلع المليىء بالقبول. وجرأتها على ارتياد بعض الأقسام فى المقر، لم تخف تحولاتها

وتغيراتها، إلى درجة أن إحدى الموظفات علقت قائلة، «كنا فى جرّة وطلعنا لبره..».

ما من أمر يخفى هنا، تلك خاصية عتيقة، بالغة القدم وإن غابت على البعض فترة، ثم تتكشف عناصرها بقوة انفجار مدو، ساطع فى لحظة ما يصعب تعيينها أو تحديدها، كل شىء معلن وغير ظاهر أيضا، كل التفاصيل جلية ولظروف معينة تخفى عن الأبصار، أو ترصدها العيون وتأبى الألسنة النطق، وهذا من أمور المؤسسة الدقيقة، التى تعد أقرب إلى الحس منها إلى العقل، ويصعب التعبير عنها لظروف قابضة وأخرى متعلقة بالخشية والحسابات المنفرة، هذا كله مبثوث فى هذا التدوين، لعل وعسى!

كل أنثى تقترب من الطابق الثانى عشر، أو تدخل فى اهتمامات سيده المتين يشيع أمرها. تبث أحوالها بين العاملين وأحيانا المترددين من خارج. ربما جرى همس، أو تبادل أحوال، لكن الصمت الظاهرى غالب، شائع فى مثل هذه الأحوال، دهش البعض لاهتمامه بمنتزه، وأكدت سيدة فى قسم الوثائق إنه افتضها بيده، إذ عانى كثيرا لسمك غشائها نظرا لتقدم عمرها، وأنها استسلمت له بسهولة، رغم بكائها فى البداية وتأكيدها على عذريتها.

ماذا أعجبه فيها؟

بالعكس، إنها مخزون مركز من الرغبة المقموعة، المنسية، وبقليل من العزف الماهر على بواباتها تتفجر منها حمم. حقا.. إنه لخبير، أما كيف يحيط بوجود أمثالها علما فلا بد أنه النمرسى.

لكن النمرسى طاعن فى السن الآن، كلّ بصره، ويمشى متكئا على عصا من خشب الأبنوس الأسود أهداها له سفير جمهورية مالى عند توقيع الاتفاقية المعدلة مع دول الكومسا.

لكنه مازال يمارس مهامه الخاصة بكفاءة لا مثيل لها.

أمثاله كثيرون الآن، النمرسى تبدو ملامحه قناعا لمهامه تلك، أما عزب الدمنهورى فيسفر بغير وجل، ولا يبذل جهدا فى إخفاء ما عنده.

بعض من لديهم إلمام، خاصة أهل الطابق الثانى عشر يترقبون، إن أحواله يصعب التنبؤ بها، أو استشراف اتجاهاتها. ترددت منتزه على الطابق ثلاث مرات. أطول مدة أمضتها معه نصف ساعة. لكن اللقاءات الخاصة تمت فى إحدى شققه الأربع، وثبت فيما بعد أنها فى المعادى قرب محطة القطار.

فى المرة الرابعة فوجئت بسهير الفيومى تعترض طريقها.

«فيه موعد؟»

اللهجة محايدة، مسددة، أربكتها، موقف لم تعد له حسابا أو ردا مناسبا، بربشت جفونها، انفرجت شفتاها، المساعدات الثلاث توقفن عن أعمالهن، رحن يتطلعن إليها، واجهتهن بذعر، بخوف، كأنهن يجردنها من ثيابها، انتهت إلى ضرورة إنهاء الموقف بسرعة، ليس بالتراجع إلى الخلف، إنما بالتقدم إلى الأمام، إلى سيادته، إلى حيث يوجد.

«من فضلك»

فوجئت باختفاء الباب الذى اعتادت الولوج منه، جدار مصمت، انتابتها رعدة لم تجد إلا الصراخ وسيلة لتبديدها، هذا ما لم تنتظره أو تتوقعه قط.

سيادته أمامها

لا تعرف من أين جاء؟ كيف ظهر؟

بدأت رجفتها، كل ما يمت إليها تطلع ناحيته مستنجدا، مستغوثا، راجيا، لكنه بدا هادئا، جامد التقاسيم.

«من سمح لها بالوصول إلى هنا؟»

«سيجرى تحقيق فى ذلك..»

بمجرد إشارة يده ظهر ثلاثة أشداء من الأمن الأزرق، اقتادوها إلى المصعد، لكنها تثاقلت، اضطروا إلى سحبها. انفرط عقدها وبان ما استتر منها، حتى أن ثديها الأيمن فرفط متدليا، وجرى لعاب.

«خذوها من هنا..»

صرخت سهير الفيومى، استدار سيادته بهدوء، اختفى من حيث أتى.

لا شىء يثير الفضول والأسى أيضا مثل انفراط أنثى، وتصدع كينونتها. ما قيل كثير، وما جرى به الهمس أكثر، لكن عددا لا بأس به من العاملين والمنتسبين صدموا عندما جاءت الأخبار بوفاتها فى ظروف غامضة، عثروا على جثمانها داخل «كابينة» آلت إليها بالميراث من والدها ـ عليه رحمة الله ـ اشتراها فى الخمسينيات لتقضى أسرته الصيف،

كانت المنطقة هادئة وقتئذ، قرب جليم، لكن تردد همسا أنها ليست الأولى، هل تذكرون نفيسة الحولاء؟

كانت موظفة من حملة المؤهلات المتوسطة، دبلوم تجارة، ودراسات حرة فى الأقسام المسائية بالجامعة الأمريكية، مال بختها، وبعد تجاوزها الخامسة والأربعين بدا أن فرص الزواج تقل بل تكاد تنعدم، فى بعض الأيام كانت تبدو متألقة، جميلة، تتوقف عندها الأبصار، وفى أصباح أخرى تقسو ملامحها المكدودة حتى ليتجنبها كل ذى معرفة، ويتحاشاها من يقع بصره عليها لأول مرة لجهامتها. غير أن زملاءها أحبوها وتعاطفوا معها، بعض زميلاتها سعين لتدبير مقابلات تبدو كأنها صدفة مع أقارب ذكور لهن بهدف التوفيق، لكن. . لم يحدث ذلك قط، ولم تلح إشارة، استمرت نفيسة فى عادة لطيفة لم تنقطع عنها إلا بعد صعودها المفاجئ.

أول خميس من كل شهر تأتى بحلة ملفوفة تحوى صنفا من طعام أعدته لزملائها، مرة عجة، مرة محشى، مرة أرز بالخلطة الدمياطية، أو بسبوسة أو كنافة محشوة، لها تفانين متفردة، ونفس خاص يندر مثله، كانت تغلق باب الغرفة، وتخرج ما جاءت به تضعه فوق مكتبها، تفرد الأطباق الورقية والشوك والملاعق على مهل تضع نصيب كل منهم، تقدمه بنفسها، تأبى المساعدة، تنتقل من هنا إلى هناك، ثم تجمع الفوارغ، وتضعها فى كيس من البلاستيك، تقضى ما تبقى من نهار مبسوطة، نضرة.

لم يخطر ببال أى إنسان عرفها عن قرب أنها ستطلع إلى فوق. إنه التعبير المتداول، عندما اتصل بها عزب الميدومى خشيت ما ينتظرها،

لم تعرف الهدف بالضبط ، ربما اختاروها للعمل على الحاسب الآلى المتصل بشبكة الاتصالات الدولية ، معروف عنها تمتعها بذاكرة نادرة ، تحفظ عن ظهر قلب عناوين المواقع المؤثرة ويمكنها الوصول إلى أى منها خلال ثوان ، كما تتقن إجراء أشد العمليات الحسابية تعقيدا .

لكن عند وصولها إلى الثانى عشر وجلوسها فى غرفة مصمته ، لا يوجد بها إلا باب الدخول والخروج ، فوجئت بسيادته أمامها ، لم تعرف حتى هذه اللحظة من أين جاء ، كيف دخل؟

مع من الآن؟

مع نفيسة الحولاء .

معقـول؟

نعـم

تردد مثل هذا الحوار عدة مرات يوميا ، خاصة بعد انتقالها تماما ، فى يوم وليلة تبدلت أحوالها كأنها شخص آخر ، إنها السمات الخاصة المصاحبة للعاملين أو المترددين بانتظام .

ماذا جرى لنفيسة الحولاء؟

لا أحد يعرف بالضبط ، لأنها صامتة حتى الآن ، ماتزال هناك ، لكنها ليست فى الوضع نفسه ، ويتردد أنها قبّلت يد سهير الفيومى وطلبت منها إبقاءها حتى لو عاملة نظافة ، ترتب الحاجات وتنفض الغبار عن الستائر ، لكن سهير التى اعتادت مثل هذه اللجوءات إليها لم تبد غلظة أو حسما كما فعلت مع أخريات ، وعندما اتصل عزب الميدومى مستطلعا نهرته

وطلبت منه ألا يقترب حتى تأذن له ، إن سهير تبدو متوارية، بعيدة ، صوتها خفيض لكنها فى اللحظة المناسبة تتقدم لتحسم وتحجب وتقرب وتقصى .

ربتت كتف نفيسة وطيبت خاطرها، هدأتها، وأكدت لها أن وضعها الآن أفضل وسيتقدم بقدر عدم إثارتها المشاكل، أى قلق تثيره لن يعود عليها إلا بالأذى، إذن لتصغ، لتفهم .

البقاء هنا مستحيل، لا بوضعها الذى أمضت فيه وقتا يجب أن تتعامل معه كذكرى لطيفة، إجازة من الهموم التى تعيشها منذ سنوات، أو بتحولها إلى تخصص آخر، حتى لو وضيع، مثل عاملة نظافة أو سكرتيرة مهمشة .

ما من جهة يمكنها أن تبدل أو تغير من قرارات سيادته . . بمجرد صدورها، أو إقرارها - بعضها لا يعلن - تصبح أمرا مفروغا منه .

إذن . . لتقبل قسمتها ونصيبها فى هدوء، أما إثارة الضجيج، أو الإمعان فى الشكوى فلن تعرف بسببهما إلا الأذى، ثمة لهجة تحدثت بها سهير بثت الرعب عندها، خشيت فاستكانت، صباح اليوم التالى التحقت بفرع الحرف التقليدية القريب من الأهرام، التزمت تماما بالتعهد الذى وقعت عليه بحضور سهير وعزب، ألا تقرب أى جهاز للحاسب الآلى وأن تمتنع تماما عن تجهيز الوجبات التى اعتادت إحضارها لزملائها .

ماذا يربط بين الشقين؟

لا هى تدرى، ولا أحد شرح لها، لم يكن أمامها إلا الامتثال، غير

أنها منذ ابتعادها عن المقر وانفصالها تماما عنه، آل أمرها إلى حالتين، الخشية والحنين.

ترهب العاقبة إذا أفضت بما جرى لها فى الطابق الثانى عشر، منذ انفرادها به، همسه ونجواه ولطفه ورقته، استسلامها المدهش له، المحير، انهار فى لحظة ما ظلت عمرها كله تدفع عنه كل ما يبعث على الأذى.

من هنا يبدأ الحنين. خلال الفترة الأولى كانت تستعيد ما جرى بمتعة، حتى لتكاد تصغى إلى تردد أنفاسه، وتنتفض تحت تأثير لمساته وتتجمع لتصد بوهن جرأة أصابعه الماهرة، فى لحظة معينة رأت ما لم يقع بالفعل، توهمت وصدقت، بدءا من تلك النقطة راحت تستأنف ما انقطع، هكذا لاحظ القوم ما يطرأ عليها فجأة من تبدلات وتغيرات، ضحك مفاجئ وانقطاع عنه، ابتسامة خجولة تعقبها إيماءة، تقطيبة حاجب ثم انفراجة سرور ينبثق منها حزن مباغت يزحم المقلتين.

ماذا أعجبه فيها؟ هى التى لم يجبر رجل بخاطرها منذ سنوات، رغم ملاحتها البادية، وطيب معشرها، لكنها حظوظ!

قيل إن ما لفت انتباهه حولها الخفيف، شكل هذا إثارة خاصة عنده، لكن كيف رصده؟ كيف وهو لم يلتق بها قط؟، يؤكد البعض أنه يحتفظ باسطوانة حديثة لا يتجاوز حجمها مقاس راحة اليد، مسجل عليها صور دقيقة لنساء المؤسسة، سواء العاملات فى المقر الرئيسى، أو الفروع التابعة، وأن هذه الصور واضحة للغاية، من الأمام ومن الخلف ومن الجنب، تم التقاطها مع بدء الحملة العامة للرقم المؤسسى، جاء ذلك على أثر المنشور الرئاسى الذى وزع مع مرتبات شهر مارس، موقع من سيادته

شخصيا ، يؤكد فيه متانة البنيان ، الوصول إلى تلك النقطة يقتضى قدرا من التحديث تستطيع معه المؤسسة دخول القرن الحادى والعشرين راسخة . الألفية الثالثة على الأبواب ، صار ذلك من الشعارات التى تتردد باستمرار . أعلن سيادته عن الترقيم المؤسسى الذى يشمل الأفراد والمعدات . كل كبيرة وصغيرة ، تم تخصيص يوم معين لكل قسم أو إدارة ، يتوجه فيها الرجال والنساء إلى مقصورة الكترونية ، يدخلها الإنسان ويحدق فى عدسة توازى وجهه ، تتحرك إلى أعلى أو أسفل ، جدرانها سوداء ، ملساء ، فقط تلك العين الحمراء التى يجب التحديق فيها ، بعد التقاط الصورة الشاملة يتم تعبئة استمارة تتكون من ثمانى صفحات ، كل صفحة بها ثلاثون سطرا ، هكذا يتم منح كل إنسان الرقم المؤسسى ، بطاقة صغيرة ممغنطة مطبوع عليها رقم معين . بمجرد إدخالها فى الحواسب التابعة يظهر كل ما يتعلق بأحوال الشخص بدءا من مقاسات جسده إلى ممتلكاته إلى مزاجه النفسى . . لم يستثن من الترقيم إلا الخبيئة العظمى .

كثيرا ما ينفرد سيادته بنفسه ، يستدعى عبر الحاسب صور الإناث العاملات يتأملهن ويدقق بصره ، ومن مكمنه يبدأ سعيه ، بالطبع عبر الآخرين ، إن نظرة عابرة قررت مصير نفيسة الحولاء التى تغيبت عن العمل يوما ، بعد ثلاثة أيام ظهرت سيدة متقدمة فى العمر ، بدينة ، كانت تستفسر عنها ، وتذرف دمعا ، ليس لها غيرها ، مقطوعة تماما إلا منها ، لأول مرة تغيب عنها ، يعلم الله وحده كيف وصلت إلى مقر الفرع !

ربما كانت الاسطوانة مدخله إلى امتثال الممشوقة ، أو رقم أربعة عشر مؤسسى . هنا يجب الإشارة إلى مغزى الرقم ودلالته بالنسبة للعاملين

والمنتسبين والمحالين إلى التقاعد، فى البداية تقبلوا الأمر بعدم اهتمام، مجرد إجراء، ولكم تعرضوا لمثل ذلك، وكم من المرات طلب منهم تقدم إقرارات وبيانات وشهادات. لكن مع مرور الوقت اتضح لهم اختلاف الأمر هذه المرة، يوميا يضطر كل إنسان للتعامل مع الرقم الذى يخصه عند التوقيع بالحضور أو الانصراف، وخلال جميع المعاملات الضرورية وأيضا عند مخاطبة الآخرين كتابة أو عبر الهاتف، إذ أدخل نظام جديد بمقتضاه يرد الشخص فورا بمجرد إدارة رقمه المؤسسى يسبقه رمز عددى رقم سبعة. أصبح بعض العاملين يعرفون عند زملائهم بأرقامهم المؤسسية، شيئا فشيئا تتوارى الأسماء وتحل الأرقام، وقيل إن سيادته أكد انتشار ذلك قبل نهاية العقد الأول من القرن الجديد.

تُعرف امتثال بالمشوقة السمهرية، منذ أن جاءت إلى المؤسسة منقولا من جهة سيادية، لفتت الأنظار بحضورها المؤصل، المنطلق المتين، أكد بعض المهتمين، المتابعين أن المقر الرئيسى عَرَف قوامين لا ثالث لهما، صفية الأبنوبى وامتثال القوصى، لكن الثانية ألين وأنعم وتبدو أسهل منالا، هكذا تبدو، لوظهرت فى زمن تمكن صفية لجرى صراع وانتهى الأمر لصالح إمتثال بلا ريب، لكن. . كل منهما جاءتا فى وقت.

غير أن الأمر ليس بهذه البساطة، لا يعنى أنه نال كل من سعى إليها حدث أن فوجئت خديجة البلاصى بصوت سعادته مباشرة، يتدفق إليها عبر سماعة الهاتف المتصل بالشبكة المركزية، تعرفه من خلال التسجيلات التى تُذاع فى المناسبات والمواسم، جاءها بدون تمهيد من سهير أو عزب. لم يموّه، ولم يخف إعجابه بها، قال إنه تعرف عليها من خلال الصور. وأنها فواحة الأنوثة، يدركه عبيرها رغم الطوابق الفاصلة، إنه فى حاجه

إليهـا، أن تكون إلى جـواره، يدعـوها لكــن تكون بقربه، لن يمر شهـر إلا وتسافر معه أو بدونه إلى أحد أركان العالم، سيريها الدنيا، وكل ما ترغبه سيحققه لها.

كيف ردت عليه؟

هذا ما تختلف فيه الرواية، خاصة أنها لم تفض بتفاصيل، ولم تستجب إلى الإشارات أو التلميحات، بعد أن انتهت المكالمة الوحيدة، التى لم تتبعها أخرى تغيرت قسماتها قليلا، وبدأت تتوقع الأذى، ولكن لم يحدث شيء، سهير الفيومى نفسها ترغب فى معرفة الجملة الحاسمة، لكنها لا تجرؤ على الخوض فى هذا الموضوع، أو محاولة الإلمام به، وعلى أى حال، ماذا يعنى هذا بالنسبة لما شاهدته، وعرفته، القرب مطمح لكثيرين لكنه يقتضى الحذر، خديجة البلاصى ليست الوحيدة، أغرب منها حكاية إمتثال.

ما جرى لإمتثال القوصى

تتبع إمتثال القوصى إدارة التقييد الحرة، وتلك مستحدثة، لا يعرف أحد مسئوليتها أو حدود اختصاصاتها بالضبط، لكن العاملين بها لهم امتياز إضافى يعرف تحت بند عنوانه «بدل مراجع»، مع أنه لم يعرف عن أى منهم شراؤه لمرجع واحد. كل تعاملهم مع المكتبة، إن مثل هذه الإدارات الجديدة ذات الأسماء الغامضة، ومهامها الأشد غموضا من المستجدات التى ظهر مع سيادته فى العام الثانى لولايته، وأحيانا لا يقتصر الأمر على المتصلين بتلك الإدارات أو المتعاملين معها، بل يمتد إلى بعض كوادرها، بعضهم يجهل طبيعة ما يقوم به، ومن هؤلاء إمتثال القوصى، إن العمل بالمؤسسة أمنية بلا شك، ويحتاج إلى جهود عديدة، خاصة فى السنوات الأخيرة التى تتبدل فيها طبيعة الاختصاصات، وتتغير العلاقات، بحيث تبدو الوساطات بالمفهوم القديم - زمن المؤسس مثلا - أمرًا باعثًا على السخرية والدهشة.

إمتثال لم تبذل أى جهد، ولم يتدخل أى شخص من أجلها، وحتى هذه اللحظة تجهل البواعث الكامنة على نقلها وإلحاقها بهذه الإدارة، إنها مسئولة عن جهاز حاسب آلى حديث، ترصد من خلاله موقعا معينا على شبكة الاتصالات الدولية، تظهر عليه بعض الأرقام والبيانات الخاصة بالمؤسسة.

إنها هادئة، صوتها من طبقة ناعمة، تبث الإثارة عند حديثها عبر الهاتف، حتى إن البعض تعبره رعدة، وتستنفر حواسه إذا أصغى إليها، أما قوامها فمحى من ذاكرة الواقفين عند المدخل، الصور المتبقية من هيفائية صفاء ونصوعية هانم الراسخة.

مفرعة، مبوسقة، فى حالة عرض مستمرة بغير ترتيب منها، ما توفر عنها من معلومات يؤكد أنها تعيش حياة زوجية هادئة أكثر مما يجب، كان زواجهما تقليديا، إذ تقدم لخطبتها بصحبة والدته التى تقيم الآن بمفردها فى شارع جزيرة بدران، وتأبى عروضهما الصادقة لتنتقل وتقيم معهما، وكانت مشهورة بإعداد القهوة المحوجة بعد الغذاء الذى لم تتناوله قط قبل الخامسة عصرا، إنها قادرة على خدمة نفسها، ولا تخرج إلا لتتسوق الفاكهة والخضار، أو لزيارة سيدى أحمد أبو حريبة ناحية السيدة فاطمة النبوية قرب الدرب الأحمر.

تنقضى ساعات طويلة بينهما بدون حوار، اعتادت الإطراقة والحنين إلى المجهول، والحلم بالرحيل إلى أماكن يصعب تحديدها، لم تحبه إنما تعاطفت معه إلى درجة الإشفاق عليه، كان يعمل خمس عشرة ساعة يوميا ما بين عمله فى شركة البترول، وما بعد الظهر، الفترة التى يمضيها فى إدارة إحدى الشركات ذات الصلة بالفنادق العائمة، تكاليف الحياة فى تزايد مستمر، والبحث عن عمل إضافى مطلب قائم باستمرار، لكن للإنسان طاقة، ولا يمكنه إضافة ساعات أخرى إلى الليل والنهار، الأسعار ترتفع باضطراد، ليس من شهر إلى شهر، إنما من أسبوع إلى أسبوع، بل وفى بعض السلع من يوم إلى يوم، تمضى لشراء علبة السمن الطبيعى فتجد زيادة فى السعر تقدر بعشر جنيهات، لم يكن بذل الطاقة

من أجل تحسين وضع، أو تحقيق نقلة، بل للحفاظ على الكائن بالفعل حتى لا يحدث تراجع، أو يصل الأمر إلى لحظة تطلب فيها إحدى البنتين شيئا ترغبه، فتعجز عن التلبية، الحق إنه لم يقصر، ولا يتوانى، يلهث، يعود مرهقا، لحظاتهما الحميمة شاحبة، نادرة، كثيرا ما يعود متأخرا فيشفق عليها، لا يوقظها، ما بين الإغفاءة والصحوة تصغى إلى فتح وإغلاق باب الثلاجة. ثم يطغى نوم أقرب إلى الإغماء، ما يمكن أن تفضى به كثير، ولكنها تحجب دائما، بعض زميلاتها فى الليسيه يتصلن بها، إحداهن تظهر صورتها فى المجلات الفنية خلال حفلات العشاء فى الفنادق الكبرى حيث الشخصيات المرموقة من رجال الدولة والإعلام وأصحاب المشاريع الضخمة المتصلة مباشرة بالمؤسسة، يوجهن إليها الدعوات، لكنها تعتذر بسبب امتحانات ابنتيها، أو أعذار واهية تتعلق بيونس، ياه.. دائما يونس، يونس، أتركيه مرة واحدة، فكى عن نفسك، مجرد ظهورك مرة واحدة، مرة فقط.

لا يخفى عليها تحريض خفى، لكنها تتوارى بنعومة وحجج شتى تتعلق كلها بظروف العمل والأسرة، تعرف أن جمالها له مواطن، وأن قدرتها على البث قوية، نافذة، كان ممكنا أن يكون حظها أفضل، ولكنها القسمة والنصيب.

رغم مظهرها المتفرنج حتى ليحسبها البعض إيطالية الأصل أو يونانية الفرع، قوامها الفريد، إلا أن ما تلقته عن أمها مستقر داخلها، متمكن، أحيانا تضبط نفسها، مرة إذ تتحدث بنفس الطريقة، تتطلع من عين الزوايا وتعبر بالألفاظ عينها، لكن هذا لا يعنى أنها نسخة مكررة، ظروفها تختلف، خاصة السنوات التى أمضتها فى المدرسة الأجنبية

وإتقانها الفرنسية بطلاقة، لها تاريخها الخاص، لم تفض به لأحد، أحيانا تكتب جملا بالفرنسية غير مكتملة، مجرد إشارات رغم يقينها أن يونس لا يعرف حرفا منها، ولا يمد يده إلى أغراضها أو مقتنياتها، الحقيقة أن تصرفه بالنسبة لهذه الأمور مثال، لكنها لا تتباهى به، ولا تحكى، ما عندها كثير، تنوء به أحيانا، لكنها تغمض عينيها، فتلوذ بلحظة منقضية تتوهم أن التحقق جرى فيها والاكتمال، اعتادت تلك المنطقة التى لا مكان لها، تتجه إليها مغمضة العينين، بلا دليل، أو إشفاق على فرص مدلية، دائما لديها مزيد.

عند هذا الحد التحقت بالمؤسسة، ومنذ عبورها المدخل القديم الذى حوفظ عليه رغم عمليات التجديد التى تمت بهدف إعادة صياغة المقر الرئيسى عن طريق تحديثه من الداخل والإبقاء عليه من الخارج، هذا متبع فى العواصم الكبرى والبلاد ذات الإمكانيات المتقدمة فى البناء، وهذا ما بدأت تتعامل معه المؤسسة فى عهد سيادته، إذ جرى توقيع عقود مع شركات عملاقة، بعضها متخصص فى بناء الأبراج السامقة، ومنها ذو السمعة فى حفر الأنفاق على مسافات عميقة، والجسور الممتدة، المشككون والمرتابون يقولون إن المشروعات الكبرى التى دخلت فيها المؤسسة مترتبة على ظهور هذه الشركات والتعاقد معها، حتى أكد بعضهم أن النفق المقترح إنشاؤه تحت النهر للمشاه إنما ظهرت خطته بعد اكتمال وصول آلة ضخمة للحفر، أحدث ما توصل إليه العلم، لكن لا يعرف أحد من أمر بشرائها، أو استيرادها، أى إدارة بالضبط فى المؤسسة؟ أكد نفر قليل أن ذلك تم بمبادرة من سيادته، وأنه لم يستشر المجلس الرئاسى فى عديد من القرارات الكبرى، إنه وصل إلى نقطة

يتصرف فيها على هواه، لا يراجعه أحد، لا يناقشه مخلوق، ما يؤازره تلك الأرباح المتدفقة، والرواج البين، لا يمر شهر إلا ويصرف منحة للعاملين، فى المناسبات الخاصة بالمؤسسة، أو عند توقيع عقد جديد، أو افتتاح مشروع.

لم تحط علمًا عند التحاقها بأى تفاصيل، لكن عند اجتيازها المدخل المهيب متمهلة، متقدمة كبيرق بقوامها الصاعد، أدركت أنها ستكون هدفًا، منذ عبورها إلى المصعد، متجهة إلى إدارة شئون العاملين، أيقنت أنها مرصودة، ثمة من يرقب حركاتها، بصاتها وأنفاسها. للنظرات المسددة إلى فراهتها وسموقها ملمس، عند خطوها المتئد فى الممرات الطويلة ذات الإضاءة غير المباشرة، تلتفت مذعورة، ثمة أنفاس يتردد زفيرها على مفرق ردفيها المكتملين، المؤطرين، لكن.. لا ترى أحدًا.

ليست مؤسسة، إنها مصيدة محكمة.

هكذا أيقنت، خلال أيام قليلة ألمت بما تخفيه التطلعات وعلامات التأنى عند التعامل معها، يتساءل كل منهم، مرة بالنظر، ومرة بالصمت.

متى؟

متى يحين أوانها، متى تقطع طريقها إلى الثانى عشر؟، تعرف الآن مغزى الرقم، تستعيد المصلحة العتيقة التى تحتل قصرًا قديمًا شيدته أميرة من العائلة المالكة نهاية القرن الماضى، عاشت فيه بمفردها بعد مصرع زوجها بطلقة نافذة أثناء تفحصه بندقية صيد حديثة، كل العاملين يعرفون بعضهم، ـ يحترم كل منهم الآخر، حتى مويجات الإعجاب التى بثها

الذكور على اختلاف أعمارهم لم تخدش رقائقها، ارتضتها وهدهدتها أحيانًا، أشبعت عندها حاجة بغير ضرر، إنها تحن الآن إلى نظرات عاطف أفندى أقدم العاملين صاحب ملف الخدمة الذى يضرب به المثل فى النظافة وخلوه من المخالفات، بمجرد أن تهل عليه، تتبدل أحواله، يفيض بحنان مبثوث، يبادرها بالجملة التى تفتقدها الآن.

«أهلاً . . سمو الأميرة . .».

هنا كل نظرة جالبة للمشقة، مثيرة للفزعة، ثمة شىء سيقع، لكن متى؟، لا تدرى . . هذا أثقلها وضعضعها، لكن ما خفف عنها تلك الزيادة فى المرتب التى أمنت لها وللأسرة بعضًا من هدوء، وقدرة على التقاط أنفاس، ورضاها الداخلى بمؤازرة زوجها الذى يكد لتوفير الأوليات. ارتفاع الأجور وتميزها من الأمور الذائعة، لكن ليس هذا مصدر الإغراء، إنها المنح وأرباح نهاية العام، وما يصرف من مكافآت خاصة، دخلها الشهرى تضاعف تقريبًا، يقوى هذا أملها فى توفير استقرار معقول بحده الأدنى، إنها أم لابنتين، أكبرهما تبلغ الحادية عشرة الآن، الأخرى تجاوزت الثامنة، منذ الآن إذ تتطلع إليهما يخفق قلبها رعبًا وحذراً، لا مدخر لديهما، ستمضى السنوات كما ولت الأخريات بسرعة، ستفاجأ بقادم ليخطب إحداهن، من أين وإلى أين؟، إنها تدعو جاثية، لا تطلب إلا الستر. الستر فى الدنيا والآخرة، تفاجأ بنطقها نفس الكلمات وعين لهجة أمها عندما كانت تدعو لها ولأشقائها لكن الظروف فى الماضى كانت أوضح وأيسر. المجهول كثيف الآن، لم يبدد خشيتها التحاقها بالمؤسسة، هى نفسها هدف الآن!

مدير الإدارة مشهور بجمود ملامحه، لا يمكن الإطلاع على مكنونه،

متزوج من ممثلة مشهورة بأدوارها الرصينة فى المسلسلات الاجتماعية والهادفة مثال للطاعة التامة، لا يناقش ما يصدر إليه، يقدم على تنفيذه بهدوء، أيا كان المضمون، لا يوجد اتصال مباشر بالطابق الثانى عشر إلا فيما ندر.

عندما نزل إليه عزب الميدومى أيقن بخطورة الأمر، لكنه لم يظهر ولم يبح بكلمة، ما فهمه أن تعيينه مديراً عامًا للقطاع مرهون بما سيحققه من نجاح فى هذه المهمة. لديه أسبابه ليبذل أقصى ما يجب، بدون إثارة ريبتها أو ريبته هو، لماذا يفترض سوء النية؟، عليه أن يمضى متعاملاً مع الظاهر حتى لا يفسد أمره عند الشوط الأخير، لم يتبق له إلا سنة وأربعة شهور، بعدها يبلغ السن القانونية للتقاعد، ما لم يحصل على هذه الدرجة. وذلك الموقع خلال تلك المدة سيتقاضى معاشًا متواضعًا، الفرق كبير، يستحق النزول بثقله كله، استدعاها إلى مكتبه عبر الهاتف، هذا طبيعى ويحدث كثيراً، بالنسبة لها لم يكن فى حد ذاته مصدراً للخطر أو الازعاج، إنه يخشى زوجته، يخافها ويتجنب كافة ما يثير شكوكها من قريب أو بعيد، إن شخصيتها قوية، تمامًا كما تبدو فى التمثيليات، لا يعرف أحد أى تفاصيل عنهما إلا اهتمامه بتوفير نبات الشيح المجفف من عطار قديم فى حارة الدوم، لا تذكر من أطلعها على ذلك، من الطبيعى أن تهتم المرأة بمحاولة الاطلاع على ما يخص رئيسها، تعجبت من حرصه على الشيح، بشكل ما علمت من زميلتها أنه يغليه بنفسه ويذيب فيه ملعقة من عسل النحل قبل شروعه فى أى عمل، يقف منتظراً انتهاؤها من حسوها البطىء، تركيبة لها الفضل فى نقاء صوتها، خاصة عند صعودها إلى خشبة المسرح ليلاً، عندما دخلت إمتثال إلى

مكتبه أذّ الفراغ بكظيم الرغبة المقموعة، لا تدرى ماذا سيصدر عنه إذا سنحت الفرصة وتهيأت، تطلعت إليه بحشمتها وقناعها الذى اعتادت مطالعة الآخرين من خلاله منذ خروجها إلى العمل، ازداد سمكه لحظة ولوجها المقر الرئيسى.

إنه يبحث عن مدخل، عن مطلع مناسب، عن مبتدأ..

قال بهدوئه محدقًا إنه تلقى مكالمة هاتفية من سيادته، يبدى إعجابه بأدائها، إنه يتابع بدقة وعناية العاملين المرموقين، يتيح لهم شتى الفرص من سفر ومنح تعليمية وترقى، يعنى ممكن أن تصل إلى موقع قيادى فى الطابق الثانى عشر خلال فترة وجيزة، هذا مبدأ قامت عليه المؤسسة ولم تحد عنه.

قصدته مباشرة بعينيها، ثمة شىء يستنفر داخلها، هذا ما لن تسمح به أبدًا، أن يمتطيها ذو سلطة، أن يسكب ماءه داخلها بنفوذه، هذا ما ظلت تقاومه وتصد الآخرين إذا شرعوا، أحدهم فى المصلحة القديمة قال لها يومًا إن لديها طبقة صوت تقيم حاجزًا من المستحيل عبوره بشكل عام تعد محافظة، كانت شديدة التعلق بأمها ـ رحمها الله ـ منها تعلمت التحوط على حرمة جسدها فلا ترتدى من الملابس ما يبرز الخطوط الفارقة، رغم وعيها ببسوقها وأملودية فرعها، ماذا تفعل؟

إن أحوالها مع زوجها ليست على ما يرام، يمد إليها وصلاً منهكًا، كسولاً متثائبًا، إذا اشتاقت تقبل عليه، تداعبه، أحيانًا تتقد جذوته، منذ أسبوعين أتمت استعدادها للخروج بعد الظهر لحضور قراءة فاتحة ابنة شقيقتها، لحظة استدارتها بحثًا عن فردة الجورب لمحته يغلق الباب، لم

يطالعـهـا هكذا منذ زمن طويل، ياه . . أوشكت على نسيـان نظراته ومداعباته وسعيه الوئيد عند اكتمال رغبته .

ماذا جرى؟

احتضنها من الخلف، غمغمت لصلابته .

يا رجل . . أنا لبست هدومى . .

زام، لا حروف، لا ألفاظ، هذا شروع لا يمكن رده، فرحت، حتى أن رعشاتها امتزجت بما يشبه الزغاريد، اتحدا، أيقنت أنه مازال قادراً، ليس على الأداء الجسدى، إنما على إستثارة كوامنها، طفرة، دفقة، تنتظر تبلجها، ترغب ضمته، دفسه لرأسه وتقبيله عنقها، يعرف كوامنها، لكنه الجرى المستمر، وبذل المجهود .

منذ متى لم يسافرا معًا فى إجازة؟

ثلاثة أعوام تقريبًا، أيام العطلات يمضيها فى السبات، ينام وكأنه يختزن القوى لساعات مقبلة فيها مشقة لا تنفد، ترغب فى رؤيته، على الأقل سماع صوته، أن تتجرد من ملابسها أمام رجل غريب عنها، رجل فى ذروة السلطة، سيتعامل معها بما يتطابق مع رغباته، لا تدرى ماذا يمكن أن يحدث؟

أحيانًا تستيقظ بعد العصر، بالتحديد بعد إغفاءة خاطفة، دائمًا تصحو على حنين، ذلك التطلع المصاحب لحضور قوى غامض لشخص ما، بالتأكيد ليس زوجها، لا تبوح إلى أقرب الناس إليها، إلى أمها، مثل هذا لن يكون مقبولا منها، تقطعت صلاتها لأسباب عديدة، أهمها انشغالها بالبنتين ومتابعة دروسهما، اللغتين الإنجليزية والفرنسية، إضافة إلى شح

الوقت نقص الإمكانيات، استقبال ضيوف أو زيارة معارف آخرين يعنى تكاليف، مهما تضاءلت لم تعد قليلة، البنتان فى حاجة إلى كل قرش يكفيها المشوار اليومى إلى المؤسسة والعودة، صحيح أن العربات الخاصة تيسر الأمر، لكن عملها الجديد فى حاجة إلى مظهر مغاير وهذا له شأن أيضًا!

يتحوصل داخلها حنين متعدد الشعب، إلى السفر، إلى ممارسة رياضة ما، إلى الجرى فى شارع آمن، إلى انعدام القلق على أسرتها، أحيانًا ترعبها فكرة رحيلها المفاجئ هى وزوجها نتيجة حادث، أو كارثة ما تفنى وجودهما وتبقى على البنتين، لكن . . أى بقاء فى هذه الحياة القاسية، كيف تدبران أحوالهما وما من قريب أو حبيب، أمها الآن فى حاجة إلى الرعاية لا تدرى ما ينتظرهم؟

تستطيع أن تدرك المطلوب منها الآن، أخيرًا حلت اللحظة التى توقعتها، حاسمة، رغم عدم تورطها فى القيل والقال، أو استجابتها لما يبث سرًا من نميمة، لكنها ملمة بما يصدر عنه، وبعض ما جرى للأخريات. إنها تفهم تمامًا ما يريد المدير توصيله إليها، تشفق عليه لسبب ما، فى لحظة معينة تواجها، هو بتناقضاته وآماله فى تحقق سعيه، وهى برفضها الحاسم، إنها الخطوط التى لا يمكن اجتيازها، وإلا صار خرابًا عاشت تتجنبه بقدر ما يمكنها بذله.

هل أخطأت عندما انتقلت إلى المؤسسة؟

هل سعت بقدميها إلى تلك اللحظات الوعرة؟

لكن . . من يجبرها، من بوسعه؟

تراجعت قليلاً إلى الخلف، ربما لتكون ملامحها أوضح، هكذا قدرت، قالت إنها تعتذر، ليس لأن الموعد لا يلائمها، لكنها بصراحة لا تفهم مبرر اللقاء على انفراد، وفى مكتبه الخاص وسط المدينة.

مكتبه الخاص، إنه التعبير المهذب عن شقته، مما سمعته أنه يمتلك عدة شقق، بعضها غير مزود بأى وسائل اتصال، لكنه يعرف كيف يطلبهم فى التوقيت الذى يحدده هو.

حاد الرجل بعينيه متلافيًا المواجهة، خرجت مفرودة القامة، فوجئت عند دخولها الغرفة بزميلاتها الثلاث يتطلعن، بعد لحظات رن جرس الهاتف، ورغم أنه مشترك بينهن لكن لم تمد إحداهن يدًا، استمر صمتهن، كأنهن يعرفن ما جرى وما سيجرى.

أنا عزب . .

من؟

عزب الميدومى سكرتير سيادته.

نعم . .

اليوم فى السادسة والربع عندك موعد مهم فى الطابق الثانى عشر.

لا . .

يا أستاذة، يا مدام، عندما نبلغ نحن، لا يقول أحد لا . .

أنا أقول لا . . لن أحضر . .

آه . . على كيفك !

تغلق الخط، تسرى عبرها رعدة، يحط عليها ضيق متعدد المصادر، مختلف المنابع، ألا يكفى وأد أيامها، تحملت مضايقات شتى لكن فى حدود، لكن أن يتصور إنسان ما. أيا كان إنه يستطيع أن يؤشر فتلبى، ترضخ. . لا، إنها تغلى.

يكفى حمولها من مخلفات الأيام التى تنقضى بسرعة، تفيق أحيانًا فلا تعرف إن كان الوقت صباحًا أو عصرًا، أو تتنفس بعمق تحت تأثير حلم مبهم، يجسد النقيض لما يحيط بها وتعيشه، القلق من الآتى يؤرقها وما من شيء يبدو مضمونًا أو فى حيز التحقق، تعذبها الاحتمالات المتوالية، تعرف أن صعابًا شتى تنتظرها الآن فى المؤسسة، وأن الآتى ليس مثل المنقضى، لكنها تصل إلى حال تؤثر معه أى تصرف إلا . . المساس بها رغم إرادتها. .

يرن الجرس مرة أخرى، تتوالى الضغوط، زميلاتها يتحاشين التطلع إليها، كلهن بلا استثناء يعرفن ما يمر بها، آخرون فى مواقع قريبة أو بعيدة نسبيًا، لكن الكل يحرص على إبداء الصمت والتجاهل مع أنهم ملمين بأدق التفاصيل، ما يجرى ليس الأول ولن يكون الأخير، تحيد العيون عندئذ عن التلاقى، وإذا تماست النظرات تولى متفرقة بسرعة، هذا حال مؤسسى معروف، مألوف، عندما يتألف القوم على التفاهم بالصمت، أو تبادل المعلومات بدون نطق، لا ينطق أحد، ولا يعرب عما فى داخله أحد، كل حركة مرصودة الآن، إن بعضهن يرقبن ملامحها بخوف ودهشة، المرأة تعرف المرأة، تلك لحظات استثنائية، ربما تروى بعد ذلك.

ترفع السماعة، دائمًا تخشى أى نبأ مصدره البيت خوفًا على البنتين، يعنى رنين الجهاز فوق مكتبها أن المكالمة خاصة بها.

صوت أنثى، هادئ، كأنه قادم من خارج البلاد . .

«اسمعى يا حبيبتى . . أنا أتكلم لمصلحتك . . » .

تغلق الهاتف بحدة، يتكرر الرنين، تضطر إلى . .

«شوفى، لا تحاولى قفل الخط، رسالتى ستصل إليك شئت أم لا . . صونى نفسك، وأحفظى أعصابك، قومى الآن إلى بيتك، الانفعال لا يفيد، المؤسسة لها أصول، والأصول لابد أن تراعى . . » .

حتى الآن لا تعرف، لا تفهم مضمون ما أصغت إليه، أهى مؤازرة؟ أم تحذير؟، لكنها تعى لملمتها أوراقها وانصرافها، خروجها ممشوقة القد، رفرافة، صارية المسعى .

لم تتغيب اليوم التالى، بدت بحركتها أكثر حرصًا على الظهور، وبالنسبة للآخرين، لم يكن وقوع العقاب محل جدل، بل كان التساؤل حول شكله وحجمه والأضرار المترتبة عليه .

غير أن شيئًا لم يحدث، حتى سرى همس يقول بوقفتها الصلبة، وأنها لقنته درسًا، إنها بذلك تعطى للأخريات ـ وللآخرين أيضًا ـ القدوة، ثم أكد أحدهم أنها أشارت بأصبعها محذرة إياه أن يتقدم ناحيتها خطوة واحدة، توقف على الفور، إنه جبان عند المواجهة، لا يقدر على مقابلة النظر بعينيه، لكنه إذا خلا بنفسه يتخذ من الإجراءات أعنفها ويوقع من القرارات أقساها، طالما أنه على مسافة لا يخشى ولا يتراجع، ينفث ولا يتوقف، لكنها أوقفته عند حده .

عندما نما إليها ما يتردد خشيت واحترست، ليس لأن شيئًا من هذا لم يقع، إنما خوفًا من بلوغ التفاصيل إليه فتطيش قراراته وتضل، لم يغب

عنها الحماس الذى يتطلع به القوم إليها، صحيح أنهم لا يعبرون عما يدور داخلهم بوضوح خشية الرصد والإبلاغ، لكن الرسائل المبثوثة لا تخفى عليها، إن دهشة تعم الكافة، كيف تفلت منه أنثى؟ كيف يرفض؟

أحيانًا تعرف المؤسسة تلك الحالة. هذا ما يدركه القدامى، فعند ما تميل الأحوال ويخشى معظمهم العواقب، ويكتمون، عندئذ يترقبون إشارة، علامة من أى جهة، يتوهمون وجودها، يضيفون المزيد، يمتزج ما حدث بما لم يقع، يستغرقون، يستبدلون أحوالا بأحوال، ربما يكون ذلك إرهاصة بأمر، أو حلمًا بديلاً، أو أملاً توارى، هكذا وجدت إمتثال نفسها محوراً لرؤية، ومركزاً لبؤرة، أرعبها هذا أكثر من خشيتها، توقعت الأذى، لكن الأيام المتوالية لم تسفر عن أمر محدد، لماذا؟

لا يمكن التحديد القاطع، لكن المؤكد أن الانشغال عنها بسبب ظهور الجلاديوس، إذ إنها دخلت عبر الباب الرئيسى فى اليوم السابق على استدعاء مدير الإدارة لها، البعض - وهم قلة - يقولون إن سيادته لم يشأ اتخاذ إجراء مباشر ضدها، والدليل ما حدث بعد ذلك بمدة، وأنه لا يغفل أبدًا عمن يعتبرهم قصده، أو ارتكبوا فى حقه خطأ ما، إن شحوبًا لاح بعينيها وعبر نظراتها، وخشى عليها موظفو المدخل الرئيسى أن يحدث لها أمر ما شبيه بما جرى لشرف الدندراوى، الحمامة كما يناديه صحبه فى جلسات تدخين الحشيش التى يعرف مقارها من شلالات أسوان إلى عشش رأس البر، مروراً بغرز بنى سويف، عشش الأطراف قبل الوصول إلى المحلة الكبرى، قعدات العصر تحت صفصافات أجا، تهليلة عم خليل فى مقهى أبو رواش بالسويس، كان عجوزاً، اختلف القوم فى تقدير عمره. مقطوع من شجرة، لا أصل هنا أو هناك،

لا يعرف أحد اسمه الثانى، لا يهدأ ليلاً أو نهاراً، فريدة، من هذا إلى ذاك، يلبى ويخدم، يسأل ويستفسر، يواسى ويهدئ، يضحك ويشارك، لم يره أحد خارج المقهى، ولم يعرفه أحد متمدداً أو نائمًا، الشائع أنه بعد انصراف الزبائن يوارب أبواب المقهى وينام ساعة أو ساعتين لاغير، يتهلل ويقبل عند ظهور عم شرف.

«أهلاً حمامة».

لا يفارقه طوال مدة مكثه فى السويس، زمن الحرب لم يفترقا، كان عم شرف يتردد على المدينة مرتين على الأقل أسبوعيًا، ينقل أعمدة الخرسانة الجاهزة إلى مواقع تركيبها، نجا بأعجوبة من غارات الطيران الإسرائيلى، فى إحدى المرات دار الطيار وهاجم العربة بالرشاش الغليظ، أثناء طيرانه على ارتفاع منخفض لمح ملامح الطيار، اشتبكت نظراتهما، لحيظة عابرة، لكنها علقت بذهن عم شرف، وكثيرا ما طلب محبوه وصحبه الإصغاء وسألوه التفاصيل.

أين عم خليل الآن؟ أين؟

أين الطلة على هاويس إسنا، وبلوغ أسيوط ليلاً وعبور شارع الخزان، عبور مدن الصعيد، أبراج الحمام، النخيل الكثيف ورائحة لها قوام، مزيج من عصور شتى وأزمنة سحيقة البعد، نائية، صمت الخرابة المدفونة ودعوتهم له ليجوس فى المعبد المهجور ليلاً، لم يعشق أنثى كما أحب قوام تلك الماثلة فوق الجدران، بروزها خفيف، لمستها لزوجها الملفوف بالكفن الأبيض، قال له مرافقه.

«أنت فى حضرة آلهة يا عم شرف . .».

تطلع بإعجاب إلى إيزيس الصابرة .

«طبعًا الآلهة جميلة ، هى الجمال عينه . . » .

استعاد تكوينها وهيمنتها أثناء عزلته بالغنايم الجبلية التى يحصل من صحبه هناك على أنقى أفيون .

عم شرف الجميل لن تنساه المؤسسة ولن تنسى أيضًا ما جرى له ، ذلك أنه امتثل ونفذ ما أمر به ، اعتزل زملاءه ، ولزم المدخل ، المقعد الرخامى المخصص له بالقرب من المصعد المفرد التاريخى .

عمره كله ينفذ الأوامر كما تلقى إليه بالضبط ، لم يخطئ ولا يقدر أحد على رصد خلل ولو بسيط طوال خدمته التى تقارب الآن النصف قرن ، لكن كافة ما تلقاه من قبل فى حدود المعقول ، تعال هنا ، اذهب هناك ، سافر ، ارجع . . كله ماشى ، لكن ما يجرى الآن يستعصى على الإدراك ، يتصرف فيه كأنه قطعة أثاث قديمة مهملة يجب أن توضع فى مكان بعيد ، لم يعرف الجلوس عند المداخل الفسيحة ، المبلطة بالرخام ، الأعمدة الحاملة ، والمرايا العاكسة ، الملامح المتكلفة والحراسات الظاهرة والخفية ، امتثل كما اعتاد طوال عمره ، لم يقل لا قط ، إلا إذا رصد ما يمس كرامته ، والحق أنه لم يتعرض لمثل ذلك ، الكبير قبل الصغير لا يناديه إلا : يا عم شرف .

اجلس هنا .

جلس .

لا تتحرك .

لم يتحرك .

لا تكلم أحداً .

لم يتحدث إلى أى شخص ، حتى لو أراد فهذا مستحيل ، كل من يظهر هنا عابر ، تماماً كمداخل المستشفيات والفنادق ، بعد أن استنفد قدرته على الملاحظة ، واستعادة ما جرى له هنا أو هناك سكن ، واتخذ وضعاً حاداً ، مستقيم الأطراف والظهر لا يلامس الجدار ، متطلع إلى الأمام ، بعض الزائرين توقفوا أمامه ظنًا منهم أنه تمثال لشخصية أدت دوراً مهماً فى تاريخ المؤسسة ، بعضهم يعجب إذ يكتشف الكائن الحى الذى يتخذ هذا الوضع الغريب . رغم أن عم شرف كان فى مكان ظاهر ، واضح إلا أنه أصبح جزءاً من الموجودات فلم يعد يلفت انتباه العاملين أو الساعين ، بل ان المسئولين عن المدخل الأمامى نسوا متابعته ، هل ينصرف فى المواعيد المحددة؟ هل يبقى ماثلاً كما تقضى تعليمات سيادته ، بل إن ما أصابه لم يدر أحد إذا ما كان قد لحقه فى اليوم نفسه ، أم إنه ظل هكذا لعدة أيام ولم يلحظ أحداً ، لولا الجلاديوس لما انكشف الحال الغريب ، الظاهر لكل فرد ، الغائب عن الأنظار والمتفحصين .

نقص المناعة

لم يعد النمرسى فى حاجة إلى بذل الجهد للتقصى أوتلمس المداخل إلى هذه أو ذلك، لديه من الخبرة وطول التجربة ما يجعله يدرك ويفهم ويجد المدخل السليم، لذلك عندما وقف بشكل ما على رغبة سيادته فى إمتثال تنازعه عاملان متناقضان، فمن ناحية لا يرغب فى مواصلة دوره القديم وإن عز عليه تبدد خبرته وعدم انتقالها إلى من يرثها ويعمل بها، يعرف أن بعضهم ينظرون إليه باحتقار، لكنهم لو أطلعوا على تفاصيل ما قام به لصنعوا له نصبا، ونحتوا له تمثالا يوضع فى مدخل المؤسسة، العديد من الإنجازات القائمة من نتاج تفكيره وقدرته على التوفيق بين من يرغب ومن تريد، لكن لا يعنيه أقوالهم، أو همسهم الذى يصل إليه، أو غمزهم وراء ظهره، منذ سنوات بعيدة لا تؤثر فيه مثل هذه السفاسف ممن يجهلون، يكفيه تقدير سيادته وإدراكه لإمكانياته غير المعهودة، لكن ثمة ما يدفعه إلى الكمون خلال الحقبة الأخيرة، يمكن التحديد، منذ أربع أو خمس سنوات.

ما السبب؟

لا يمكنه التحديد أو القطع بسبب معين، لكنه يرجح.. قرب إحالته إلى التقاعد، بعض من بلغوا وضعه يسعون لمد خدمتهم سنة يمكن

أن تتجدد، لكن لا دافع عنده، لم يقم بأى مسعى، غير أن أمراً يقضه، يقلقه.

ابنه سينهى دراسته نهاية العام، البطالة فاشية خاصة فى خريجى الحقوق، زمن المؤسس كان الالتزام قائما بتعيين نسبة من سائر التخصصات لكن بطل ذلك، كف، أصبح الأمر يعتمد على القوة، مكنة السلطة، الموقع، الثروة، النفوذ، أو. . ، إنه يأسو، فلا قدراته ولا عطاه المؤسسى لهما اعتبار، ما يطمئنه قليلا أن سيادته يعرف قيمته بشكل ما، لكن لو حدث تغير مفاجئ وتولى من يجهله، من يتأثر بنظرة الجهلاء، غير المطلعين على الكوامن، سيلاقى وضعا حرجا، بل إنه يشعر بمسافة تتزايد الآن، المتطلعون بلا حصر، ليس من الداخل فقط، إنما من الخارج أيضا، عليه القيام بأداء معين بين الحين والآخر ليمهد إلى تلك اللحظة التى يطلب فيها إلحاق ابنه، يشفع له عرقه الذى تتشبع به جدران وأركان هذا البناء.

إنها إمتثال

ما دامت مستعصية على سيادته فليقدم رغم أنه منذ فترة لم يعد لديه الدافع لمثل هذه المهام، ما عنده أشبه بوهن الرغبة المصاحب لدبيب الشيخوخة، لكنها فرصة للقربى حتى يستند إلى شىء ما عندما يعرض تعيين ابنه.

ما يجرى يعلمه بوسائل شتى، لم يخب ظنه، بعد فشل رئيسها المباشر توقع تدخل عزب الميدومى، هذا ما جرى بالفعل، انتظر وبالفعل جرى الأمر كما خمن، اللحظة المناسبة تالية لانحدار الميدومى إثر المكالمة

الهاتفية، يبدأ انطلاقا من يقينه القديم، المبدئى: لكل امرأة مدخل، المهم أن يعرفه الساعى.

بعد استقصاء دقيق غير مباشر شمل عددا من معارفها وجيرانها وزملاء زوجها وإحدى العاملات بمتجر ملابس الأطفال، ذلك المشروع الذى باعت من أجله ما ورثته عن أمها من مصاغ ذهبى دقيق وأسهمت به حتى يكتمل الافتتاح، اتخذ زوجها مقرا فى إحدى الضواحى القريبة، وبذل مجهودا مضنيا بين وظيفته ومتابعة وإدارة المحل، لكن السوق تغير، إضافة إلى قلة خبرته به، بدلا من أن يزيد دخلهما، عانيا الخسائر التى لا قبل لهما بها، اضطرا إلى بيعه والكف عن المشروع، ليس بسبب وهن العزيمة، إنما لنقص الإمكانية.

تلقى سيادته الاقتراح بمنح الجائزة الشهرية لأفضل العاملين من النمرسى، أصدر قرارا على الفور بقواعدها وشروطها، وبالطبع لم يعلن اقتراح النمرسى بمنحها أول مرة للسيدة إمتثال لتفانيها وتميزها وعطائها البادى، ما بين الاقتراح وإعلان الجائزة يوم واحد فقط مما يعنى إدراك سيادته للهدف والمغزى. أيضا إعجابه بالوسيلة، إن النمرسى ليس فى حاجة إلى التصريح بما يهدف إليه، طبيعة مهامه تقتضى التلميح، بل أحيانا ينطق عكس ما يقصد إليه، الوضوح عنده يرتبط بإحداث الصدمة أو المباغتة القاطعة وليس التوصيل.

لم يكن بوسع إمتثال إلا الصعود فى الوقت المحدد إلى الطابق الرئاسى، استقبلتها عند المدخل الإلكترونى سهير الفيومى، سلمتها البطاقة الممغنطة التى بدونها لا يمكن اجتياز المراحل المؤدية.

لم يكن سيادته بمفرده، إنما بدا بأركان الطابق الثانى عشر، وكلهم غير معروفين لها، حتى عزب الميدومى لم تستطع التعرف إليه إلا بعد عودتها إلى مكتبها واستعادتها نبرات الصوت الخاصة بمن قدموا إليها التهنئة، تذكرت صوته عبر الهاتف.

رغم أنها لم تنظر طويلا إلى سيادته، لكنها أدركت أن الصورة الوحيدة المنشورة له، والمعلقة فى المدخل، وفى قاعات الاجتماعات كانت ملتقطة فى وقت مبكر، مشيب شعره لا يبدو فيها، كان أكثر نحولاً على الطبيعة، متجها بنظراته إلى أسفل، ليس إليها مباشرة، أقرب إلى الخجل فى وقفته وبقى عندها انطباع ما بانكساره وحزنه البادى، غير أن ما رسخ نفورها ملمس يده عند المصافحة وتسليم علبة القطيفة المحتوية على الدرع المؤسسى، والمظروف الخاص بالشيك، مبلغ ضخم بالنسبة لها فى ذلك الوقت، لكن يده المبتلة بعرق خفى، وتلك الضغطة، حالتا دون استمتاعها بالجائزة أو الرد من قلبها على التهانى، بل إنها تستنفر عند سماعها لتوقعها تلميحا أو درجة من الصوت تشى بغير المعبر عنه، لم يخب ظنها، بالفعل الجائزة وسيلة إليها، فى اليوم التالى مباشرة اتصل بها صوت لا تعرف صاحبه، قال إنه من المكتب الخاص، مكلف بإبلاغها دعوة سيادته إلى عشاء خاص جدا، لن يحضره إلا عدد محدود من القيادات تكريما لأول من يحصل على الجائزة المنشأة حديثا.

ربما فوجئ النمرسى بسيادته يتصل به مباشرة، بدون تمهيد، بدون مقدمات وجد نفسه يصغى إليه، بدا هادئ النبرات، ألفاظه واضحة قليلة كعادته، تساءل عن صحة ومدى دقة التقارير التى رشحت الزميلة إمتثال؟

بعد أن وضع السماعة، بقى شاخصا، جامدا، غير قادر على مفارقة مقعده، متخيلا طبيعة المكالمة لو أن هذه اللعينة ألانت دماغها وقبلت الدعوة.

رغم أنه لم ينطق بكلمة توبيخ أو حتى لوم، لكنه اعتبر حديثه إليه من أقسى ما تلقاه فى حياته، جز على أسنانه، وضغط يديه، أغمض عينيه مقسما أن يصل بها إلى أيام لا تكف فيها عن الحديث إلى نفسها، ما تمناه أن يصل إلى نهاية خدمته ـ التى لم تعد بعيدة ـ فى هدوء، أن يخرج مثل أولئك الذين بذلوا أعمارهم من أجل رسوخ البنيان، أن تكتمل أيامه بتعيين ابنه، يضمن له موقعا ولو ضئيلا، يعرف استحالة ذلك خارج الإطار الذى أمضى عمره فى خدمته.

ما شغله، ما كدره، ما انتهى إليه عم شرف، شرف الجميل، قرين الحمام والبهجة والجدعنة، عند دخول الجلاديوس ثرية القوام هفهافة الامتشاق توقفت أمامه، أومأت لكنه ظل محملقا إليها مرفوع الذراعين فى وضع ثابت كأنه يقود عربة غير مرئية، لكنه متخشب، متيبس تماما، غير أن ما بث الخوف فى أوصالها حركة عينيه، إنه حى، يتنفس، لكنه لا يتحرك بالمرة.

صرخة مكتومة دفعت بموظفى المكتب الأمامى وحراس الأمن الخاص، والمسئول عن المصعد الرئاسى إلى الإحاطة بها، والحملقة فى اتجاه نظراتها، «هاتوا الإسعاف . . »

حتى فى زعيقها وفزعها بدت مثيرة، فواحة، تساءلت باستنكار، كيف لم يلحظ أحد وضعه الغريب من قبل، كم مضى عليه؟، لم يجب

أى منهم، فى دقائق وصل الطبيب المناوب، وعندما تفحص عم شرف، قال مخاطبا الجلاديوس، متطلعا إليها بحذر، شأنه عند التوجه بالحديث إلى كل من تنتمى إلى الطابق الثانى عشر. إنها حالة نادرة، إذ من المرجح أن الكالسيوم نفد تماما من جسده، لحسن الحظ أنه اكتشف فى هذا التوقيت بالذات، لم يكن أمامه إلا ساعتان أو ثلاث على الأكثر تقدير، نقل عم شرف إلى أحد المستشفيات الاستثمارية الحديثة التى تسهم المؤسسة بقدر غير قليل فى أسهمها. وتأكد أن ذلك تم بمسعى الجلاديوس وبنفوذها المستجد القوى.

رغم أن الأخبار المتسربة من الطابق الثانى عشر شحيحة جدا، لكن يتم تخمينها بشكل ما، وغالبا لا تكون المسافة واسعة بين ما يتردد والواقع بالفعل، رغم كافة الاحتياطات فإن أنظار آلاف العاملين فى المقر الرئيسى، وعشرات الآلاف من زملائهم فى شتى المواقع يمكنها استنتاج شىء ما، أو خبر ما، أى أمر ولو ضئيل يتعلق بمصير الكافة، لم يكن عسيرا على الجميع إدراك الموقع المتميز، المتين، الذى شغلته الجلاديوس، لم يمض على قدومها أكثر من شهرين حاملة باقة الزهور الهولندية التى تأخرت لأسباب خارجة عن إرادة شقيقتها، خلال تلك الفترة الوجيزة تمكنت وتوطدت أحوالها. كأنها ولدت فى الطابق الثانى عشر.

هذه لم تأت لتذهب، إنما لتقيم..

ردد النمرسى هذه الجملة مرارا أثناء جلوسه منفردا، أو قبل إدلاجه فى النوم، لا يثق أبدا فى مجيئها صدفة، لابد أن ترتيبا تم، من قام به؟ من مهد لها؟

ربما شقيقتها، لا . . ليس عزب الميدومى، إنه أغبى من ترتيب وضع كهذا، ما يضايق النمرسى جهله بالمقدمات، ربما أكثر من دخولها عن طريق آخر، هذا جائز، بل حدث بالفعل مرات، لم يتأثر، إذ لم يشغله إلا المهام التى كُلف بها، ما عدا ذلك لا يثير حفيظته أو غيرته، لا يخفى فضوله ورغبته فى الإلمام بالتفاصيل، خاصة ما يتعلق بأدق الشئون، يعنيه جدا ما يدور فى الفراش، الألفاظ المنطوقة خلال أعنف اللحظات حميمية واتقادا، كذلك الحركات، لديه كراسة صغيرة دون فيها ما سمعه مباشرة خلال مواقعته لبعضهن، اللواتى اضطر إلى تليينهن أولا تمهيدا لتطويعهن تماما، أيضا ما أصغى إليه من ذكور وإناث أتيح له استجوابهم واستخلاص ما قيل، أو ما جرى من حركات وأصوات لا إرادية من شخر ونخر، يسره ذلك ويبهجه ويستثيره.

أخيرا، حانت اللحظة التى رتب مقدماتها، ودبر ما سيسفر عنه مضمونها، لم ينتظر أكثر من خمسة أيام، اتجهت صباح الأربعاء السيدة إمتثال إلى العيادة الطبية لشأن لم تفصح عنه، إنها مثل كل العاملين تتردد عند شعورها بأى إعياء أو أعراض مرض، تعالج وتصرف الدواء بدون مقابل، حق مكتسب منذ الحقبة الأخيرة للمؤسس، لم يستطع أى مسئول التخفف منه أو التراجع عنه، أحيانا كان يجرى ترشيده، كأن تصدر تعليمات خفية إلى الأطباء بتقليل كميات الدواء، أو صرف أنواع غير مرتفعة السعر، خاصة أن الدواء أصبح معظمه مستوردا بعد أن تم بيع مصانع الأدوية التى تباهى بها المؤسس يوما وزها. تملكها وكلاء الشركات العالمية الكبرى وبالطبع تحولت المصانع إلى التعبئة بدلا من الإنتاج، والتغليف للمستورد الجاهز.

عادى جدا أن تذهب أى سيدة إلى الإدارة الطبية، لكن ما جرى صباح ذلك اليوم صار حديث المؤسسة كلها، فروعها قبل أصولها، تقريبا ردد كل العاملين تلك العبارة بطرق شتى لكن المضمون واحد.

«إمتثال القوصى طلع عندها إيدز...»

«ياساتر استر.. إيدز؟؟!!»

نعم، إيدز، ما جرى أنها شكت دوخة بسيطة، الطبيب شك فى الأمر، قام بتحليل سريع لدمها، للأسف جاءت النتيجة إيجابية، موقف صعب، ليس بالنسبة لها، إنما للمؤسسة التى تمر بفترة دقيقة الآن تمهيدا لعضوية منظمة الكومسا الإفريقية.

ما العلاقة بين الكومسا والإيدز؟

لا أحد يمكنه القطع أو الإلمام، لكن ما جرى محاولة إدراك أى تفاصيل، هل انتقلت العدوى إلى من صافحها أو تحدث إليها أو خالطها؟

بمجرد انتشار الخبر، ليس فى المقر الرئيسى إنما فى الفروع التابعة، والهيئات التى تعمل تحت لافتات مختلفة إنما تتبع وتقتدى، وفدت فرقة تطهير من وزارة الصحة، أربع نساء يرتدين الجلابيب البيضاء، شديدات التكوين، يأتمرن بشاب فى فى العشرينيات، ربما يكون طبيبا حديث التخرج ويتنقل بعربة صغيرة اشتراها مستعملة. تم إخلاء الغرفة ورشها بالمساحيق المطهرة ورفع مكتبها إلى جهة غير معلومة، وسرت إشاعة بوجود عوازل طبية للرجال فى الدرج الرئيسى، أبدى بعض من تعاملوا معها الفزعة واتصلوا برقم الهاتف المنشور فى الصحف

للاستفسار عن المرض، فى اليوم التالى تناقل العاملون نبأ احتجاز السيدة إمتثال فى مستشفى الحميات، وتردد أيضا أن زوجها بدأ إجراءات طلاقها فانقسم المستمعون بين مؤيد ومعارض، كيف يتسرع فى قراره هكذا؟

فى مساء اليوم التالى تلقى عبده النمرسى مظروفا أزرق اللون، درجة تختص بها مكاتبات سيادته، ولا تستعمل فى أى إدارة أخرى، تسارعت دقات قلبه، عندما فتحه حمد الله وأثنى عليه، يحتوى على نسخة من التقرير الخاص بالوضع المؤسسى، يتضمن ما تنشره الصحف الأجنبية مترجما إلى العربية، ما يتعلق بالأنشطة المختلفة وردود الأفعال فى الأسواق المالية ودوائر اتخاذ القرارات الاقتصادية، خاصة فى الغرب، وجنوب شرق آسيا، يتضمن المظروف أيضا ملفا موجزا حول الدول الأعضاء بالكومسا، والهيئات الدولية ذات الصلة.

راحة النمرسى مبعثها أن مثل هذا المظروف لا يرسل إلا لمن حازوا الرضا والقبول.

فيروز بحرى

على الرغم من توقع تغيرات من حين إلى آخر، إلا أن القرارات فاجأت الجميع، حقا. . إنه هادئ، كامن، لا يظهر إلا نادرا، لكن بغتاتة لا تنتهى، فوجئ القوم بها معلقة فى لوحة الإعلانات الضوئية بالمدخل الرئيسى، وتتصدر كافة شاشات الحواسب الآلية، وتبث مسموعة خلال فترة الراحة القسرية التى يتجه فيها الجميع إلى الاستراحات الموجودة بكل طابق وتقدم فيها المشروبات الساخنة والباردة والشطائر الخفيفة، الحلوة والمالحة.

تم إسناد إدارة المتابعة الدقيقة إلى عزب الميدومى. اختلف الناس فى ذلك، إقصاء أم ترقية؟، من الناحية العملية يعتبر ذلك تكريما خاصا، الموقع حساس، متصل بجميع الأنشطة ذات الأهمية خاصة خلال محاولة الانضمام إلى مجموعة الكومسا، وتوطيد المكانة فى الفيفا، ومحاولة التأثير فى منظمة الفاو، إضافة إلى فتح أسواق جديدة فى دول البينو لكس.

لكن الابتعاد عن الطابق الرئاسى فيه تنزيل، مجرد التواجد فيه يضفى على الإنسان قيمة وهيبة ويبث الخشية كما يثبت الهالة، ليس فقط بالنسبة

إلى المسئولين إنما يمتد ذلك ليشمل السعاة وعمال النظافة، ألا تبدو معاملة الكافة لأهله مغايرة؟

لكن ما رجح جانبه علم بعض ذوى الحيثة أن هذا تم بإيحاء من قرينة سيادته، أمور عديدة تنسب إليها الآن، هى التى لم يسمع بها أحد، ولم تقع عين على ملامحها قبل إصلاح الحوض وقيام عزب بتشغيل أجهزة التدليك النفاث، البهجة التى بدت على ملامحه أكدت متانة وضعه، أولم لبعض صحبه، أرسل إلى أم الغلام لتجهيز المأدبة، أثناء تناول الطعام وقف فجأة، رفع فردة حمامة محشوة بالفريك وطلب منهم أن يرفعوا الصوت لمن جهزتها، وطهتها، ورجاهم ألا يلحوا فى الاستفسار، فاستجابوا، ذلك أنه الداعى.

المفاجأة الثانية تعيين مرسى النمرسى مسئولا عن قطاع الاتصالات العامة، حيرة استبدت بالأقربين، حتى المطلعين منهم على الدقائق، من المقصود بالنمرسى؟

الأب، أم الابن، أو إنه نمرسى جديد؟

المعروف أن اسمه عبده النمرسى، لم يقترن به قط اسم مرسى هذا، لم يدل أحد بأى تفاصيل دالة خاصة من شئون العاملين، ليس لأن هذا ممنوع عليهم، إنما لقصور معلوماتهم، البيانات تصل إليهم عبر الحواسب الآلية، حتى ملف البصمات أرسل عبر شبكة المعلومات المحلية المتصلة بالدولية.

وضع جديد اعتاده الجميع تدريجيا، أن يحيط الغموض بعض القيادات إلى درجة اختلاط الأمر على المقربين، النمرسى الأب

أم الابن؟، بعض من اعتادوا السخرية قالوا إن النمرسى ليس شخصا بعينه، إنه وظيفة، وقال آخرون إنه عصر الخفاء، أليس سيادته أول المحتجبين، من يراه؟ من يلتقى به؟ إنهم يسمعون عنه فقط، لكن كل ما تردد حول عزب الميدومى أو النمرسى، مجرد تفاصيل ضئيلة، جد متواضعة بالنسبة لفيروز بحرى.

فيروز بحرى؟

من يتصور؟ من يتوقع؟

معظم العاملين يسمعون به لأول مرة، لا يعرفه إلا عدد محدود، ذلك بسبب عمله سنوات طويلة حامل حقيبة المراسلات مع مجموعة الدول الناطقة بالإسبانية، فيما يبدولم يكن هذا إلا ستارا لمهام أخرى قام بها أدت إلى توطيد الصلة بتلك البلدان، واتساع نطاق المبادلات.

يتقن عدة لغات، وسيم، أعزب رغم اقترابه من الخمسين، رقيق الطلة، عيوق.

أوصاف ربما كانت سببا فى تلك الإشاعة التى اندلعت بسرعة وسرت من المركز إلى سائر الفروع والهيئات والمنظمات التابعة والنوادى ذات الصلة، خلال دقائق وصل الأمر إلى المقاهى والنوادى والتجمعات والمجالس المنعقدة، إلى أقصى الأحياء المنعزلة، الأساسية والعشوائية، حير ذلك خبراء تتبع الإشاعات فى الأمن الوقائى، ذكرهم بإشاعة خطيرة انطلقت منذ سنوات وأدت إلى تمرد جنود الأمن المركزى، وتلك واقعة غير مستحب ذكرها أو التلميح إليها.

جملة واحدة، متقاربة الصياغة، تم الهمس والنطق بها سراً وعلانية.

«فيه واحد لوطى فى القيادات الجديدة . . »

«معقول؟»

«مؤكد، إنه من مشاهيرهم المسجلين، له ملف فى الأمن الجنائى . . »

«فى الأمن الجنائى؟!»

لأنه المسئول عن كشف غوامض الجرائم، لذلك لديهم قوائم بالمدمنين وأصحاب الأطوار الغريبة والشواذ جنسيا من الذكور والإناث وما بينهما . من المعروف أن الجرائم والعنف ينتشران بين هؤلاء .

بعد تناقل الخبر، بدأ انتشار التفاصيل، امتزج الحقيقى بالزائف، قال بعضهم إن الترشيح جاء من أحدهم، شاذ شهير يحتل مكانة مهمة، هو من زج باسمه ودعمه، طبعا التراجع بعد إعلان القرار مستحيل، لا توجد سابقة واحدة، يعنى ذلك باختصار جهل القائمين على الأمور الاستراتيجية، وضعف الأجهزة التى يتم استطلاع رأيها عند تصعيد أى شخص، أو ترشيحه للمهام الحساسة المتصلة بصميم الوضع المؤسسى، لكن أحد قدامى العاملين فى جهاز سيادى علق ساخرا، إن المعلومات تُطلب للعمل بعكس ما تؤكده، وفى أحيان كثيرة يتم اختيار الأسوأ، خلال خدمته تسلم قائمة تضم عشرة أسماء مطلوب التحرى عنها .

فى مثل هذه الحالات لا يتم الإفصاح عن الشخصيات المقصودة، يضاف إليها أخرى للتمويه، على الفور بذلت جهود مكثفة تم خلالها التحرى الصادق، استغرقت وقتا، ظهر خلالها ما يدهش ويروع حتى أمثاله الذين اعتادوا الوقوف على الخبايا وما لا يمكن التصريح به،

أخيرا . . تم رفع التقارير إلى القيادة السياسية، وعندما أعلن التشكيل كانت المفاجأة .

الثلاثة الذين وقع عليهم الاختيار ممن دونت حولهم الملاحظات الجسيمة، أحدهم مختلس قديم، والثانى مدمن خمر حتى ليشرب الفودكا فى مكتبه أول النهار، الفودكا لا تظهر رائحتها عند الحديث إلى الآخرين، الثالث تحوم حوله شبهات تقديمه خدمات خاصة لأثرياء عرب!

يقول الخبير المتقاعد إن اختيار شخصيات «معيوبة» يسهل السيطرة عليها، لكن جميع من تم إقرارهم لم يكن بينهم شاذ، صحيح . . بعضهم تردد حوله كلام، لكنهم أخفوا أمورهم بمهارة، أما فيروز بحرى من مشاهيرهم، بل إن من لا يعرف شيئا عنه يدرك ذلك إذا أصغى إليه أو تابع حركاته، يبدأ حديثه جادا ثم يندمج فيوحى بأولئك المخنثين الذين يظهرون فى الأفلام والمسرحيات، يصحبون الراقصات الشهيرات، ويتشبهون بحركاتهن، كيف غاب هذا عن المعنيين؟

قال صاحبه ساخراً : ربما أرادوا التجربة، فإذا نجحت تم تعميمها .

بعض المتزنين، المعروف عنهم الحصافة والإتقان أبدوا امتعاضهم، ماذا يعنينا من أمره إذا كان شاذا أو غير شاذ؟، المهم أداؤه، كفاءته هذه أمور شخصية يجب ألا نتعرض لها .

قال خبير : ما من شجرة إلا وهزها الريح، فليمعن كل فى ماضيه، سيجد أمراً مشينًا، لا يجرؤ على الجهر به، لماذا ادعاء العصمة والتشهير بفيروز قبل أن يبدأ أى خطوة؟

غير أن من يستمع إلى هذا تحفظ، صحيح كل إنسان حر فى جسده، فى نفسه، لكن عند الاختيار للمناصب العليا يجب استبعاد أمثاله، لأن نقاط الضعف يمكن استغلالها لتمرير أوضاع شائهة أو إقرار أمور غير صحيحة.

انتقل الخبر بسرعة أدهشت الجميع، تداولته الهيئات المعنية، والفروع فى المدن الرئيسية والقرى النائية، حتى حير ذلك خبراء مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، اهتمت جهات سيادية وأخرى ثانوية، كما سعى معدو التقارير والمراسلون الأجانب، وممن يوصفون فى نشرات الأخبار بالمراقبين، وعملاء أجهزة المخابرات الأجنبية والعربية. صدر بيان فى هلسنكى يعضد ويؤازر الخطوة التى اتخذت فى مؤسسة شرقية من منظمة تدعو إلى إباحة الزواج بين أبناء الجنس الواحد، وتردد نشر صورة لفيروز أثناء مشاركته فى مسيرة سلمية للشواذ بأحد شوارع نيويورك أثناء قيامه بمهمة تسليم حقيبة تضم وثائق مهمة فى الطابق الثالث والثلاثين من مبنى التجارة العالمى، أقسم بعضهم رؤيتهم لها، لكن.. لم يتأكد ذلك، وتردد أن جهازا سياديا متخصصا رفع تقريرا إلى الطابق الثانى عشر يضم تسجيلات بالصوت والصورة لفيروز مع عشاقه.

كل شىء معروف فوق، لكن التراجع مستحيل الآن.

بثت الإذاعة البريطانية الناطقة بالعربية خبرا.

صحيح

مؤكد، سمعته بأذنى..

كل هذا لا يهم، التشنيعات الخارجية يمكن الرد عليها إذا لم تمس المصالح الحيوية، ما أثار القلق بدء تحرك اللجنة النقابية، وظهور تلميحات صريحة فى الصحف المعارضة، وإشارات ضمنية فى الصحف القومية المساندة.

اليوم الثالث لصدور القرار ظهر مقال لكاتب ينتمى إلى جيل ما بعد الرواد، تجاوز الثمانين بأربعة أعوام، ارتبط بعلاقة وثيقة مع المؤسس، حتى أنهما كانا يتناولان طبق «الأوسو بوكو» فى مطعم التريانون، القديم، مقصد الذواقة والعالمين بأنواع النبيذ النادرة التى كانت تستورد خصيصا قبل بدء العصر الشمولى.

«الأوسوبوكو» وجبة من اللحم، يسقى بالنبيذ المعتق أثناء طهيه على نيران هادئة أضعف من عود الكبريت، لذلك وجب التوصية على إعدادها قبل يومين. احتفظ النبراوى بك بمنضدة خاصة به وضيوفه.. اختفى المطعم وتحول الآن إلى صالة عرض سيارات.

«النبراوى بك» هكذا يناديه الجميع، حتى بعد إلغاء الألقاب عقب ثورة يوليو المباركة، احترمه الكافة، المؤيدون والمعارضون، مثل المؤسسة فى مؤتمرات مهمة عقدت فى المعسكرين الشرقى والغربى قبل انهيار حائط برلين.

كتب مقالاً فى الأهرام يشير فيه صراحة إلى خطورة تولى المنحرفين والشواذ المواقع المؤثرة، بسبب سهولة التأثير عليهم واختراقهم من نقاط ضعفهم، وتعاضدهم مع أمثالهم بغض النظر عن الجنسية والدين.

طبعًا أحدث المقال رجة، لكن الأمور فى الطابق الرئاسى ليست سهلة

كما يتصور البعض، بدأ تحرك مضاد لم يعرف أحد بالضبط من يخطط له ومن يحركه؟

صدرت إشارات ذات معنى إلى نشطاء فى البورصة، وأطباء، وصحفيين، وأعضاء فى الجمعيات ذات الصلة.

أكد خبير معلومات أن فيروز جاء لأداء مهمة محددة سوف تعود بخير عميم، وفير، سيتوصل إلى اتفاقيات مهمة لم يحققها كافة من سبقوه وحاولوا، من المهام العاجلة تنفيذ العقد المؤجل منذ سبع سنوات لإدخال البن الخالى من الكافيين، مئات الآلاف يحتاجون إليه ولا يجدونه، أيضًا. . إدخال الإطارات المحصنة ضد الثقوب واللازمة للعربات رباعية الشد، إضافة إلى أمور أخرى يستحسن عدم الخوض فيها.

لن يستغرق هذا كله إلا ثلاثة شهور، فترة وجيزة وتنقضى، هل تستحق هذه الضجة كلها؟، سيعزل ويضيع أثره وينتهى خبره، فكأنه لم يكن، لكن ستنتشر القهوة خالية الكافيين، ستصبح مشروبًا مفيداً، مفضلا، فوائده لا تحصى، أما الإطارات المحصنة فالحديث عنها يطول.

مجرد مهمة سيؤديها ويمضى، عشرات مثله مروا ولا يذكرهم أحد الآن.

لماذا الضجة إذن؟

أما الأستاذ أوسو بوكو (هكذا أطلقوا على النبراوى بك) فأمره عجيب، إنه يصفى حسابات قديمة لا يعرفها إلا المطلعون، أمن أجل هذا ينزل بمستوى جريدة محترمة مثل الأهرام؟

تسميته بالاوسو بوكو جعلت البعض يؤكد أن الأمن القومي بدأ التدخل، حتى لا يؤثر الهجوم والإشاعات على الهيبة السيادية، أي قلقلة ستضر بالركائز الاقتصادية وتؤدي إلى ارتفاع سعر اليورو وربما نالت من الرصيد الأصلي للعملات الصعبة المعتمدة، وتضع الوفد الدائم في الأمم المتحدة أمام حرج بالغ.

هل يعرف المستهترون من مروجي الإشاعات أي ضرر يلحقون بجوهر البنية وصميم القصد.

عزب الميدومي قال لصاحب له إن أمر هذا الفيروز سيطول فيما يبدو، وما يتردد الآن عن قصر مدته وخروجه في أول تعديل لتهدئة الخواطر ورد الإشاعات، الأمر أخطر مما يتصور البعض، إنه يفكر في مقابلة النمرسي - الأب أو الابن - رغم أن كلاً منهما لا يطيق الآخر.

النمرسي الأب أو الابن، لا أحد يعرف الآن على وجه الدقة، يمر بحال سيئة منذ الإعلان عن اسم فيروز بحري، قامت عنده غضبة غيرت أحواله، نزل عليه غم وكمد، يبدو أنه مطلع على ما لا يعرفه الآخرون.

أقسم في حديث هاتفي أنه سيطهر البنيان من هذا النجس، لن يقصر، سيتعاون مع أي جهة، مع أي شخص، حتى من لا يطيقهم، لا . . لن تصل الأمور إلى هذا الحد، إذا أخفى سادة الطابق الرئاسي الحقائق فليوضحوها، وإذا جهلوا فليعلموها.

إنه يأمل في حدوث أمر ما، ردة فعل غير تقليدية، أن يتراجع سيادته

عن قرار اتخذه مرة واحدة، التكوين سيزداد رسوخًا ومتانة، العناد هذه المرة خطأ فادح ومدمر للمناعة.

راح يردد أن النبراوى بك قيمة تاريخية ومنزلة ورأيه مؤثر، طوال عمره مسموع الكلمة، له هيبة، أما التطاول عليه، وتسميته بالاوسو بوكو فينال من الجميع.

غير أن أنباء الصباح التالى حملت ما أنزل ماءً مثلجًا ليس على دماغ النمرسى فقط، إنما كل من شرع أو تحفز للنيل من فيروز بحرى!

مبايعـــة

لقاء ليلى جرى بينهما .

فى منزل قديم من طابقين، قرب مقياس النيل بجزيرة الروضة، يسكنه قطب وفدى من الجيل الثالث .

هاتف رن فى بيت النبراوى بك، عندما يذكر الهاتف كان يقال، «جاءه تليفون . . » .

أو

«حسم الأمر تليفون . . » .

هذا مقصود به الطابق الرئاسى وما يصدر عنه، للهواتف شأن عظيم ويحتاج الأمر إلى تفصيل، لكن ما يمكن قوله الآن، تغير موقف النبراوى بك تمامًا، من المعارضة إلى التأييد، من السخط إلى الرضا، بعد المكالمة بحوالى ساعة طرق بابه شاب وسيم، لطيف الملامح، نحيل، طويل، قدم نفسه باعتباره صديق فيروز الحميم .

اسمه فريح قتة، كثرت حوله الأقاويل، إنه الأقرب إلى قلب فيروز وفؤاده، تعرفنا إلى بعضهما فى عاصمة أوروبية، ربما بروكسل،

أو أمستردام، ثم ارتبط كل منهما بالآخر، حتى قيل إن فريح كان مقيمًا بصحبة فيروز عندما بلغه القرار، أمضيا معًا ثلاث ليال، شقة صغيرة بضاحية حلوان، من غرفة وصالة صغيرة ودورة مياه، لها مدخل مستقل مطل على شارع جانبى مؤد إلى الحديقة اليابانية، لم يفصل الأمر للنبراوى بك، كل ما قاله إن فيروز يستأذن فى لقاء، غير أنه فوجئ باقتراح من النبراوى بك، أن يكون الاجتماع عامًا، يضم القيادات المختارة، والشخصيات البارزة، ومن عندهم تحفظات، سيدعو إليه بنفسه، قال إنه اتصل بعدد من أشد المعارضين ومثيرى الأقاويل، أفضى إليهم بتأنيب الضمير لتسرعه وإبداء موقف تلاه اطلاعه على حقائق زلزلته بشدة، بعد إلمامه بها ندم على ما كان منه، ما صدر عنه شفاهة وكتابة، لكن عنده الشجاعة لينقد ذاته.

عقد الاجتماع فى مقر النادى المخملى، أحد المقار الجديدة ذات الخصوصية، تسهم المؤسسة فيه، لا يزيد عدد أعضائه على أربعين، الاشتراك السنوى نصف مليون دولار أمريكى لضمان المستوى، توجد به قاعة رئيسية وصالات فرعية، الأثاث على الطراز الفيكتورى، أما المصعد المؤدى فعلى هيئة مكتبة صغيرة، من نوافذه العريضة يمكن رؤية الأهرام غربًا والقلعة شرقًا ومبنى المؤسسة.

تم حجز الصالات كلها، وحتى وقت هذا التدوين لا يعرف إنسان من هو العضو الذى استخدم صلاحياته؟ من يدرى؟ ربما سيادته بنفسه.

بعض من جاءوا يدخلوه لأول مرة وربما آخر مرة، بينهم النمرسى، والميدومى، موقفهما ذاع وعرف، لكن سهير الفيومى شددت عليهما وأكدت، الميدومى قال إنه يمتثل لإرادة القيادة حتى وإن تحفظ قليلاً، لكن

النمرسى أكثر صراحة، أكد أنه سيحضر امتثالا للتعليمات، عند دخوله تطلع الجميع إليه، ليس لأنه من المناوئين، إنما لسبب آخر، كل يريد أن يعرف، من هذا؟ الأب أم الابن؟

مؤكد أنه نجح فى إلحاق ابنه، لكن . . هل تقاعد؟ هل غادر المقعد؟ هل نقل خبرته الطويلة إلى ولده؟، من رآهما معًا يؤكد أنه لا يمكن التفرقة بينهما، خاصة أن النمرسى الأب ذو بشرة دهنية، خلو من التجاعيد، لا يمكن الاستدلال منها على عمره الحقيقى، الملحوظة الوحيدة المرصودة أن الابن أكثر امتلاءً، لكن ليس إلى حد مفرط، طاقم المكتب الأمامى، سواء من يتولون المسئولية صباحًا أو مساء، لا يمكنهم القطع، ويؤكد كل منهم أن التفرقة من خلال الشكل والهيئة أمر صعب، لن يتم حسم ذلك إلا من خلال الأداء، ولأن مهام النمرسى غامضة، تحوطها سرية عميقة، فاكتشاف ذلك يحتاج إلى مهارة وتدبير وصبر عجيب.

حتى ذلك الوقت لم يكن سهلاً أن يرث ابن والده فى موقع مؤسسى، هذا مبدأ قديم استمر عقودًا، لكن النمرسى اعتبر من الحالات الخاصة، ربما لحساسية الخدمات التى أسداها، وتحمله سخافات غير المدركين لما قام به، وما اقتحمه من صعوبات، أيضًا لذلك التشابه فى الهيئة، خاصة تماثل القوام، وامتلاء المؤخرة، وبروز الصدر، وصغر الكفين إلى حد ملفت.

عند دخوله اتجه إلى آخر القاعة، فى الاجتماعات يفضل الجلوس آخر صف، حيث يرى الجميع ولا يراه أحد، يلحظ ويرقب، يرصد ويدون، ذاكرته تثير الدهشة.

ليس مهمًا من وجهة نظر البعض أن يكون الماثل هنا الأب أو الابن، مهاراته وإمكانياته فى الإيقاع بالنساء معروفة، لم تشق عليه إلا إمتثال القوصى، لكنه عرف كيف يجعل منها مثلاً، يرجع فشله معها إلى محاولة الميدومى دس أنفه فى مجال لا يعرف عنه شيئًا، حاول تسوية الطبخة فأفسدها.

لولا براعة النبراوى بك فى الحديث، فصاحته وتدفقه، ولولا تطلع الحضور إلى فيروز بحرى وتأمله عن قرب، لأصبح النمرسى محوراً للقعدة كلها، لكنهم فى مواجهة شاذ ذاع أمره وتوطد، ربما كان بينهم من يشبهه أو يفوقه لكن أمره خفى، أما النمرسى فلم تمر لحيظات إلا وفقد الحاضرين إحساسهم بوجوده، ليس لتركيزهم صوب فيروز وصاحبه فريح قتة الذى جلس خلفه تمامًا، يميل إلى الأمام ليهمس بما يوحى أنه يسدد الملاحظات أو ينبه، لكن لخاصية فى النمرسى الأب أو الابن، خفة حضوره وتلاشيه رغم وجوده ومثوله، يومًا قال عطية بك ساخراً، إن النظر ممكن من خلاله.

حقًا.. كان الله فى عون فيروز.

هذا ما نطق به خبير استشارى مشهور بغزارة علمه فى تخصصه، مكونات التربة، يعد المرجع الأول بشأن الحفرة الدائرية، ومتابعة ما يجرى على أعماق سحيقة داخلها.

هل يستحق المنصب العام هذا العناء كله؟

ألم يكن فيروز بعيداً عن هذا كله؟ هل اهتم به أحد؟ هل شاع أمره؟ لم يعرفه أحد، بل إن اسمه لم يعلق فى لوحة الإعلانات إلا كل أربع

سنوات عند مطالبة بعض العاملين بتقديم إقرار الذمة المالية والممتلكات العقارية .

بدأ النبراوى بك ، قال إنه لا يخجل من نقد نفسه إذا أبدى رأيًا أو اتخذ موقفًا ثبت خلله ، نشأ جيله على التمثل بعدة قيم منها الشجاعة الأدبية .

لقد تسرع فى الحكم على إنسان لم يحط بكل ما يتعلق به علمًا ، لكن بعد توافر ما جلى الموقف وأوضح الصورة ، يمكنه القول إن الأخ العزيز فيروز بحرى جدير بقطاع الفيوضات ، وأن القطاع جدير به ، وأنه يتوقع أزدهارًا حقيقيًا سينعكس أثره على الجميع .

تحدث عزب الميدومى موجهًا حديثه مباشرة إلى القتات مشيدًا بالقرار الحكيم ودلالته الواضحة ، إتاحة الفرصة لعناصر شابة جديدة مما سيؤدى إلى رفع معنويات أجيال كادت تيأس من إدراك الفرص ، أكد أنه يعاهد الجميع على تعاون وثيق بين إدارة المتابعة الدقيقة وقطاع الفيوضات ، بما يحقق للمؤسسة دخول العصر واللحاق بركب العولمة ، حيث لا مكان لمتخلف .

أعقبه متحدثون عديدون ، أعربوا عن ثقتهم بكافة ما يصدر عن الطابق الرئاسى ، وفرحهم لإتاحة الفرصة أمام القيادات الشابة ، لزم النمرسى الصمت ، اتجه إليه النبراوى بالنظر ، أشار مومئًا إليه بما يعنى : تكلم!

لكنه تجاهل ، وحاد بنظره بعيدًا ، وحرص على ألا يعكس وجهه أى ملامح دالة ، لم يغب عن الحاضرين الخفة التى ظهر بها النبراوى بك ، وتحريضه هذا أو ذاك على الحديث ، لم يبد دهشته لإقدام البعض على

الإشادة، رغم نشاطهم حتى ظهر اليوم فى الترويج للإشاعات المضادة حتى تجاوزت النطاق المحلى المسموح به.

اقترح الميدومى إرسال برقية باسم المجتمعين تأييدًا لسيادته، والتعهد بمؤازرة كافة جهوده المباركة للانضمام إلى الكوميسا، تبع ذلك تصفيق علامة الموافقة. لم يشارك فيه النمرسى لإنشغاله برصد كل كبيرة وصغيرة تتعلق بفيروز وصاحبه فريح قتة الذى لم يكف عن الهمس والميل إلى الأمام ليقرب فمه من أذن صاحبه، بدا له ذلك ساذجًا، مبتذلاً، الغرض منه بث رسالة إلى الجميع تعلن مكانته وقربه.

ها.. والله جاء زمنك يا فريح!

لدى النمرسى تفاصيل شتى، يمكنه من خلال موقعه طلب أى بيانات تتعلق بأى من العاملين، لا يستخدم كافة ما لديه إلا عند حلول الأوان المناسب.

إنه ملم، عارف بفريح ومساره.

فريح بن فرج قتة المنفلوطى، ابن غير شرعى، التقطه رجل طيب عندما هم باجتياز مدخل المسجد ذات فجر شتوى بارد، كان ممتلئًا، جميلاً، وحيدًا، منبتًا عن أصله وجذعه بقسوة التقاليد والعرف المتوارث، ملوفًا فى قماط أسود.

استغفر الرجل ربه، واعتبر عثوره عليه تكليفا ومنة، تكليفًا ليرعاه وينقذ حياة، ومنة لأنه لم ينجب، تهللت امرأته التى انقطع أملها فى حتة عيل، قال لها إنه بمنزلة ابنهما، وثواب ذلك عند الله كبير، وحرصًا على الولد سيدبر الأمر، هو مدرس اللغة العربية طيب السمعة والسيرة،

سيقول لمن يبدى الفضول والغلاسة إنه مولود سيئ الخط، ماتت أمه التى تمت إليه بصلة دم ورحم، فسعى لكفالة اليتيم، هكذا صار بمنزلة ابنهما.

بشكل ما عرف فريح أصله الغامض، أمور كهذه لا تخفى، وفى عالم الأطفال قدر من القسوة، تمامًا كما يحتوى على البراءة وبواعث الدهشة.

شب فريح وحيدًا، غير راغب فى الخلطة، ولأنه حلو التقاطيع، أبيض البشرة، دقيق المشافر، خشى عليه والداه، ألمحا له ونصحاه، خاصة من هى بمنزلة أمه، لم تمل تكرار نصائحها: ألا يخلع هدومه أمام أحد، ألا يلعب نطة الإنجليز، ألا يسمح لأحد بلمس مؤخرته، لكن.. المحذور وقع فى آخر موضع يمكن تصور ذلك فيه.

عند عودته من المدرسة ذلك العصر دخل إلى المسجد، ربما ليؤدى الصلاة، ليستريح، لم يفصل لأحد فيما بعد، كان خاليا إلا من الخادم الأخرس نزيل القرية منذ سنوات، لا يعرف أحد فصله من أصله، أقدم بهمة على تنظيف الميضة ونزح مجرور دورات المياه، نفض الغبار عن الحصر، ومقام سيدى الأربعين الذى يتبارك به الناس وله يوم معلوم يحتفلون فيه بذكرى مولده كل سنة، كما تولى غسل قلل الماء وملأها يوميًا ورصها أمام النافذة التى يطل منها العابرون على الضريح، أشار إلى مدخل المئذنة الضيق، إلى أعلى، إلى فوق، فوق خالص، تقدم الصبى المبهور وعندما خرجا إلى الشرفة الدائرية زنقة فى المساحة الضيقة المطلة على البلدة كلها، لكن من يخطر له التطلع إلى أعلى واستنتاج ما يجرى، خاصة أنه ما من صوت صدر ولا صرخة، أحكم تكميم الفم الصغير رغم العض والخدش فى البداية قبل أن تهمد مقاومة الجسد البض، الواهن!

لم يصعد إلى الشرفة إلا مؤذن أعمى تم اختياره بعناية حتى لا يجرح البيوت المجاورة بالتطلع والبص، مات قبل مجىء الأخرس، وتم تركيب مكبر صوت عوضًا عن الطلوع ورفع الصوت.

لسنوات سيتذكر فريح ما جرى برعب، ثم خشية، ثم فضول، ثم رغبة مبهمة لاستعادة ما جرى، تلى ذلك سعى، شاع أمره، حتى ليزعم بعضهم أن تلاميذ الفصل أتوه متتابعين فى الخرابة المطلة على الحقول مما أحدث تشنجًا فى عضلاته اقتضى علاجًا ببخار الشيح والكمون.

يعلم الله كم عانى أبوه منذ عودته إلى البيت ومؤخرته تقطر، إلى بذله الجهد للتستر على ما جرى، خاصة بعد اختفاء الأخرس كأنه فص ملح وذاب.

حدث ما حدث، بذل الأب الجهد والمال حتى أوصله إلى كلية التجارة، جامعة القاهرة، الحق أن الولد ذكى، طموح، لماح، لطيف العشرة، لكنه محب للعزلة والتوحد، قليل الثقة بكل شخص قبل لقائه بفيروز بحرى، يذكر بعض زملائه فى قسم المعاملات الذى التحق به أول خدمته أنه تحدث يومًا بضيق ملحوظ عن مجىء أمه من البلدة وإقامتها معه للعلاج، تسبب ذلك فى وقوع اضطراب له، وارتباك شئونه، لم يعتد النوم إلا بمفرده، لا يطيق تردد أنفاس مخلوق آخر على مقربة منه، فى ذلك الوقت أقام بغرفة وصالة ناحية الهرم، ولم يكن لديه إلا فراش واحد، ويعلق ملابسه إلى مسامير مدقوقة فى الجدار، عندما سألوه عن موضعها، قال إنه السرطان.

لم تمرض طويلا، رحلت بعد شهر من قدومها إلى مصر، وأعقبها

زوجها، يؤكد الأهالى والجيران المقربون أن فريح أورثهما حسرة وحزنًا مكتومًا عجل بهما وإن كانت الأعمار بيد الله، لم يظهر لهما إلا العوج والنشوز والاستهزاء بهما، حتى ردد الكل، وماذا يمكن انتظاره من ابن حرام؟

الحق أن الأمر أكثر تعقيداً، بقدر ما بغضهما بقدر ما أحبهما، الحديث فى هذه الجهة يطول، النمرسى تفحص أمره طويلاً وانتهى إلى حيرة هو الذى رأى ما يذهل أصحاب العقول الراسخة.

فريح هدفه الأسمى حتى لقائه بفيروز أن يظهر على شاشة التليفزيون، ليس كضيف أو محاور إنما كقارئ نشرة، كثيراً ما خلا إلى نفسه، أمام المرآة يتخذ أوضاعًا، ينطق بعض الجمل بتمهل وإتقان.

«صرح متحدث رسمى بما يلى . . »

«وعقب انتهاء المحادثات أدلى سيادته بتصريحات مهمة أكد فيها تطابق وجهات النظر بين الجانبين . . »

«وأعراب سيادته عن . . »

«نفى متحدث رسمى ما رددته بعض المصادر الإعلامية مؤخراً حول . . »

توصل بجميع أرقام هواتف مديرى المحطات التليفزيونية العاملة، الرسمية والأهلية فى مصر والعالم العربى، لديه قدرة على تغيير صوته وتلوين نبراته.

يقول بصوت وقور إنه معنى باكتشاف المواهب، إنه وضع يده على صوت سيكون له شأن فى دنيا الإذاعة المسموعة والمرئية، يستأذن فى إسماع محدثه عينة، إذا لقى السماح والقبول يبدل صوته على الفور ويبدأ فى إلقاء خبر أو خبرين، إذا تحدث إلى مدير إذاعة طنجة يتلو خبراً عن اجتماع جلالة الملك محمد السادس بالقاصد الرسولى. وإذا استجاب له مدير محطة دبى يقرأ وصفًا لاستقبال الجماهير عودة رئيس الدولة، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان من رحلته الموفقة. إذا توصل بمدير التلفاز الليبى قرأ تقريراً عن ردود فعل الشبيبة الفنزويلية فور اطلاعهم على الكتاب الأخضر، وتأسيسهم مركزًا لوضع شروحات ضافية لنصوصه.

اتصل أيضًا بصوت أمريكا فى واشنطن، ومحطات خاصة تبث إرسالها بالعربية للحاصلين على البطاقة الخضراء، وبالإذاعة البريطانية لما وراء البحار، والألمانية الناطقة بالعربية فى كولون، ومونت كارلو فى باريس، حتى إذاعة بكين الموجهة.

لم يوفق فريح، يبدو أن طموحه خف قليلاً بعد لقائه بفيروز، ما يحير النمرسى ـ أب أو ابن ـ نوعية علاقتهما، ليس مهمًا الصلة الشاذة، كلاهما معروف، أمره مدون، لكن بينهما فروق، فيروز يؤتى ولا يأتى، أما فريح فيجيد الأمرين معًا، يهوى الظهور مع النساء، له ذوقه الخاص، إنه يهوى السمراوات من ذوات الشفاه الغليظة، قادر على المضاجعة مع تصرفات خاصة ومعاملات محدودة لمواضع قرب منتصف ظهره، وأسفل مؤخرته، لا يتردد فى طلبها.

. . تظل الصلة مثيرة للفضول، أهى قاصرة على الجنس فقط؟

لكن . . هذا لا يفسر خلوتهما الطويلة، يمضيان بصحبة بعضهما أربعة أو ستة أيام وراء باب مغلق، يبقيان فى الطابق التحتى الذى تحاذى نافذته رصيف الطريق، بل إن فريح يسهل لصاحبه القربى ممن يستثيرون رغبته ويتوافقون مع مزاجه وميوله، خبير، مطلع على ما يمكن أن يحرك كوامنه.

إنه القوام النحيل، المستقيم كالحربة، يكثر فى أبناء الجنوب، خاصة قبائل البجة التى تسكن الصحراء الشرقية، كذلك بعض أبناء النوبة، تأسره المرحلة ما بين الثمانية عشر والسابعة والعشرين.

أحواله تدهش النمرسى، كله ترقب لما سيبدو منه، رغم نفوره من مثاله فإن فضوله أقوى، لم يقرب قط بين ذكر وذكر، مرة واحدة فقط عندما أقدم الأب على الإيقاع بصبى أمرد، أملخ، لتحقيق هدف أعلى عاد على المؤسسة بنفع غزير، لا يرغب ذكر هذه العملية، حتى فى لحيظات خلوته واستعراضه ما رأى من مفارقات وأمور دقيقة، خاصة عند استجوابه من وثقن فيه وأفضين إليه بالدقائق الشفيفة، لديه كراسات دون فيها الألفاظ التى ينطق بها الرجال والنساء فى حموة المضاجعة وذروة المشابقة، ما أغرب ذلك، هل يخرجه إلى الناس يومًا؟ ربما إذا سمحت ظروف النشر.

منذ الآن سيحاول التوصل إلى دقائق هؤلاء أمثال فيروز وفريح، لأول مرة يمثل اثنان منهما على مسمع ومرأى، كل من يتطلع إليهما يعرف ميولهما وطبيعتهما، صحيح أن فريح يتوارى خلف صاحبه،

يمسك دفتراً يدون فيه بعض الملاحظات. يميل ليهمس كلمة أو كلمتين، يظهر مكانته وقربه، أما الآخر فيبدو واثقًا، مدركًا أهمية الموقع الذى تولاه.

ملامحه وسيمة، أسنانه بها فلجة، عيناه كأنهما مكحولتان بعناية، لكن.. ثمة ملمح غامض، غير مريح، لم يحدده بدقة.

النمرسى رصد ملامح مؤخرته النحيلة بعكس مؤخرة فريح المكتنزة، المدملجة، ما أدهشه، تماثلهما من الخلف، خاصة النصف العلوى، آه.. بدأ زمن المؤخرات يا مؤسسة!

وقـــف

للنبراوى مـاض طويـل ومصـداقيـة عند عـمـوم القـوم، إذا ظهـر فى التليفزيون اقتنع معظمهم بصحة وسلاسة منطوقه، حتى وإن اختلف مع الذائع، الشائع، يقال إنه أحد أفراد معدودين كانوا يعلمون اسم القائد الحقيقى لحركة يوليو المباركة، وأنه لم يعتقل خلال الحملة على اليسار عام تسعة وخمسين لهذا السبب. إنه أحد قلائل يمكنهم التدخل عند المؤسس لحل أعقد المشاكل، غير أن بعض القادة التاريخيين للحركة الاشتراكية السرية يؤكدون أن فيه ما يريب!

إن المباحث العامة توصلت زمن الحكم الشمولى إلى قوائم تضم الأسماء الحقيقية لقيادات أربعة تنظيمات ماركسية منشقة، فوجئ خبراء مكافحة الشيوعية باسم النبراوى فى القيادات الأربع رغم اختلافها الجذرى فى المواقف والتحليلات. لحساب من كان يعمل إذن؟

لكن معظم الماركسيين المنضبطين لم يلتفتوا إلى ذلك، ما من شخص انتمى إلا وأشيع عنه الصلة بالمباحث، اتهام شائع بين المثقفين، النبراوى قدم خدمات جليلة إلى القضية.

إذن.. لماذا غير موقفه؟

كيف ينقلب بين يوم وليلة من معارض عنيف، إلى مؤيد بل وداعية للآخرين كى يؤازروا فريح قتة؟

غير أن عزب الميدومى وقف على ما لم يحط به الآخرون.

عندما نما إلى فريح بدء حملة النبراوى عليه، أكد فى اتصال هاتفى بالطابق الرئاسى، أنه سيعرف كيف يحول العاصفة إلى نسمات، ثم قال ما تردد ونسب إليه فيما بعد.

«كل . . له ثمن، المهم، المدخل . . »

النبراوى عنده مشكلة قديمة عجز عن حلها خلال العصرين الملكى والجمهورى، أنه يمتلك حجة شرعية موثقة تثبت ملكية أسرته لرمل إسكندرية كله، من المحطة الشهيرة إلى حدود قصر المنتزه، هذه المنطقة الشاسعة كانت صحراء خاوية، لكن جده الذى عاش فى القرن السابع عشر وخدم الباب العالى امتلكها، وسبب ذلك أنه جاء موفداً من الوزير محمد أوغلى الوالى على مصر ليعلم طهاة الأستانة، أسرار التحويجة الخاصة بطواجن السمك، خاصة الجمبرى بالملوخية، هذا الطبق بالتحديد لعب دوراً مهما فى استمالة السفراء والزوار من الشخصيات الكبرى وتلطيف المناخ مع أصحاب الممالك الغربية، خاصة جمهورية البنادقة ذات الصلات الوثيقة بالشرق، أثار إعجاب الولاة وكبار القوم فى البلاد المتاخمة وزعماء القبائل المتنقلة ما بين سهوب أسيا الوسطى وجبال الأناضول، اعتبر من أسرار السلطنة حتى زوالها بعد الحرب العالمية الثانية.

عندما قدمت الطواجن أول مرة فى الأستانة، أعجب الخليفة السلطان

وأنعم على النبراوى الكبير بعباءة من الفرو، وأقطع له تلك المساحة من الأرض المحاذية للبحر فى إسكندرية، بطول عشرين ميلاً وعمق ثلاثة طبقًا للقياس الاستعمارى القديم. يبدو أن الجد لم يقتنع بقيمة الأرض الرملية، فأوقفها لإطعام الطيور الوافدة فى الشتاء والقطط والكلاب الضالة، لم ينفذ أحد وصية صاحب الوقف، الأرض لم تدر شيئًا لخلوها حتى من نبات التين الشوكى المثمر على امتداد الساحل الشمالى حتى الحدود الليبية. كان شاغله الأعظم توريث أسرار التحويجة السكندرية لابنه وأحفاده من بعده، حتى يظل الأمر محصوراً فى نسله ودام ذلك حتى انهيار الخلافة العثمانية، لسبب ما جاء الحفيد إلى الثغر، ربما هربًا من الثورة الكمالية، وربما لعثوره على حجة الوقف وسعيه إلى استرداده فى زمن مالت فيه الأمور واضطربت فى تركيا.

افتتح مطعمًا فى بحرى، قرب حلقة السمك التاريخية بالأنفوشى، وسرعان ما اشتهر أمره، طبعًا بطبق الجمبرى بالملوخية أولا، الطواجن أمرها معروف فى مصر، أسر كثيرة مشهورة بها، خاصة فى رشيد ودمياط، ما أضفى الميزة تلك النكهة البهارتية الخاصة التى توصل إليها الجد نتيجة خلط أصناف مختلفة بمقادير معينة من شجر الفص الذى ينبت فى مدغشقر، ومسحوق زهور الايلنج من جزر القمر، وخلاصة الحنة البغدادية وحبهان سمرقند.

صار لها شهرة، وأصبحت تعرف بالتحويجة السلطانية، قصده الأعيان والرئاسات والباشوات، واستدعاه الملك أحمد فؤاد لإعداد الطبق فى قصر رأس التين، حرص على تناوله مرتين أسبوعيًا مع عصير المخاصى المركز، أملاً فى تقويته على الملكة الشابة المتأججة التى

تصغره عمراً ويعجز عن إطفاء وقدة عينيها الرانيتين، المتطلعتين إلى همود لا يتحقق.

رغم هذه الصلة الوثيقة بالقصر لم يقدر الحفيد على استرداد الوقف، الوضع أصبح معقداً بعد سريان العمران، وظهور قصر الصفا على ربوة عالية، واتخاذ مدفعية الجيش مواقع لها منذ الثورة العرابية فى سيدى جابر والمنتزه وسيدى بشر.

غير أن إصرار الحفيد لم يهن، القضية تستغرق أجيالاً، بعد أن تزوج إحدى بنات بحرى اللينات، الخبيرات، قرر أن يهب أبنه الأول منها للقضية، تعليمه القانون حتى يتخرج من الحقوق متقنًا له، عارفًا بأصوله وخباياه، عندئذ يمكنه استرداد الوقف.

نبغ الولد، لم يحصل على ليسانس الحقوق بامتياز فقط، إنما تقدم لإعداد الماجستير، ممهداً طريقه إلى الشهادة العالية، الدكتوراه، لكن عودته من باريس بدأت السياسة تأخذه، كما ظهرت عليه أعراض الكتابة، ولم يهدئ والده إلا توقيعه فى الصحف باسم النبراوى، لقب الجد الأكبر، طباخ الباب العالى، متقن التحويجة السلطانية التى حققت للأسرة وضعها رغم اختلاف العصور وسقوط وصعود النظم.

فى البداية تعامل مع وصية والده باستخفاف، سايره وأصغى إليه، لكنه لم يتخذ خطوة واحدة فى سبيل تحريك الموضوع، هذا حال متكرر منذ أول وصية نطق بها النبراوى الكبير، نطق بها فى المطبخ الكبير الملحق بقصر طوب كابى سراى، مقر السلاطين من آل عثمان، أصغى إليه ابنه بدهشة، أى تحويجة وأى مقادير يوصيه بإتقانها والحفاظ عليها، لكن بعد مضى مدة ربما تطول أو تقصر يبدأ الابن بإدراك المغزى ويتحول ما سخر

منه إلى التزام مطلق ومصير، هذا ما آل إليه أمر أستاذ القانون ولكن بعد بلوغه السابعة والستين، كلما تذكر الأسى في عيني والده وخيبة الأمل البادية وعبوسه عكمه ندم لأنه لم يطمئنه قبل رحيله، أبدى الأب خيبة أمله لزوجته، غير أن الله عوضه خيراً في الولد الأصغر الذي لم يدخل الجامعة ولم يحصل على الشهادة العالية، لكنه تفرغ تماماً لإتقان التحويجة والحفاظ على سمعة المطعم ومستواه، ولأنه أخلص، ولأن والده دعا له بالتوفيق، نجح في ضم الفرن المجاور ودكان طحن البن، هكذا اتسع المطعم وقصده القريب والبعيد، لم يخل قط بمستوى الطعام، وحافظ على سر التحويجة، وضع تحذير والده حلقاً في أذنه، أن يتجنب ويحذر التطوير، كله إلا التطوير، لو اختلت النسب في التحويجة السلطانية لفسد أمرها وراح، ليتجنب أي عروض من الشركات الكبرى مهما بلغت الإغراءات، هذا سر الدوام واستمرار الحال، الحق أن المذاق لم يتبدل والجودة لم تهن، حتى في شهور الصيف التي يتزايد خلالها الإقبال من الجمهور، وتبدل العهود من ملكية إلى جمهورية وتراجع قيمة الإتقان مع بدء المشاريع الأجنبية وسريان سياسة الخصخصة. وانتشار محلات الوجبات السريعة والتقاليع من شرقية وغربية، استمر مطعماً مختاراً ومقصداً للأكيلة وخبراء الطعام المتقن، الناضج على نيران هادئة، اعتمدته وزارة السياحة مطعماً من المستوى الممتاز، وأهدى إليه الوزير درع التنشيط الإيجابي، رغم مظهره الشعبي وبساطة القعدة، تماماً كما جرى مع مطعم أم الغلام في البر القبلي، نظم بعض الشعراء قصائد في أسماكه المقلية والمشوية، وطواجنه، وثعابين البحر المدفوسة في الأرز المسقي بالنعناع وزيت القرنفل، أما سيد الأطباق وأشهرها، فلم يتراجع عن الصدارة والذيوع، الملوخية بالجمبري مكمن التحويجة ومستقرها.

قرب نهاية القرن أدخل الابن الأوسط خريج قسم الحواسب الآلية خدمة توصيل الطلبات إلى المنازل، أعد أوراقًا خاصة من معدن الألمونيوم المجلفن وأوعية من القصدير المسحوب على البارد لاستيعاب السوائل، شوربة السمك، وماء المخلل الحادق.

هل تغير مستوى التحويجة؟

لا يمكن لأحد القطع، إمكانية المقارنة مستحيلة، الأمر ممتد على مدى أجيال متعاقبة، قليلون عاصروا المرحلتين، آخر من يوثق به عم شرف، لم ينقطع عن التردد والتذوق، لكنه خرج من الدائرة منذ تخشبه بعد نفاد الكالسيوم منه، لم يعد قادراً على التفرقة بين الشطة والسكر. منزلته هنا تعادل مكانته عند أم الغلام إن لم تفقها، هنا يتفاءل الحفيد بطلته ويصر على دعوته ويرفض تقاضى مليم واحد، مجرد حلوله فى المكان بركة، تمامًا مثل الشيخ بهلول الهائم على وجهه فى البلاد، يظهر مرة واحدة فى السنة مع حلول نوة المكنسة الصغرى، يمشى على قدميه من حد البر إلى حد البحر، الحفيد يداعبه.

«طيب حد البحر نعرفه، إنه على بعد أمتار منا، أين إذن حد البر؟ !»

يشير بيده إلى جهة ما، ربما تتغير أثناء حديثه

«هناك.. هناك»

المعروف أنه ضيف على المطاعم والأديرة ومضايف القرى النائية فى الجنوب ومساجد وزوايا وينتظره مطران أبو تيج، أما خادم مسجد وضريح سيدى عبد الرحيم السبتى نزيل قنا فيصر على استضافته.

«فى السوق أشكال وألوان وإلا لما سمى سوقًا»

هكذا يردد صاحب المطعم الذى هو أب من ناحية وحفيد من جهة، تجاوز العقد الثامن، إنه راض، عوضه الله خيراً عن جنوح الابن البكر وحبب ابنه الأوسط فى التحويجة السلطانية حتى أنه تخلى عن دراسة الحواسب الآلية، بدا من نشاطه وهمته أن المطعم سينتقل إلى طور جديد مع الدخول إلى الألفية الثالثة. خاصة بعد طلب القصور الرئاسية إعداد وجبة جمبرى بالملوخية لتقديمها إلى ضيف استثنائى، إنه الرئيس بيل كلينتون الذى سيشرف الديار لمدة ساعتين وأربعين دقيقة، فيما بعد قيل إن زيارة هيلارى التالية بمفردها هدفها الحقيقى لتذوق الطاجن السلطانى، إنه هادئ، مستقر، مطمئن إلى التزام ابنه بالحفاظ على البنية وتجنبه التطوير. الوصفة تنتقل من جيل إلى آخر، الزبائن فى تنوع وتزايد، ما طرأ وحيره، موقف الابن الأكبر، النبراوى، تغير تمامًا من قضية الوقف، بدأ يحرك الأمر على مختلف المستويات، عندما قبل النبراوى يده، وأقسم على تجنيد خبرته وتاريخه من أجل استرداد الوقف، قال:

«كل شىء يمكن أن يحدث الآن، وكل شىء يمكن ألا يحدث..»

بالطبع، لا الأب الموشك على تمام الأجل، ولا الأشقاء، ولا النمرسى ولا عزب الميدومى ولا أى شخص من الذين حضروا المأدبة فى النادى اللازوردى أدرك أن تغير موقف النبراوى له علاقة بقضية الوقف التى خاض فيها فيروز بحرى مباشرة عند لقائهما وأبدى التزامه الموثق بتمكين الأسرة من حقوقها الشرعية.

تمكـــين

النمرسى مأخوذ !

لا يفيق من مفاجأة إلا ويقع فى الأشد والأنكى.

من أين جاء فيروز هذا وتابعه فريح؟

ماذا عن صلتهما بالجلاديوس التى تنتهى إليها كل الخيوط الآن؟

متى بدأت؟

كيف ظهرت متينة هكذا مع أنه لم يرصد أى مقدمات لها؟ هو الذى يحاول الإلمام بكل كبيرة وصغيرة؟

عند النمرسى فتور وضعف همة، ليس مصدرهما الإحباط العام الذى شمل الجميع بعد حركة التعيينات فى المناصب الكبرى، رغم شمولها له وتصعيده، إنما لهذا الظهور المفاجئ، المباغت لفيروز بحرى وتوليه واحد من أهم القطاعات. يكفى أنه مسئول الآن عن كافة الاتصالات الداخلية والخارجية وتخطيط البرامج المستقبلية، والأدهى والأمر تبعية الخبيئة المؤسسية له كذلك مدونة السجلات، أى أنه يتولى الماضى والمستقبل وما بينهما !

ليس ذلك سبب الإحباط والدهشة فقط، إنما ما يصدر عنه كل يوم، لا . . بل كل ساعة.

بعد مفاجأة النادى اللازوردى، وتبديل النبراوى بك لموقفه جذريًا، سرى ما يؤكد اتصاله بالجلاديوس، وإبلاغها مشروعين، الأول . . إنتاج فيلم روائى أو تسجيلى عن سيادته، ثمة ما يدعو إلى ذلك، حفظ التجربة للأجيال الوافدة، ألا يكفى أن السينما والتليفزيون لا يوجد بهما لقطة واحدة حية للمؤسس، إذا ورد ذكره لا يرى القوم إلا صورة فوتوغرافية، أو رسمًا لملامحه.

الثانى . . إقامة مبنى حديث يليق بالخبيئة، ليس من المعقول أن تظل مدفونة فى الطابق تحت الأرض قرب الحفرة الدائرية، إنه يقترح نقلها قرب الهرم حيث الفراغ مازال شاسعًا، خاصة ناحية الطريق المؤدى إلى الفيوم.

بناء قائم بذاته، لا يجاوره شىء، طريق فسيح مؤدى، بحيث يبث الهيبة فى نفوس الزائرين، لن يطلعوا على الخبيئة نفسها، إنما سيقفون لى مكوناتها وتاريخها ونماذج مصنوعة بإتقان لبعض محتوياتها مع ن تفصيلى للعثور عليها، والوسائل التى اتبعت لحفظها، لن يتم رض لدلالاتها.

يبدو أن الاقتراحين لقيا قبولاً عند سيادته، لم يعلن كعادته إنما استفسر ن طريق الجلاديوس منه عن أمرين، الأول متعلق بالمدة التى ستغرقها البناء الخاص بالخبيئة، والثانى عن التكاليف ومصادر التمويل هل سيتم من الميزانية العامة، فى هذه الحالة، أى بند يقترح، أم هناك مصادر أخرى؟

فيما يتعلق بالفيلم، الفكرة وجيهة، لكن سيادته لن يظهر فى أى لقطة لذلك يفضل أن يكون سرديًا روائيًا، هنا لابد من تحديد شخصية الممثل الذى سيقوم بدوره، والأهم . . المخرج. لابد أن يكون مقتدراً، موهوبًا بقدر يمكنه من تقديم هذا العمل الذى سينعكس على التكوين كله.

الجلاديوس موصل جيد بين فيروز وسيادته، هذا ما حير النمرسى، منذ متى توثقت العلاقة بينهما؟، كذلك تابع الميدومى ما يجرى متعجبًا من قدرة الواقع على مفاجأته بما لا يتوقعه.

معروف منذ مدة ليست بالقليلة إن الجلاديوس هى البوابة الآمنة إلى سيادته منذ استقرار أمرها وتمكنها منه لسبب لم يقف عليه النمرسى بعد وإن أيقن أنه متعلق بالجنس، وضعت يدها على شيء أفلت ممن سبقنها ولم يعمرن معه هو الملول، الذى لم يسع إلى أنثى إلا لمضاجعة عابرة، لا صلة معها، ولا قعدة تطول، ولا انسجام بعيداً عن الفراش، بترو، واعتماداً على جهده الشخصى بدون أن يشعر أى إنسان، سعى النمرسى إلى لملمة تفاصيل دقيقة عن مزاجه وعاداته ودخائله المتعلقة بالفراش. هذه المرة يعمل لحسابه، لإرضاء فضولى، وأيضًا لفهم الأوضاع، الجلاديوس تركن أوراقًا مهمة عندها قبل أن تعرضها على سيادته، بل إنها تعطل مصالح حيوية لقطاعات حساسة ولا تبدى سببًا واضحًا أو مبرراً مقنعًا، ما يوافق مزاجها تيسره، وما لا ترضى عنه تعسره، أحيانًا لا يعجبها توقيع شخص ما، أو لون الورق المكتوب عليه الموضوع، أما علاقتها بفيروز فمن المعضلات التى واجهته.

فى اليوم نفسه بلغ سيادته الأجوبة عن المسائل التى طرحها، الوقت الذى سوف يستغرقه البناء خمس سنوات، وستكلف به شركة مقاولات

عالمية، ربما من المستحسن أن يسند إليها بالأمر المباشر، لذلك يرشح فيروز نفس الشركة الكورية التى صممت مبنى السفارة الأمريكية بجاردن سيتى، والتى أعادت أيضًا صياغة الطابق الثانى عشر.

أما التمويل فلن تتحمل الميزانية العامة جنيهًا واحدًا، يكفى الإعلان عن وضع حجر الأساس وإذاعة الحفل الذى سيمثل فيه سيادته بمختلف الوسائل المرئية والمسموعة إضافة إلى الوسائط الحديثة مثل شبكة الاتصالات الدولية و«التى دى فى»، حتى تبدأ الاتصالات بالهيئات المعنية والمستعدة للتمويل، وحتى لا يقول بعض من يجهلون الظروف العالمية الجديدة إنه يتقدم بمشروع غير موثوق النتائج فإنه سيوقع على تعهد يحدد فيه بالأسماء والعناوين سبع جهات مستعدة للتمويل فور الإعلان عن وضع حجر الأساس.

بالنسبة للفيلم فيقترح أن تسند البطولة إلى وجه جديد تمامًا لا يرتبط عند المشاهدين بأى دور آخر، بحيث لا يمكن المقارنة وتصعب الإحالة فيبدو وكأنه شخصية حقيقية، واقعية من ناحية أخرى يعد هذا توفيرا لكانة سيادته وصورته العامة، فليس معقولا ولا مقبولا أن يجسد ممثل معروف شخصيته، وسبق له تمثيل شخصيات أخرى بعضها سافل! أما الإخراج فيمكن إسناده إلى فنان عالمى يتم ترشيحه من قبل خبراء السينما فى المؤسسة حتى يشعروا أنهم وضعوا عند المخططين فى الاعتبار، هكذا نوفر كافة الظروف لنجاح الفيلم، ولأن المخرج أجنبى، والموزع كذلك، يمكن أن يعرض فى شارع الشانزليزيه والشارع الخامس بنيويورك فى وقت واحد مع أكبر دور العرض فى مدريد وموسكو وفيينا ولاس فيجاس وليما.

فيلم ستجند له الإمكانيات المتاحة عالميًا ومحليًا ليجيء وثيقة حية تبقى للتاريخ، ما يحتاج إليه تخصيص وقت مع سيادته طبقًا لظروفه، يمكن أن يكون ساعتين أسبوعيًا أو أكثر أو أقل ليجيب عن أسئلته ومن خلال الإجابات المسجلة سيقوم بصياغة المادة، إضافة إلى الاعتماد على بعض جوانب من مدونة السجلات، لابد من اطلاعه عليها، فليحدد سيادته الأوقات المناسبة، ليلاً أو نهارًا، صبحًا أو عصرًا، إنه جاهز، ملب عند أوهى أشارة. .

«شاطر يابن الكلب. .»

يقول النمرسى إنه يعجب دائمًا باللعبة الحلوة حتى لو ضده، إنه فى مواجهة أسلوب جديد، نفس مغاير على ما اعتاده فى المؤسسة، لا يدرى متى وأين قرأ عن ملك قديم، ربما كان الإسكندر الأكبر، خلال غزاوته أسر فتاة جميلة، رائعة الحسن، ولإعجابه بها أمر رسامه أن يصورها، وعندما رآها هام بها فتعمد إطالة المدة والعمل على مهل، حتى يتمتع بحسنها، ويمد جسورًا بينهما، وعند لحظة معينة اتصلت المودة، لا يذكر النمرسى الآن ما انتهى إليه أمر الإسكندر، لكن ما يعنيه تلك الجلسات التى سيملى خلالها سيادته سيرته وآرائه، ستصبح المسافة بين الفم والأذن قصيرة جدًا وهذا ما يسعى إليه الجميع، خاصة عند المراتب العليا، لكن إعداد الفيلم لم يكن المفاجأة الأخيرة.

طلب فيروز من سيادته موافقة على أن يبدأ خطة عملية، دولية، لحصول المؤسسة على جائزة الدورق الذهبى العالمية، إنها جائزة معروفة دوليًا، والشركة التى تحصل عليها تذكر ذلك فى رسائلها ومعاملاتها وعند الإعلان عن أنشطتها، إن الوقت الذى أمضاه فى الخارج لم يضيعه

عبثًا، إنما وثق خلاله علاقات، ومتن صلات، وأخيراً . . ها هو الوقت الملائم ليوظف ما اكتسبه فى سبيل المؤسسة والعاملين فيها.

فى اليوم نفسه تسلم فيروز المظروف الأزرق المغلق الذى يثير ظهوره رجفة، لا يستخدم أى مسئول آخر اللون السماوى الفاتح، لون خاص بسيادته وما يصدر عنه، للورق رائحة خاصة خفيفة، يزعم بعض السائقين والعمال أن من يستنشقها تظهر عليه أعراض مرضية معلومة إذا كان معارضًا لسيادته أو يضمر حتى النية.

ما أدهش النمرسى سرعة الاستجابة، وافق سيادته على بدء السعى فى اتجاه الحصول على الدورق الذهبى.

لم يكن هذا ممكنًا إلا من خلال الجلاديوس، المؤكد أن صلة ما بطهما قبل مدة، قبل مجيئه إلى المبنى وتوليه المسئولية الجديدة، يتصل بها عدة مرات يوميًا، ومنذ اليوم التالى لتوليه المسئولية بدأ تردده عليها - أى على الطابق الرئاسى - وبقاءه فترات بصحبتها، هذا لم يحدث من قبل، طبعًا . . لا خطر منه، ولن تتردد حولهما الشائعات، أمره معروف للكافة، حتى أنه عند ظهوره فى المصعد، أو عند المدخل، أو فى اجتماع عام، ينظر معظمهم إلى مؤخرته. لم يبد عليه أى رد فعل أو انزعاج، لم يبادر بشكوى أو تلميحة، إنه قليل الحديث إلى قدماء العاملين، سره كله مع فريح أقرب الناس إليه.

من رشحه لهذا الموقع المهم؟

أهى الجلاديوس؟

يظن كثيرون أنه سيطاح به عند أول تغيير، إن توليه المنصب خطأ سيتم

العدول عنه قريبًا، لكن النمرسى على عكس الجميع، على يقين أن فيروز جاء ليبقى، لم يعرف معظمهم بمشاريعه الثلاثة التى يؤمن كل منها استمراره على الأقل عشر سنوات فى موقعه، إن لم يصعد إلى أعلى!

هل يصبح فيروز بحرى سيد الطابق الثانى عشر يومًا؟

ليس ذلك بمستحيل طبقًا لما يجرى الآن. أين الحاضر من الماضى؟ عندما كان يتم استطلاع آراء العاملين خفية قبل اتخاذ القرارات الحساسة، أكد ذلك خبراء متخصصون تلقوا دراسات مكثفة فى ألمانيا الشرقية قاموا على مدى سنوات بمهمتهم خير قيام، مخلصين، مجدين، لم يراعوا إلا مصلحة المؤسسة واعتباراتها العليا، لكن الأوضاع التى كانت تبدو راسخة أبدية لا تستمر، فى مرحلة معينة تتحلل، تندثر، لو عاد هؤلاء المتخصصون إلى ممارسة مهامهم، ماذا ستحوى تقاريرهم؟ الطريف أن بعض القدامى منهم يتبعون الآن فيروز!

ذكر مثل هذه المجريات الآن يقترن بالسخرية، القرارات تصدر وكفى، لا مقدمات ولا مبررات ولا أهمية لردود الفعل، بل يثق أن سيادته يتعمد منذ توليه المسئولية ردع الطوابق الأخرى، والقطاعات المختلفة بالإحباط المقصود، المخطط، هدفه إفهام الجميع أنه لا فائدة من تذمرهم أو ضيقهم بهذا أو ذاك، المهم ما يقرره سيادته، ما يصدر عن الطابق الرئاسى، ولهذا تفصيل يطول. المحصلة أن الكل يدركون الآن. . لا فائدة من تذمرهم أو ضيقهم بهذا أو ذاك، المهم ما يقرره سيادته، المحبط لا يتطلع إلى أبعد مما يرى تحت قدميه، لا يفكر فى تغيير هذا أو ذاك، بل يتمنى بقاء الأوضاع كما هى خشية مجىء الأسوأ، هذا ما بدأ كثيرون يقتنعون به، إنه استقرار التدهور.

لو اطلع بعض من يثقون به على قلقه وضيقه لتساءلوا بدهشة، لماذا تشغل بالك؟ هل أنت أكثر حرصًا من سادة الطابق الثانى عشر؟ هل ستواجه هذا كله بمفردك؟

منطق فى مواجهة غياب المنطق. .

لكنه مهموم، كدر، يكاد يرى مسارًا جديدًا، غريبًا، غير متسق مع الفائت كله، لا يتعلق بأفراد، ثمة حالة، ليس استقرار الجلاديوس وتمكن فيروز إلا أعراض.

من يخطط؟

من يقرر؟

التحديد صعب، كثير مما يجرى غريب، شاذ عن كل مألوف ومع ذلك يتم، يتقبله الجميع وكأنه أمر مفروغ منه، يحاول إدراك ما يستعصى عليه، لكن مفاجآت فيروز لا تدع له فرصة. .

إقصـــــاء

اتصال من فريح قته بزهران الحسنى.

«تفضل دقيقة..»

«أين؟»

«فى مكتبى المجاور لمكتب الرئيس..»

«أى رئيس؟»

«رئيس القطاع طبعًا..»

هذا جديد، لم ينطق أحد بلفظ رئيس إلا وقصد سيد الطابق الثانى عشر، أى المهيمن على المؤسسة بكامل تكوينها، من أطلق عليه الصفة؟ أهو جهل المساعد المليح المقرب؟ أم أنه أحد أشكال المساندة، يؤكد الجميع إنها الجلاديوس، اهتمت به منذ صعوده المفاجئ للجميع، توليه ثقتها، وتسمع منه، تنقل عنه إلى سيادته، إنه وسيم، ذكى، له شأن عند الأجانب لطول تعامله معهم.

الزواج منه يحقق أبعادًا عديدة، سيكون مشغولاً بإرضاء رغباته، وتنطلق هى. لن يكون إلا مجرد غطاء اجتماعى، إنها لا تطيق الرجال،

ولا تتصور تمدد أحدهم إلى جوارها وتردد أنفاسه التى يمكن أن تنقلب إلى شخير، إنه ناعم، قريب منها فى الطباع وهذا ما حببه إليها، لكن . . يؤكد البعض أن أمثاله لهم قوة استثنائية .

كلام كثير يتردد همسًا وعلانية، لا يدرى الصحيح منه أو الكاذب، الاستدعاء متوقع، لم يباغته، لم يدهش أيضًا لأن فريح هو الذى أبلغه، لا يجرؤ الآن على مواجهته، صحيح أنه فاجر، لكن . . ربما يمنعه حياء بسبب المدة الطويلة التى عمل خلالها مرءوسًا له .

تطلع إلى باب الغرفة التى تم تجهيزها على عجل .

«المستشار الفنى . . »

أبدى ودًا، كان يتمهل عند نطقه الكلمات محاولاً إضفاء الوقار على حركاته، لا يتناسب المنصب مع غلاميته البادية وصغر سنه، لاحظ أنه يرتدى حلة كاملة ورباط عنق، لم يره من قبل إلا فى ملابس مهملة، متهدلة، معظمها كاكى اللون، شعره منكوش، ولحيته غير حليقة، عكس ما يبدو عليه الآن، سبحان مغير الأحوال، هل يتبدل الإنسان مع الصعود إلى المنصب بهذه السرعة؟

«زهران بك، تقديراً من المؤسسة لخبرتك وعطائك تقرر إسناد فرع الجيزة إليك . . »

الجيزة؟

خشى النقل إلى محافظة أبعد، أسرته فى حاجة إلى قربه منها، خاصة ابنته التى تستعد لامتحان الثانوية العامة بعد شهور، تكلفه الكثير من أجل الدروس الخصوصية .

عادة لا يؤخذ رأى العاملين فى الأماكن التى ينقلون إليها، أحيانًا يتم الإبعاد من المقر باعتباره عقوبة حتى لو تمت ترقية، وكلما نأى المكان عن العاصمة اشتدت العقوبة وتعاظم الغضب.

تطلع بهدوء إلى فريح، احتفظ بملامحه جامدة، حرص على ألا تعكس أى ملمح ينم على ما يدور داخله. ها هو مضطر لإظهار الطاعة والاحترام لمن كان لا يجرؤ قبل أسبوع واحد على طلب مقابلته، من كان يقترض بالعشرة قروش من السعاة والعمال، ويبحث عن المداخل الملائمة لغواية بعضهم..

«إننى خادم للمؤسسة فى أى موقع..»

يعرف أن فيروز سيسأل عن كيفية تلقيه الخبر، أى مشاعر أبداها؟ عن الكلمات التى نطق بها؟

طوال عمر فيروز فى الفرع الساحلى كان يتبعه مباشرة، إذ تتصل الإدارة هناك بالمركز الذى أنشأه منذ خمسة عشر عامًا، درب العاملين به وأشرف على تطويره، إنه أهم مركز مختص الآن بمتابعة مسارات البث الإذاعى والتليفزيونى الخارجى لحظة عبوره البحر إلى البر، من سائر الجهات لتحديد القنوات والترددات، والتنسيق مع الهيئات الدولية المعنية.

آخر ما وصل إليه فيروز شغله الدرجة الأولى العادية، لم يصل الفئة الممتازة منها، تجاوز سائر القواعد والأعراف إلى موقع قائد القطاع، والآن يصفه تابعه بالرئيس، ليس بعيدًا ذلك اليوم الذى يصبح فيه فيروز سيد الطابق الثانى عشر، خبراء النصوص والمفسرون قالوا إن شغل

هـذه المـواقع من الأمـور السـيادية، والإقدام عليها لا يتم إلا بالتنسيق مع القيادة.

خلال مـدة فيروز الساحلية أصبح على اتصال وثيق بأجـهزة الأمن الحدودية، المؤكد أنه صار جزءًا منها، تلك جهات ذات أهمية استثنائية، لا يمكن تصعيد أى شخص إلا إذا كان موثوقًا به، معتمدًا منها، إذا لم يكن ذا علاقة مباشرة فلابد من استطلاع آرائها. أى مسئول يشغل أحد المناصب العليا الاثنى عشر لابد أن يؤمن جانبه، عنده مطاوعة، سيادته حاز الكمال من هذه الناحية، كأنه ولد فى أحد الأجهزة شديدة السرية، أمنى بطبعه وميوله، لا يظهر إلا نادرًا، كامن دائمًا، الكل يسعى إليه، ولا يقصد جهة ولا يطرق باب مسئول إلا فيما ندر، لا يدلى بتصريحات، لا يظهر فى أى برامج تليفزيونية أو إذاعية، لا محلية أو أجنبية.

غير أن لفيروز إمكانيات أخرى، أنه لطيف الهيئة، خالص البذل لكل ذى مسئولية، زهران نفسه أول من خبر ذلك عند زياراته المفاجئة أو المعلنة للفرع الساحلى، دائمًا وجده على رصيف القطار فى انتظاره، أو عند محطة الحافلات المكيفة، رغم تردده على الإسكندرية مرات عديدة إلا أنه رآها من جديد بصحبته، كذلك خبايا الساحل الشمالى ودروبه، يعرف كيف يلاغى البطون.

لهواة الحمام المحشى بالفريك اللبانى أو السمان الطازج الموجود الآن على مدار السنة بعد نجاح المؤسسة فى إنشاء مزارع لتربيته قرب الساحل، لمن يهوى هذا، فليذهب.. إلى وكالة الليمون.

البليلة الدسمة الغارقة فى اللبن الطازج، المحلاة بالزبيب والبندق وعين الجمل وجوز الهند المبشور، إذن . . إلى مقهى جابر بالمنشية .

أما الفول فله أماكن عديدة، منها طبعًا مطعم محمد أحمد القريب من الرمل، لكن ثمة آخرين لا يعرفهم إلا أهالى المدينة يبذلون عناية خاصة به ويحرصون على تقديمه فى أحسن تكوين، أفضلهم وأقربهم إليه ناحية سيدى بشر، يضع أوانى المخلل من ليمون وزيتون ولفت وخيار وباذنجان وطماطم، كل حبة منها مشقوقة إلى نصفين، مغطاة بالبقدونس المهروس والكمون ومس من شطة وكثير من عصفر وحبهان ممزوج بمستكة هندية .

أما السمك فيعرف المحلات التى تبدو للجاهل متواضعة المظهر لكنها تقدم المقلى والمشوى والطواجن بإتقان سكندرى خاص، كثيرًا ما ردد على مسمعه أن السمك أفضل مع التلقائية . يفضل تناوله؛ حيث يمكن رؤية البحر، لذلك أعتاد صحبته إلى شواطىء أبو قير ورشيد؛ حيث مقاهى الصيادين ومطاعم بسيطة الأثاث، موائدها مغروسة فى الرمل، والموج يلاغى هذا ويداعب ذاك، مستوعب لمصطلحاتهم، عليم بما يسرهم وما يثير زهوهم، يعرفهم بأسمائهم، أحيانًا يبدو من النظرات والألفاظ المنطوقة أن ما بينهم يتجاوز الصحبة .

لم يستعد هذه التفاصيل إلا بعد سريان الهمس وكثرة الغمز واللمز بعد إعلانه رئيسًا للقطاع، مثلت أمامه بعض ملامح، وأصغى إلى ما احتفظت به الذاكرة من إيماءات أو تنويعات ذات دلالة .

يفيض بطاقة استثنائية عند أداء خدمة، بمجرد علمه حرصه على ارتداء أحذية إنجليزية الطراز، عرض عليه إمكانية الذهاب إلى رجل

يونانى من بقايا الجالية فى الثغر، دكانه فى شارع جانبى متفرع من طريق سعد زغلول، واجهته ضيقة، بدا كأنه يعرف الخواجة منذ ولادته، كل الأحذية صناعية يدوية، نفس الطراز الذى لا يتغير ولا يتبدل مع توالى الأزمنة، جلود أصلية مرنة، جيدة الصباغة، فى كل زيارة شتوية يمضى إلى اليونانى، يتطلع إليه الرجل مبتسمًا، يتفق معه على تفصيل ثلاثة أزواج، بنى وأسود وياقوتى، إلى أن جاء اليوم الذى توقعه بخشية، أبدى حزنًا وقال لابن الراحل إنه لو علم لجاء مواسيًا، تحدث الابن بضيق عن الفرص التى أضاعها أبوه بسبب إخلاصه لتلك الحرفة التى لم تدر عليهم عائدًا كافيًا، كم من الأراضى عرضت عليه بأسعار رخيصة جدًا، لكنه رد السماسرة عنه خائبين، كان يفخر بزبائنه من الباشوات، وكبار الموظفين، وأدباء مشهورين، وسائر القناصل، وعدد من السفراء المعتمدين.

لم يتخيل نفسه ممارسًا لنشاط آخر إلا صناعة الأحذية، أو بتعبيره هو، نحتها، ما الفرق بينه وبين أى نحات شهير؟، إن مهمته أصعب، فالنحات يتعامل مع مادة صلبة يمكن تشكيلها، جرانيت، رخام، ديوريت، أما الجلد فمادة مراوغة، ملتبسة، المعادلة الصعبة التى عمل على تحقيقها، المواءمة بين صلابة الجلد وتطويعه للقدم بحيث يشعر الإنسان أنه يرتدى قماشًا من حرير.

نظرة وحيدة إلى الحذاء تكفى ليلم بكل شىء عن صاحبه، ليس ظاهره ومستواه الاجتماعى فقط، إنما دخائله ومزاجه أيضًا، بمجرد رؤيته فيروز يتهلل ويحاول الوقوف لمصافحته، لكن فيروز يبادر بالجلوس والتواصل معه على الفور، يصغى صامتًا إلى أشعار نظمها الرجال فى مقتبل عمره،

لكنه لم يستمر، يبدى فيروز إعجابه بالإيقاع الخاص باللغة اليونانية، خاصة جرسها، وكثيرًا ما يردد العجوز.

«والله أنت فى مقام ابنى. .»

أول مرة صحب زهران بك، أشار إليه

«أوصيك برئيسى المباشر. . لكنه قبل ذلك رجل طيب. .»

كان ابنه يقف عاقدًا يديه وراء ظهره، بدا ملولاً، غير راغب فى البقاء، تحدث عن تغير السوق، عن المنافسة غير المتكافئة بين المحلات الصغيرة والشركات الكبرى التى بدأ إنتاجها يغزو السوق، الماكينة الحديثة تنتج يوميًا مئات الأزواج، صحيح أنها ليست بنفس المتانة، لكنها أرخص، قال لو أن والده ادخر ما استثمره فى الصنعة لعادت عليه فائدة البنك بمبلغ أوفر وأكثر مما ربحه، لكنه أحب مهنته وتفنن فيها بعد شهرين أخبره فيروز بأسى عن توقف الشاب عن العمل.

بدأ يستعد للرحيل، عرض منتجات الشركات الجديدة فى الدكان، لكن زبونه القديم لم يقبل، والجديد لا يعرف طريقه إلى هذا المحل الصغير المتوارى، هاجر إلى اليونان، أرسل إلى فيروز بطاقة من فندق صغير بإحدى جزر بحر أيجه يعمل به، ثم انقطعت أخباره.

يذكر أسى فيروز؛ إذ يستعيد الرجل الكبير ويترحم عليه، أمثاله فى انحسار، الدنيا تتغير، والمؤسسة لا تقوم بواجبها تجاه هؤلاء النادرين، لو الأمر بيده لأقدم على شراء هذا المحل ودفع بمن يتعلم أصول الصنعة من اليونانى قبل رحيله.

زهران بك لم يكن أقل حزنًا، لكنه لم يفض إلى فيروز بدخائله، إنه

نظم أموره على عادات يصعب تغييرها، يشترى الصوف من معرض أحمد حلاوة بميدان العتبة، ويذهب به إلى خياط فى شارع عبد الخالق ثروت زبائنه من الوجهاء القدامى، الأدوية من صيدلية رقية بالغورية، قديمة فى موقعها، يكلفه الوصول إليها مشقة بعد تعاظم الزحام، لكنه لا يبدل ولا يتخلف، له أطباء على علاقة وثيقة به، أحدهم متخصص فى الأمراض الباطنية، آخر فى الأسنان، ثالث فى المسالك البولية، بدأ يتعامل مع الأخير بعد تجاوزه الخامسة والأربعين وبدء حصر البول وخروجه بصعوبة فى اتجاهين مع تزايد الطرطشة نتيجة تضخم الغدة الأمامية. وثق علاقاته بهم حتى يتجنب الانتظار فى العيادات، ويلقى رعاية.

الآن.. يستعيد كل التفاصيل عن فيروز، خاصة صلاته الحميمة بالخلق، الإسكافى اليونانى، ناظر محطة سيدى جابر، الجرسونات فى المقاهى، فى جميع الأحوال يفيض حيوية ومودة تجاه من يصحبه، ذات شتاء بارد، وتحت المطر الغزير اكتشف عند وصوله إلى الفندق نسيانه صابونة طبية يحرص على استخدامها عند نزوله الفنادق خشية العدوى من أغطية الأسرّة والمفروشات، أفضى بذلك إلى فيروز، بسرعة اتجه مشيًا وبدون مظلة إلى صيدلية قريبة ليأتى بالصابونة.

لا ينسى له ذلك.

وهل يغفل عن التقارير الإيجابية التى كتبها بعد عودته وإشادته به، والله.. لم يجامل، إنما وصف وقيم طبقًا لما رآه وعاينه، لم يأخذ بما نما إليه من شائعات عن صلات وثيقة بالعاملين فى الميناء من الصعايدة الذين جاءوا من الجنوب واستقروا فى الجمرك، يديرون شركات الشحن

والتفريغ، بعضهم بدءوا حمالين ثم تيسرت أحوالهم وصاروا أثرياء، يمتلكون العربات الفاخرة والعقارات، ويتصدرون مقاهى أفتتحوها يحيطهم الأعوان.

من خلال هؤلاء حصل على بضائع أجنبية لم تكن متاحة فى زمن الحكم الشمولى، مثل السجائر الأجنبية، والعطور، ومستحضرات التجميل والأدوية الفعالية المقوية للذكورة، والحلوى، والخمور بأنواعها، كذلك العلامات الشهيرة من الملابس الجاهزة، خاصة الفرنسية.

فيروز يعرف من يرفض ومن يقبل، لابد أنه وثق صلاته ومتن مكانته، من خلال هداياه، ومعرفة احتياجات المسئولين وتلبيتها، وتربيط هذا بذاك، لكن يظل أهم ملمح عنده ما يبديه من صادق الصحبة وموفور النشاط عند تأدية الخدمة، بالذات . . لكل من يشغل موقعًا يتصل به أو يؤثر على مساره.

أليس هو أحد الذين دفعوه وساعدوه؟ ألم يهرب منه بالوسائل نفسها، صحيح أنه لم يتلق رشاوى مادية مباشرة، لكن هذه الخدمات . . ماذا تعنى؟

على أى حال يثق زهران بك أن تقاريره لم تسهم فى دفع فيروز، إنما جرى ذلك لأسباب أخرى، أغرب ما نما إليه أن السبب الرئيسى مهارته فى لعب الشطرنج وقضاؤه أوقاتًا طويلة بصحبة المسئول المعنوى، للمنطقة الشمالية، كلاهما متقن، لكن يبدو أن ما جمعهما شىء أخر.

عندما صعد المسئول ليصبح مستشاراً من المقربين لسيادته أخذ فيروز معه، وهذا معروف، معمول به منذ زمن ليس بالقليل، حدث عن مهارته

وتدفقه وأفكاره الجديرة وجرأته التى لا تحد، ويقال إن سيادته أخرج بعض الصور من مظروف خاص، دفع بها أمام مسئول المنطقة مبتسمًا فقال هذا على الفور.

«ما يهمنا شغله . . ثم أن كل واحد حر فى نفسه طالما . .»

زهران بك يكره الغمز واللمز، إنه متقبل لما جرى، يعرف بخبرته الطويلة صعوبة العدول عن قرار علوى، لن يتم عزله قريبًا كما يتوقع ناقصو الخبرة، ثم إن اختياره ليس نتيجة سعى مسئول المنطقة الشمالية، وليس ثمرة خطأ، إنه مقصود، متسق مع فترة غريبة الملامح لا يدرى إلى أين ستؤدى؟

يعرف أيضًا وهو المخضرم، الخبير بالشئون أن التعاون بينهما وعر، قاس له الأحذية، واشترى له صابونة وحمل عنه الحقيبة، أصبح ِقه، يرأسه بعد أن كان مرءوسه.

يحمد الله أن نقله تم إلى الجيزة، لو دفع به إلى محافظة نائية لشقى وعانى كثيرًا، على أى حال، المكوث فى المقر الرئيسى لم يعد مغريًا، الأحوال تتبدل من سيىء إلى أسوأ. ما يتمناه أن تمضى أموره فى هدوء، حتى ينقضى ما بقى له من وقت، غير أن ما صدر عن حسن البوريمى بدا مغايرًا تمامًا لامتثال زهران بك الحسنى.

خادم الخبيئة

توصيفه المؤسسى «نائب رئيس القطاع». لكنه معروف بخادم الخبيئة أو القائم عليها أو حارسها، مثل خادم الضريح الحسينى أو الزينبى أو الأعتاب الشريفة، ثمة طبيعة مقدسة لا يمكن تعيينها أو تحديدها بدقة، ربما مصدرها الخبيئة ذاتها وما يحيط بها من غموض، لا أحد يعرف تمامًا محتواها أو مضمونها، كيفية حفظها والشروط الواجبة للاطلاع عليها وفض المغاليق الحافظة لها.

المعروف فى مجمله أن الخبيئة من أهم الركائز المؤسسية، ليس لعتاقتها وغموضها إنما لقيمتها المادية أيضًا التى تستعصى على أى محاولة للتحديد أو للتأطير، كما أنها موضع اهتمام الهيئات العلمية فى الغرب والشرق، والتجمعات الإقليمية من دول البينولكس إلى مجموعة الكوميسا، كل دولة فى العالم، كبيرة أو صغيرة يوجد فيها أقسام وإدارات تختص بفحص الخبيئة وتاريخها وطبيعتها، وثمة بحوث تجرى باستمرار لفض أسرارها والاطلاع على بعض من جوانبها التى ما تزال مجهولة. أما الكتب التى تدور حولها فتصدر بانتظام بجميع اللغات، وتلقى رواجًا من أدباء الروايات الشعبية والخيال العلمى، خاصة ما يتردد حول وجود جرام من الزئبق الأخضر يمكن أن يستخدم فى تصنيع مادة

تؤدى إلى تحلية مياه المحيطات والبحار، وصندوق صغير به مقدار من المادة المضادة اختلف القوم فى حجمه، ثمة من يقول مثل رأس الدبوس، وآخر يؤكد أنها تماثل طائرة ذات أربعة محركات، لكن فى كل الأحوال لوفضت الطبقات الحافظة لها وجرى احتكاك مباشر بينها وبين المادة المحيطة فسيفنى الكوكب ومن يجاوره.

الأمر غامض، وحتى خادم الخبيئة غير ملم بالموجود أو طبيعته، إنه حافظ للأختام، مطلع على ما يحول دون دخول أى شخص غريب ليبعث فيما ليس له دراية به.

خادم الخبيئة ينوب عن رئيس قطاع الفيوضات المسئول عنها رسميًا، لكنها مسئولية إسمية، إنه همزة وصل بين الخادم والطابق الثانى عشر، ينقل الملاحظات، يحصل على الموافقات، يمرر الاتفاقيات، يوفر الاحتياجات.

إذن.. يعتبر الخادم من الناحية الفعلية هو المسئول الحقيقى والمتولى على سائر الحقائق، مهمته الأولى التأكد من صحة الأختام وعدم العبث بها، خاصة تلك المؤدية إلى الدهليز الرئيسى الذى يبدو منه الدرج المؤدى إلى البهو الأعظم غريب التكوين والتصميم، منه تبدأ الممرات الثمانية المؤدية إلى البهو الثانى ومساحته أقل، مربع، فى كل ضلع بوابة تؤدى إلى درج مائل يقتضى قطعه نزولا أو صعوداً جلداً وإمكانية، تفضى جميعها إلى البهو الثالث حيث باب واحد يفتح بإشارات معينة من الأصابع تعد من الأسرار العليا للمؤسسة. يفضى إلى باب ثان يفتح بأصوات ثلاث، يليه ممر لابد أن يحبو فيه الإنسان على أربع يؤدى إلى فتحة دائرية داخلها درج من معدن، عند نهايته موقع الخبيئة.

حسن البوريمى يتولى المسئولية منذ ثلاثين عامًا وبضعة شهور، أخذ التلقين عن عطية بك قبل ارتكابه واقعة القفلة المرورية والتى أنهت أيامه ودوره، ويقال إن هناك شخصًا آخر حفظ التلقين أيضًا على سبيل الاحتياط لكنه غير معروف إلا لسيد الطابق الثانى عشر، لذلك يظل اسمه موضع تخمين باستمرار، لكن المعروف، الذائع أمره فى حدود هو البوريمى.

موقعه غرفة صغيرة لا منافذ بها بالطابق الأول تحت الأرض، فى موضع منها غير ظاهر للناظر العابر أو المدقق خزانة تحوى نصوص التلقين مكتوبة بطريقة معينة لا يفهمها ولا يفك مغاليقها إلا شخصان، كلاهما لا يعرف الآخر، والبوريمى نفسه يجهلها، هكذا قيل له، والهدف من التدوين الخشية من حدوث مكروه له ولقرينه الذى لا يعرفه فى وقت واحد.

حتى الآن يعتبره بعض القدامى غريبًا رغم مسئوليته الدقيقة، الحرجة، رغم العمر الذى أمضاه فى الخدمة. السبب.. ميلاده فى أرض بعيدة وقضاء صباه المبكر هناك. أبوه مدرس لغة عربية، تقرر إعارته للعمل فى واحة البوريمى التى تقع على الحدود السعودية ـ العمانية. جرى ذلك فى الأربعينيات، عندما كان المدرسون المصريون يذهبون إلى الأقاصى العربية للتعليم، ويقبضون مرتباتهم من الوزارة فى القاهرة، كان المؤسس ـ رحمه الله ـ يدعم ذلك ويؤازره، ليس معنويًا فقط، إنما ماديًا، تبرعات منتظمة من صافى الأرباح، كثيرًا ما ردد: هذا عين السياسة، عندما بدأ النزاع المعروف بين سلطنة عمان والمملكة السعودية حول الواحة عاد الأب مع أسرته، امرأته وطفلين، أحدهما ولد فى مصر

والثانى فى الواحة، أبوه سماه حسن البوريمى. لكن المعمرون يقولون إن شهادة ميلاده ليس فيها إلا حسن أما نسبته إلى الواحة فبدأت بعد أن أطلع الجواهرى على مكان ميلاده وأصبح اللقب جزءاً من اسمه، ولا يعرف إلا به، وربما كانت نشأته هناك وراء خبرته الدقيقة بالبلح ومعرفته بأنواعه، الطازج منها والمحفوظ المجفف، صلته وثيقة بكبار تجاره، سواء القادمين عبر درب الأربعين من السودان أو من الصعيد الأعلى عن طريق النهر إلى ساحل روض الفرج حيث سوق الجملة، دائم الزيارة إلى أربع نخلات نادرة، أهداها حاكم جزر المالديف إلى محمد على باشا، غرسها عند طرف جزيرة يبدأ منها فرعا النيل، دمياط ورشيد، حباتها صفراء، شفافة، مذاقها سكرى، تذوب بمجرد وضعها فى الفم، على الفور يسرى مذاق نادر.

له أربع زيارات فى السنة، عند مطلع كل فصل، يحرص على الاقتراب منفرداً، متمهلاً، ينطق بالسلام، ويؤكد سكان الناحية أن النخيل يرد عليه، وتنحنى جذوعها، تلمسه فيما يشبه التقبيل رداً على لثمه وتمرير أصابعه بخفة وحرص على الحراشف. لديه قدرة فريدة ومهارة خاصة على تسلق كل منها، يربط خصره بحبل وفى ثوان يصبح قريباً من السعف، يقص الزائد، يقلم الهائش منه، أو ينقل حبوب اللقاح من الذكر إلى الأنثى، النخلات الأربع، ثلاث إناث وذكر، لحظة قيامه بذلك يجد نشوة لا مثيل لها، حتى أن عطية بك شنع عليه، أن النخلات يأخذن اللقاح منه هو.

فى ظروف ما، آلت ملكية النخيل إلى المؤسس بعد عزل الملك ويبدو أن أحد ثوار يوليو قدمه هدية مقابل أمر غير معروف قام به، وبالتالى

انتقلت تبعيتهم إلى المؤسسة بعد التأميمات الكبرى، وتقرر ضمهم إلى قطاع الفيوضات والخبرة البوريمى بالبلح اعتبر مسئولاً. يشرف على جنى المحصول بنفسه، يقوم بتقسيمه، لا يساعده أحد، بعد وضعها فى قفف صغيرة يرسلها إلى الطابق الرئاسى، تهدى إلى الشخصيات المهمة وبعضها يقدم إلى الرؤساء والملوك فى المآدب الشرفية، رغم ندرته ودوره فى الحفاظ على النخلات والعناية بها وتجهيزه، إلا أنه لم يقتطع لنفسه نصيبًا قط، يكفيه تذوق بلحة واحدة فقط أول الطرح، أما البلح المفضل عنده والذى يسعى إليه فيجىء من بعيد، من واحة تقع على حافة بحر الرمال الأعظم جنوب الجزائر، نوع يعرف بدفلى نور تختص به تلك المنطقة ولا ينبت فى غيرها، دفلى نور الجزائرى بالتحديد، إذ يطلق الاسم على بلح آخر فى تونس لكنه لا يرقى.

بلح رشيق، ضامر، شفاف حتى يمكن اعتبار الواحدة منه مشعة للضوء الكهرمانى تبدو النواة راقدة فى العمق، غامقة قليلة، المذاق عميق الحلاوة، أما إذا وصل متصل بالسوباط فإنه الطلاوة عينها. تعرف إلى ثلاثة جزائريين من أبناء غرداية، وثق علاقته بهم أثناء دراستهم بالأزهر، فى أول الموسم يرسلون إليه النوع الذى لا مثيل له كما يؤكد.

فى السنوات الأخيرة بدا مهمومًا لمن رآه، ليس لانقطاع الدفلى نور عنه بعد بدء الاضطرابات فى الجزائر إنما للتبدل الذى وقع فى الطابق الرئاسى، لم يعد أحد يهتم بالنخلات الأربع، حتى أنه كان يهدى المحصول إلى بعض القيادات المتوسطة، وفى مرة قدم قفة إلى عم شرف السائق قبل أن يجرى له ما جرى.

لم يقل الاهتمام بالنخلات فقط، إنما امتد ذلك إلى الخبيئة، وراجت إشاعات تؤكد أن الأمر كله وهمى، وأن الدهاليز والقاعات والممرات المنحدرة لا تفضى إلى شيء، الخبيئة تبددت منذ قرون عدة قبل نشأة المؤسسة بزمن، وما الأمر إلا تدبير من عطية بك لإضفاء قيمة استثنائية على الكيان كله.

هراء.. كلام خطير ربما يمهد لأمر شنيع، ما يقضه أنه على وشك التقاعد بدون أن يفضى بالأسرار إلى من يتولى الصيانة والحفظ بعده، لا أحد يسأله التمام، من يحفظ الأمر بعده؟ من؟ ماذا لو قضى فجأة؟

يرتعد هلعا، إنه لا يعرف الأجيال الجديدة من العاملين، معزول بعيداً، الملامح كلها غريبة، من يليق بالسر الأعظم؟، لم يثق إلا بعم شرف، طلب منه ترشيح من يصلح له، كان على وشك الإفضاء بعدد من الأسماء لكنه تخشب وفقد النطق، لا هو بالحى ولا بالميت الآن.

رغم موقعه التحتى وعزلته التى فرضها على نفسه بمحض إرادته، إلا إنه وثيق الصلة بالطوابق العليا، بشكل ما ملم بأخبارها، مطلع على القرارات العلنية، حتى ما يتردد خفية، ربما لصلاته الوثيقة بقدامى العاملين، فى ذروة قلقة على الخبيئة وما ستصير إليه، جاءته الأخبار بتولى فيروز، دهش كثيرون عندما فوجئوا به يتوسط المدخل التاريخى للمقر، يصيح بصوت مشروخ، حزين، باك..

«كله إلا هذا اللوطى»

اندفع إليه رجال المكتب الأمامى، تبعهم حراس الأمن الخاص، متأهبين لإبداء القوة العضلية.

«أهدأ يا بوريمى..»

غير أن صوته ازداد حدة، تصلب جسده، بدأ يصف فيروز بنعوت قبيحة، يرعش الوسطى فى اتجاهات مختلفة، عندئذ اضطر الحراس إلى حمله ودفعه إلى مدخل الدهليز.

«خربوها.. خربوها..»

بعد تواريه عن الأنظار، واختفاء، صوته، شوهد الطبيب المناوب يتقدم التمورجى الذى حمل حقيبة الطوارىء.

ما أقدم عليه البوريمى سرى فى الطوابق وتعداها إلى الفروع الرئيسية وجرت اتصالات مكثفة لمنع نشر الخبر فى الصحف المناوئة أو الفضائحية الباحثة عن زيادة التوزيع، لكن الواقعة بلغت المكاتب والوكالات الأجنبية العاملة والمتابعة لأمور المؤسسة باعتبارها وثيقة الصلة بالأحوال الاقتصادية والعامة على مختلف المستويات.

لم يتأخر رد فعل الطابق الرئاسى، ظهرت الجلاديوس على الشاشات الداخلية، وتردد صوتها فى الفروع كافة، أشارت إلى بعض الأخطاء التى يقدم عليها البعض نتيجة خلط العام بالخاص، عندما يحيدون عن الثوابت، طبعًا لم تحدد، لكن القصد بدا واضحًا.

بمجرد انتهائها، بدأ رؤساء القطاعات والفروع والأقسام فى الإعلان عن استنكارهم، عزب الميدومى أعلن منفعلاً..

«لا . . لا . . تسيب غير مقبول . .»

صاح رئيس القطاع الخارجى

«ماذا حرك سكان القبور؟»

اتفق الجميع رؤساء ومرءوسون على توقيع مذكرة علنية تستنكر ما جرى، وتطالب بتوقيع العقاب الصارم على أى شخص يخل بثوابت المؤسسة، ويقدم للجهات المناوئة مواد جاهزة للدعاية السوداء .

تسابق الجميع إلى التوقيع، الوحيد الذى امتنع النمرسى، لم يكتف بإعلان موقفه المغاير فقط، إنما قال إن البوريمى يجب ألا يواجه هكذا، إنه مسئول عن الخبيئة، عن أثمن ما يجعل للمؤسسة قيمة خاصة فى عصر الكيانات العظمى المتشابهة، والإساءة إليه أمر له عواقب، هل فكر أحد فى مصير الخبيئة إذا جرى لهذا الإنسان مكروه؟

قال النمرسى إنه من الضرورى تفهم حالته والبحث فى دوافعها والإصغاء إليه .

تطلع بحدة إلى عزب الميدومى مما اضطره إلى خفض بصره، النمرسى عليم بالموقف الحقيقى له، واتصاله به للتنسيق لم يبرد بعد .

بمجرد انفراده رن جرس الهاتف الأحمر، متصل بالطابق الرئاسى مباشرة، لم يتراجع إزاء مطالبة الجلاديوس بتوقيعه صراحة . جاد لها مستمتعًا بصوتها، بل إن خاطرا راوده : ماذا لو بدأ شغله عليها؟ ماذا لو بدأ بتلمس أحوالها واستكشاف ثغراتها، إنه تواق إلى معرفة سرها، لنفسه أولا، كيف تمكنت من سيادته، هو الملول، سريع الضجر . .

قال إنه يشكر للبوريمى تلك الفرصة النادرة لسماع صوتها، ويتمنى أن تكتمل فرحته برؤيتها، لكنه مصر على موقفه، بل يقول لها ما لم يبح به لزملائه، البوريمى محق فيما قاله، لكنه لا يتفق معه فى عصبيته عندئذ تنعم صوتها أكثر.

«حتى لو عرفت أن سيادته فى هذه اللحظة يصحب فيروز بك لزيارة مدخل الخبيئة؟ !»

جاء رد فعله مباشراً، صريحاً، غير وجل..

«خبر أسوأ..»

تطوير مالا يطور

كلما خيل للنمرسى أنه اكتفى من العجب أتاه الواقع بجديد، هل يمت إلى تكوين لم يعد ملائمًا له؟

ماذا يجرى؟

هل يحل الأوان الذى يشعر فيه بالغربة؟ أنه مقصى، مستبعد؟ والأدهى أن يشعر بالدهشة وأن يفاجأ هو الذى رأى من أدق الأمور ما يذهل عقل اللبيب؟

فى ظهور علنى نادر، نزل سيادته مصطحبًا فيروز وفريح قته إلى الطابق الأول ثم اتجه مباشرة إلى تحت الأرض، حيث مكتب البوريمى والمدخل المؤدى إلى حيث الخبيئة.

تفقد المكان، بدا صامتًا لكنه صار إلى تجهم وانقباض، وأبدى فيروز لهمة إذ يتقدمه حينًا أو يتأخر خطوة أو يشير إلى ركن مظلم أو موضع مهمل، قال أكثر من مرة إن المؤسسة ترقد على مستودع قمامة بحجة الخبيئة، وأن البوريمى أساء الثقة الممنوحة له، واستخدم المدخل المقدس أسوأ استخدام، وأن بقايا أرغفة الفول والطعمية تكاد أن تزكم الأنوف وتهدد بانتشار وباء نقص المناعة الذهنى.

عندما لمح التجهم يتحول إلى غضب، ألمح إلى مشروع التطوير، لحظة تساؤل سيادته أشار إلى فريح الذى كان يحمل ملفًا جاهزًا، ليس بالتفاصيل المكتوبة فقط. إنما بالرسوم والخرائط التى أعدها مكتب استشارى هندسى دولى، متعدد الجنسيات مقره فى مدينة أخن الهولندية.

يعنى هذا أن الأمر مدبر، مخطط له من جانب فيروز، ربما قبل صدور القرار بتعيينه رئيسا للقطاع، بل أن النمرسى بخبرته الطويلة فى تحليل النساء ورصد المداخل إليهن لم يستبعد أن تكون جهة ما أعدت فيروز لمثل هذا اليوم خلال مدد عمله بالخارج، وأن تصعيده لم يكن صدفة، أما الهدف الحقيقى من قدومه فيكمن هناك، تحت، فى الخبيئة، إنها هدف ثمين، تاريخى، تعددت المحاولات للوصول إليه، جرى الأمر فى صمت، لكن كل المحاولات صدت بفضل مضمون قديم جسده البوريمى وأتقنه وحافظ عليه.

لم تعلن تفاصيل التطوير المحتمل، لكنه طبقًا لما وصل إلى النمرسى، يتضمن الاستفادة من الخبيئة على مستويات مختلفة بدءًا من السياحة إلى العلوم، يكتمل المشروع خلال سبع سنوات.

مشروع آخر يثبت به نفسه لعدة أعوام قادمة، ومن يدرى؟

النمرسى يتوقف أمام الطريقة التى قدم بها صاحبه، تعمد أن يشرح فريح المشروع، وخلال ذلك قدم نفسه إلى سيادته، ويبدو أنه لاقى قبولاً، إذا استفسر عن مؤهله وخبرته والجهات التى عمل بها والبلد التى ولد بها، والجهة التى يقيم بها، النمرسى معجب بذكاء فيروز، بالطريقة التى قدم بها صاحبه، تبدو عادية جداً، بل إنها تثير الإعجاب،

فهو لا يستأثر بكل شىء لنفسه رغم ندرة الفرص التى تجمع سيادته بأحد المسئولين مهما كان مستواهم وعلوهم فى المناصب .

مساء اليوم نفسه صدر قرار علوى بتعيين فريح قته مكان البوريمى مع تغيير اسم الوظيفة إلى أمين عام الخبيئة وأن يتم التنفيذ من لحظة إذاعة القرار على الشبكة المؤسسية ، المسموعة والمرئية .

أثار ذلك دهشة العاملين ، أن تغيير المسئول عن الخبيئة ليس بالأمر الهين ، معظم القدامى كان يقلقهم عدم وجود معاون للبوريمى ، عد ذلك من السيئات والمسالب خلال المرحلة الأخيرة ، فكيف يتم إقصاء الرجل بسهولة هكذا ، ومجىء فريح ، الغلام صغير السن ، الخلو من التجربة ، والجاهل بأسرار فض المغاليق ، وأبواب الدهاليز والممرات ، بل إنه لا يعرف محتوى الخبيئة أصلاً وكيفية الاقتراب منها أو التعامل معها أو فك الشفرات الخاصة بها .

غير أن توضيحات مضادة لكافة ما تردد أشرفت الجلاديوس بنفسها على بثها فى المقر والفروع ، التزم فيروز بفك كافة الشفرات المتصلة بأبواب الخبيئة والمنافذ المؤدية إليها ، ويشمل ذلك العلامات اليدوية ، والصوتية المرتبطة بحنجرة البوريمى ، أكد أن العلم الحديث تقدم إلى درجة لا يتصورها من يجهلها ، هناك حواسب آليه يمكنها فك أعقد الطلاسم ، وأنظمة تأمين حديثة آن لها أن تدخل الخدمة فيما يتعلق بالركائز الأساسية ، أما عن استثمار الخبيئة فأمر سيعرف القوم أهميته عندما يجدون مستويات دخولهم مرتفعة إلى حد الضعف ، أما فرص العمل التى ستوجد لأبناء العاملين وأقاربهم فلا حدود لها ، لسنوات طويلة يتحدث الجميع عن الخبيئة ، عن أهميتها بالنسبة للكافة ، لكن . .

هل فكر أحد فى توصيفها؟ فى تقييم مكانتها؟ فى تفسير مضامينها؟ ، لكن . . الأهم من هذا كله الاستفادة منها ، وإذا كان العالم مهتم بها ، أليس جديراً بأصحابها أن يلموا بها وأن يتعرفوا عليها وأن يتميزوا بها وأن يكسبوا منها .

لكن . .

هل يليق فريح قته بالخبيثة؟

ولماذا لا ؟

الفرص يجب أن تعطى للشباب المتطور والعقليات الجديدة؟

إذن . . لماذا لا يسرى ذلك على الجميع؟ هناك من تحنطوا فى مواقعهم وبعضهم تجاوز الحد التقاعدى المقرر ، لكن سيادته أبقاهم على رأس القطاعات المهمة .

وكلما أثير ذلك همسًا ، تبث الردود المضادة ، مضمونها يؤكد على أهمية الاستقرار المؤسسى ، العبرة بالسياسات وليس الشخصيات لكن ما يتردد خفية يكاد يتشابه :

شاب يافع بلا خبرة فى هذا الموقع المهم ، بينما يستقر معمرون منذ سنوات ، كيف يستقيم ذلك؟

بعض رؤساء القطاعات فى مواقعهم قبل تولى سيادته ، بل إن المتقدمين فى العمر يعسر عليهم تعيين المراحل التى بدءوا فيها ، وبعد أن نشرت تفاصيل عديدة عن استنساخ النعجة دوللى ، أكد بعضهم أن سيادته تعاقد مع بعض المتخصصين فى العلم الجديد لاستنساخ عدد من

الشخصيات التى يتمسك ببقائها. وأكد آخرون أن بعضهم مات بالفعل منذ سنوات وهم ما يزالون على مقاعدهم بعد تحنيطهم فى وضعيات معينة، فهذا يمسك سماعة الهاتف، وذاك يوقع بقلم حبر، وآخر يسند رأسه إلى راحة يده مستغرقًا، لو دفعهم صبى بأصبعه لسقطوا وانكشف أمرهم.

بعضهم أكد بحث سيادته عن شبيه لكل مسئول انتهى عمره الافتراضى وبلغ الحد التقاعدى، وتوليته، الدليل ذلك الخلط والاضطراب الذى يبدو من بعضهم فجأة مما يعكس أطواراً غريبة تنم عن مبتدئين وليس ناس ذوى خبرة وعتاقة.

قلة أكثر جرأة أكدت أن الملل الوحيد الذى يصيبه من الإناث، لكن ظهور الجلاديوس بدل وغير، أنها راسخة، جاثمة، متمكنة، حتى أن المنفذ المضمون إليه صار من خلالها وليس عبر زوجته الشكلى، الغارقة فى وحدتها، والمتصل بها عزب الميدومى لا غير.

أما ثبات يثير اليأس ويبث الإحباط، أو تغيير مباغت، غير متوقع، مثل مجيىء فيروز وما صحبه، وما يتبعه الآن من تداعيات لا يدرى أحد إلى أين ستؤدى بالضبط؟

ما أن فرغ من رصد المتغيرات المصاحبة لتولى فريح قته أمانة الخبيئة، حتى فوجىء بظهور الثلاثة.

لم يلحظ التماثل والتطابق فى القوام بين فيروز وفريح إذ أن الأخير أقصر قليلا، لكن ملامح الهيكل والهيئة واحد، لكن عندما ظهر الثلاثة لوحظ الأمر ورصده كثيرون. لم يستغرق النمرسى وقتًا طويلاً حتى تأكد

أن فيـروز يهيم بالسـمات التى تجـمعـهم، ذلك النحول مع ضـمور الأرداف، واتسـاع مـا بين المنكبين. أمـا مـا يفـقـده وعيـه ويدفع بـه إلى الحماقـات فرؤيته ذكراً نوبيًـا نحيلاً، طويلاً، مـفلفل الشعر، مستوى الشفتين، واسع العينين، دقيق الطبع، هفهافًا.

ألم النمرسى بواقعة معروفة يرددها قطاع التمثيل الخارجى، إذ حدث أن وصل إلى طوكيو لمهمة ما، أقامت المفوضية التجارية حفل استقبال، وفيه رأى الطباخ النوبى، كان شابا يمت بقرابة إلى عم صديق الذى شرف بخدمة المؤسس، ورفض تقديم القـهوة إلى خلفه، تحمل من أجل ذلك الكثير، والأمر معروف، كـان المؤسس لا يثق إلا بهـؤلاء القـادمين من منطقة الكنـوز القـديمة التى أغرقتها مياه السد العـالى. ارتاح إليهم، وثق فى أمـانتـهم وتحضـرهم، لذلك اسـتعـان بهـم فى مـسـتـويات مختلفة، بالادارة، وكسائقين وطباخين، ليس فى المقر، لكن فى جميع الفروع الخارجية.

عندما لمح فيروز ذلك الشاب أصابه مس، غـاب عما حوله، لم يعد يجيب على محدثيه والمرحبين به إلا بإيماءات وهمهمات، بينما بصره يلاحق الشاب الذى كان يتنقل حاملاً صينية المشروبات، خطاه، ميله، اعتداله، إيماءاته، كأنه مصدر أنغام أو مدخل حديقة، سعى إليه، لم يعبأ بمن تطلعوا إليه أو لاحظوا أندفاعاته نحوه، لم يعد يرى إلاه، وجوده ألغى جميع الموجودات، من إقـامـتـه أيامًا من أجله، ويقسم رئيس المفوضية أنه خلا به وانفرد.

فى طوكيو بذل فيروز جهداً جهيداً لأنه كـان بمفرده، لو أن فـريح بصحبته لناب عنه وسعى.

من هنا أدرك النمرسى أهمية فريح قته وحساسية صلته بفيروز، إنهما رفيقان، قريبان، يفهم كل منهما الآخر ويعمل على راحة صاحبه، ليس من خلال علاقتهما الحميمة فتلك أصبحت عنصراً ثابتًا لا يميل ولا يهتز، لكن كل منهما امتداد مكمل للآخر. موقع فريح لا ينافس ولا يمكن أن يدنو منه أحد، حتى لو اختلفا وانقطع أحدهما عن الآخر، وفى لحظة معينة يقوم فريح بمهام تشبه سعى النمرسى، لكن فريح يبذل الجهد لتقريب ذكر من ذكر وليس أنثى من رجل، وهذا باب غريب على النمرسى، يتطلع إليه بفضول وتبرم، لم يتقدم لأداء مهمة مشابهة إلا مرة واحدة خلال عمره المديد، صدر إليه الأمر العلوى بتدبير ذلك الصبى لشيخ عربى، كانت الصلة به حيوية لصالح بعض القطاعات فى ذلك الوقت.

لن يتوقف الواقع عن مفاجآت باستمرار، يبدو أن فيروز وصاحبه سيصبحا مصدراً للمفاجآت ولكل ما هو مثير، وأن ترسخ لديه يقين لا يدرى منبعه أن كليهما بداية لظروف مغايرة، تختلف تماما عن كل ما جرى فى الماضى القريب أو البعيد، يمضى فيروز إلى مكانة أكبر مما يظن البعض، إلى موقع سديد، أما الهمس الدائر الآن حول خطأ وقع أدى إلى المجىء به، إصلاحه والعدول عنه مسألة وقت لن يطول.

كلام فارغ!

فيروز باق وفريح متمكن. كل الإشارات تؤكد ذلك، مفارقة سيادته للطابق الرئاسى ليس لرد اعتبار نتيجة ما صدر عن البوريمى، إنها مؤازرة لا تخفى، مساندة مؤكدة، كانت مقررة قبل أنفلات البوريمى.

إنهم خمسة الآن، ظهور هؤلاء الثلاثة المفاجىء. اجتازوا البوابة

الرئيسية فى أول دخول لهم كعاملين وليس زائرين، أبرزوا التصاريح المعدة سلفا، متى تسلموها؟ لا أحد يعرف!

خطوا بثقة، لم يضلوا طريقهم ولم يستفسروا، اتجهوا مباشرة إلى الخبيئة، إلى حيث مقر فريح.

فى وقت يتوقف فيه التعيين منذ حوالى سنة وفشلت كل الوساطات يجىء هؤلاء الثلاثة وبمرتبات استثنائية، قيل إن فيروز اختارهم من هيئات تابعة لدول الاتحاد الأوروبى، كل منهم كان يتقاضى مرتبه باليورو، قبلوا التضحية لعلاقتهم الوثيقة بفيروز، كل منهم يتقن أكثر من لغتين، مدرب على أدق شئون الانترنت والتعامل مع الأجيال الجديدة من الحواسيب الآلية.

المؤكد أنهم شواذ مسجلون، لكل منهم ملف فى إدارة البحث الجنائى، أحدهم موضع اهتمام من البوليس الدولى - انتربول - لصلاته بالمافيا الروسية الحاكمة، يبدو أنه يقدم خدمات خاصة للأثرياء الباحثين عن المتعة مع الأطفال، وليس أسهل من ذلك فى روسيا الاتحادية.

النمرسى منبهر بما يقرأه ويراه فى محطات التليفزيون الأجنبية، من تخيل ذلك يوميا، حقا.. تأتى الظروف بما لم يتصوره عقل ولا يستوعبه شطح، ما ظل يمارسه سرا أصبح على مستوى الكوكب كله، طائرات خاصة تقلع الآن من مطارات روسيا محملة بجميلات تتراوح أعمارهن بين الثانية عشرة والعشرين، أطلع على صور التقطت لحفل أقامه ثرى جديد فى مدينة دمياط، أتفق مع مكتب استيراد وتصدير يمارس نشاطه منذ فترة قصيرة على قيام ثلاثين فتاة روسية من عمر واحد - ستة عشر - ملامحهن متقاربة، أطوالهن متساوية بالخدمة، عاريات الصدور، تفرس

فى صورهن كعادته، يوقن أن معظمهن عذراوات، للفض سعر خاص، يعرف أن البعض على استعداد ليدفع ما يُطلب منه مقابل توفير إحداهن، أن يكون الوالج الأول، أن يرى قطيرات الدم القليلة، لا يدرى النمرسى المتعة فى مضاجعة من لا خبرة لها، من لم يمسها أحد، فى الزواج ممكن هذا لضمان نقاء البضاعة وبكارتها، لكنه تعلم بواقع خبرته الطويلة ألا يدهش مهما سمع أونما إليه من غرابة الراغبات، لكم عاين ولكم رأى.

يتأمل الصور، يتذكر فرجته على الباليه الروسى الذى زار القاهرة فى الستينيات، وحجز المؤسس حفلا كاملا للمتفوقين والذين حققوا طفرات مهمة للكيان، طبعا كان فى طليعتهم، فى الصف الأول مكانه، لم ير البالية على المسرح إلا تلك الليلة، بدا له مبهجا، ولكنه لم يشعر بأى إثارة من قريب أو بعيد رغم عريهن البادى، قرأ فيما بعد أن إعدادهن يستغرق وقتا، يتم اختيارهن بدقة ومن أعمار مبكرة، ثم يرسلن إلى مدرسة البولشوى فى موسكو، تكفلهن الدولة تماما حتى يصبحن نجوما.

ترى.. كم من هؤلاء حاد بهم المصير إلى هنا وهناك، يتم التصدير طبقا للطلب، تماما كالسلع، هناك مكاتب، وهنا مكاتب، أما اللواتى يترددن على الخليج، خاصة دبى، فلا يدرى أى نظام متبع هناك؟

على أى حال، لن يلغى هذا النشاط الدولى والتنظيم الدقيق الخبرات الفردية، لكن المؤكد أن السوق يتحرك وفق قوانين جديدة الآن، يتحول الأمر من مهام ذات أهداف محددة إلى تجارة عامة، خاصة، هدفها الربح والخسارة، نشاط يخضع لنظام معقد، فيه مراكز وفروع، وقنوات للذهاب وأخرى للإياب، إن شكا يطل داخله بحذر فى وجود شىء ما،

هل تكيف المؤسسة أوضاعها لتتسق مع الجديد فى العالم، هل سيتم توسيع نشاطه وضمه إلى قطاع الفيوضات تحت إشراف فيروز؟

لا يستبعد أى شىء؟

العصر يتبدل والصلات تتسع، والمشاريع الكبرى يبدأ الحديث عنها الآن فى مراكز بحوث غامضة، وفى أجنحة وثيرة بالفنادق الكبرى، إنه يتابع بدهشة تقدم وإثراء البعض فى مرحلة قصيرة، أحد كبار المتعاونين الآن مع الطابق الثانى عشر بدأ موظفا صغيراً بقطاع الحسابات، لم يلفت النظر ولم يهتم به أحد لضآلة شأنه وقتئذ، لكنه خرج فى تقاعد مبكر وعمل بهمة، أصبح وجيها، متنفذا، يدير أمورا معقدة كأنه يلعب بلولب، حقا.. لا يعلم بما يجرى فى دروب هذا الكيان إلا العليم، البصير.

كما توقع، الجلاديوس لم تكن نزوة، إنما حقبة مقيمة، إنها على اتصال وثيق الآن بفيروز، ترتب المواعيد التى سيلتقيان فيها بسيادته لتسجيل مادة الفيلم، حتى الآن لم يبدءا، لكن الفكرة راقت ولم يتبق إلا التنفيذ. طبعا.. لن يعبأ بمتانة صلتهما، رغم وسامة فيروز وأناقته ومتانة هيكله، كتفان عريضان وصدر بارز مع خفة ظل وقبول، فإن ميوله معروفة، كان متواريا عن الكثرة قبل تصعيده، لكن ما من قريب أو بعيد إلا ويعرف أن قيادات المؤسسة تضم شاذا، فلتظهر بصحبته ليلا أو نهارا، لتجتمع به هنا أو هناك، لن يثير أى أقاويل بالنسبة لها، لا يشكل أى خطر عليها.

أحيانا يرثى النمرسى له، يتعاطف معه، أمره مكشوف، إذ يظهر فى

أى اجتماع تتطلع العيون خلسة إلى مؤخرته، بل يتعمد بعضهم إلى حركات ذات دلالة، مثل ضغط يده عند المصافحة وابقائها بعض الوقت، أو الغمز بالعين، غير أنه لا يبدى رجفة ولا تسفر عنه هزة، ثابت، متين، بل أن لمعة عينيه لم تخب قط، يعرف النمرسى ثلاثة على الأقل فى مواقع قيادية مهمة عندهم ما عنده، لكنهم يجيدون إخفاء أمورهم، كل منهم متوار، يبحث عن الفرصة السانحة لإرضاء رغباته بعيدا عن الأنظار، لكن فيروز تحيط به الضجة، وتنغرز فيه العيون، يبدى صبرا وجلدا، هكذا ظن النمرسى فى البداية لكنه شيئا فشيئا بدأ يرصد علامات مغايرة، لا يبالغ إذا قال إن فيروز يتباهى ويميل إلى عرض حاله، يبدو أنه فى مواجهة نوعية لم يتعامل معها من قبل، لا بأس. . كم من الحالات الغريبة تنتظره وقادرة على مفاجأته، تماما كتلك العبارات التى يهوى تدوينها والتى تُلفظ قرب بلوغ الذروة من الإناث أو الذكور، قارب ما جمعه منها على الثلاثة آلاف، لا تشبه واحدة الأخرى، أحيانا يستعيد بعض التسجيلات عالية التقنية والجودة عدة مرات بدافع المتعة والدهشة مما يسمع، وحتى الآن يفاجأ بجديد قادر على استثارته.

عليه الآن الانتباه إلى ما يجرى بينهما، علاقة جديدة عليه، سيبدأ رصدها، بعضهن يشعرن براحة إزاء جلوسهن إلى أمثال فيروز، ثمة وشائج شتى تقربه منها، ترى. . لو اتصلت علاقتهما؟ كيف تمضى؟

هل يتساحقان؟

يعرف أن بعضهم أشد على الاناث وأمتن، بل إن صاحبة له متخصصة فى نقل أدق انطباعات صديقاتها وأفضائهن بالأسرار الخاصة

جدا أكدن أن أحدهم، مذيع تليفزيونى معروف أمره، كان يبدى من الفحولة ما يعجز عنه الأشداء، لكن بشرط إتيان بعض الملامسات والمداعبات يحددها ويطلبها ويشير إلى مواضعها.

لكن فيروز حالة خاصة، ينتابه ضيق إذا خلا بأنثى، ويكره الصدور العارية، حتى أنه وصف صورة لامرأة جميلة عارية مشيرا إلى ثدييها، هذه دمامل ضخمة.. قرف!

صباح اليوم ألم بتفاصيل صلة مؤكدة جرت أثناء وجوده بالخارج، يشير أحيانا فيروز فى اللقاءات التى يحضرها أو الحفلات التى يُدعى إليها، ملمحا مصرحا إلى قصة حب لم تكتمل، أورثته ألمًا وصدمة، يذكر ذلك عندما يسأله البعض عن سبب بقائه عزبا حتى الآن، رغم وسامته، وتميز وضعه.

أطلع النمرسى على صورة المغنية بإشاراته، حدق إليها طويلا، ياسلام.. كأنها خارجة من جدار معبد فرعونى، فارهة، متناسقة، طالعة، صريحة الملامح كسماء الصعيد، الأنف أنف والفم فم، والصلات بين الأجزاء متناغمة، تعيش فى أوروبا الآن، متخصصة فى تصميم المجوهرات، حجر الزمرد بالتحديد، خبيرة فى تقطيعه وصياغته وتركيبه على خواتم أو فى قلادات من الماس الخالص النقى، أو الذهب الأبيض.

يتراجع قليلا ليراها من مسافة، يتذكر عمدة فى جنوب الصعيد، بعد انصراف امرأة أجنبية متينة، موثقة، قال بترو «والله عايزة خيال شاطر..»

ابنة مدير القطاع الخارجى، ضابط سابق، تقاعد مبكرا، ثم درس الاتصالات والعلاقات، ألحق بها، تعمق فى عمله، وتقدم بسرعة، كان ميسورا غزير الحال، أرسلها على نفقته إلى باريس لتتعلم فن التصوير بعد تخرجها من الفنون التطبيقية، لكنها هناك عاشت!

أتقنت تصميم المجوهرات من صاحب بولندى، أقامت معه فترة، صار لها شهرة وصيت فى هذا الفن، يبدو أنها رأت فيروز فى حفل استقبال أقيم بالمركز التجارى المغربى، تقدمت منه، تعرفت إليه وفى هذه الليلة تحدثا طويلا عن الفنون البدائية وتأثيرها فى حركة الفن الحديث.

وقع هواه فى قلبها، دعته فى اليوم التالى إلى العشاء، قال إن هذا غير مألوف له، لكنها أصرت، كانت جريئة، لا تلف ولا تدور، إنما تتجه مباشرة إلى ما تسعى إليه مع احتفاظها بخفة وحياء مما قيل اللحظات الأخيرة، وعندما قال مجاملا، مبديا إعجابه بها وأنها فى حاجة إلى فنان كبير موهوب يلازمها ليتابع ملامحها وهى تنتقل من بهاء إلى بهاء.

فيما بعد أسرت لصاحبة لها، إنها لم تعرف منه إلا الكلام الحلو، لكن . . عند الجسد، عند اللحظة الفاصلة يتفنن فى الهرب، حتى تأكدت وأيقنت من عطبه ولا جدواه بالنسبة إليها، غير أنها صرحت أيضا بإعجابها المتبقى بعد اندفاعتها الأولى، إنه صاحب يمكن الوثوق به. راسخ عند الشدائد، لكن . . يا خسارة، الحلو ما يكملش!

آل أمرها إلى الزواج من مخرج سينمائى شهير، لم تقض معه إلا سنة واحدة، لا يعرف النمرسى ماذا جرى لها حتى يتبدل أمرها تبديلا، نحلت، وذبل غصنها، بدا عليها انكسار وهى الفرس الحرون، وعرة القياد، ماتزال تعيش فى مدينة صغيرة مطلة على بحر الشمال، اسمها

انفلور، تقريبا هى المحجبة الوحيدة فيها، لا تطيق سيرة الرجال، الوحيد الذى ماتزال على اتصال به فيروز، توده باستمرار، ولا يتأخر عنها أبدا.

لا يمكن للنمرسى تجاهل ذلك الإعجاب الخفى الذى يسرى أحيانا عنده، بدأ منذ اختياره مساعديه، مخالفا كافة الأعراف القديمة والتى بدت حتى ذلك الحين مستقرة، لا يمكن لإنسان أن يقربها، ليس اختياره لفريح قته كذلك الثلاثة الآخرين الذين يبدأ كل منهم بحرف النون، نبيل، نعيم، نادر، إنما سرعة فيروز فى الانجاز على مختلف المستويات، وفى كل الاتجاهات.

أخطر ما وصله، ذلك الاقتراح الغريب الذى أبداه بعد خمسة وثلاثين دقيقة فى الاجتماع الثانى لتسجيل المادة الخاصة بسيناريو الفيلم، توقف عن الإصغاء، وبأدب جم طلب السماح له بإبداء ملاحظة، ملاحظة خاصة جدا.

هل يمكنه ذلك؟

تطلع سيادته إليه، نظرة هادئة، مطمئنة لمن يواجهه، يبدو خلالها وديعا مسالما، مثيرا للتعاطف، خاصة ذلك الحزن الشفيف، القريب البعيد، البادى فى عينيه، أومأ..

قال إن العاملين والمنتسبين فى مختلف القطاعات يفتقدون حضوره بينهم، بعضهم يسمع عنه ولا يعرف ملامحه، إن حضوره قوى، محسوس، مؤثر، مُهاب، لكن المناسبات التى يظهر فيها نادرة، لذلك يقترح أن يظهر وألا يظهر فى الوقت نفسه.

أبدت ملامحه دهشة، مستنفرة، متسائلة، يسارع بالتوضيح.

الصورة . . كل من سبقوا سيادتك كانوا يظهرون عمّال على بطّال، بدون مراعاة لسيكولوجية المتلقين، يظهرون فجأة، يعقدون اجتماعات لا تمهيد لها، كان الوقت صافيا، رائقا يسمح بذلك، لكن الأوضاع الآن على درجة من التعقيد لا تسمح بذلك، لذلك يقترح إعداد صورة على درجة عالية من الإتقان، إنه على صلة بأكبر مصور تخصص فى الوجوه، له كتب تضم المشاهير من رؤساء وملوك وكتاب كبار ونجوم سينما، تطبع فى أحجام مختلفة وتعلق فى جميع الأماكن المفتوحة والمغلقة.

أضطر فيروز إلى التوقف فجأة، إذ تبدلت ملامحه، صارت إلى قسوة، اتجهت عيناه صوب نقطة غير محددة عبره، فكأنه لا يقعد أمامه ولا يمثل، ارتجف فيروز، لزم مكانه ساكنا تماما، منتظرا ما سيكون. .

يعرف النمرسى هذه النظرة التى ألزمت فيروز حده، وجعله يعيد حساباته إلى حين، بعد نزوله من فوق استدعى فريح وخلا إليه بعض الوقت، لم يطلع على ما دار بينهما، من أصعب ما واجهه اختراق اجتماعهما، كل منهما أمين على الآخر، لا يمكن الإلمام بخباياهما إلا بعد الإحاطة الشاملة بكل من له صلة بهما.

كان من الممكن أن ينشغل بذلك لولا أنه فوجئ.

تردد خبر بين العاملين عن وجود موقع على «الانترنت» يبث معلومات وصور عن فيروز، بعضها ملتقط فى عواصم أوروبية أثناء مهماته الخارجية، أحدها تظهره مشتركا فى مظاهرة للشواذ المطالبين باعتراف رسمى لحالات الزواج فيما بينهم.

المفاجأة ليست فى الموقع وظهوره بهذه السرعة، لكن ما أدهشه أن أهم

مروج للأخبار المضادة لفيروز وصحبه، هو عزب الميدومى، فكر فى الاتصال به، لكنه أحجم، إنه يفضل أن يطبخ بنفسه، هكذا يردد دائما.

إنه لا يتعامل مع «الانترنت»، لم يلتزم بحضور الدورة الإجبارية التى تقررت للقيادات، قال للجلاديوس إنه يفضل العمل بوسائله العتيقة والتى أتقنها، أما هذه الوسائط الحديثة فيتركها للشباب.

عندما سمع البعض ذلك أيقنوا أن النمرسى الأب مازال فى موقعه، ربما صدر قرار بمد خدمته سراً، لكن آخرين أكدوا أن الابن يظهر حتى الآن أساليب أبيه ويمضى وفقا لمنظوره حتى لا ينتبه إليه أحد، فى البداية على الأقل.

فى كل الأحوال أصبح الميدومى هدفا لاهتمامه، يتابعه ويرصد ما يصدر عنه، ورغم توقيعه على البيان، وما أعلنه فى الاجتماع العام فمن الثابت الآن ضراوة هجومه على فيروز، إلى درجة أن الشك يراود النمرسى.

الميدومى هو منشئ الموقع على الإنترنت.

حســـــرة..

قرب الانضمام إلى الكوميسا. الانتساب إلى الفيفا، حصول المؤسسة على جائزة الدورق الذهبى.

إذا تم هذا كله من خلاله صلاته فلا أمل يرجى من هذا الكيان، إنها مجرد إشاعات تطلقها الجلاديوس، مجرد لغو مقصود به تمرير مجيئه، وتخفيف الصدمة على العاملين.

يتساءل الميدومى: ومنذ متى كانت ردود فعل الخلق تهم سيادته؟ هذا أمر قديم ينتسب إلى زمن المؤسس، انتهى أمره، كان رحمه الله كما يقول الثقات معنيًا بتتبع ما يقوله الناس، متتبعًا لآرائهم، مطلعًا حتى على قفشاتهم ونكاتهم الموجه بعضها ضده. يختلف الوضع الآن نتيجة تراكمات عديدة، وأى شىء لم يتغير، لم يتبدل؟

إنه فى حسرة كاوية لإقصائه عن الطابق الثانى عشر، صحيح. . أنه أرتقى فى السلم المتبع درجة متميزة، لكنه نزل من عليين، ليس مهمًا نوعية المهمة أو توصيفها طالما انتسب المرء إلى الثانى عشر، لكل من يمت إليه مهابة، حتى لو كان عاملاً بسيطًا، مكلفًا بالتنظيف وترتيب الأوراق وإعداد المشروبات، يكفى أن المتواجد فيه يخطو فوق المستوى عينه الذى يطأه سيادته.

هذا معروف، مفروغ منه، لذلك يتلقى التهانى ويجيب مبتسمًا وهو على وشك الولولة حزنًا، لماذا أبعده؟ لماذا؟

هل أتى ما أغضبه أو ما أثار حفيظة الجلاديوس؟ هل ألحق ضررًا بالثلاجة؟

هل أهمل صيانة الحوض الألمانى؟

والله لم يقصر فى صيانتهما وبذل العناية، لم ينس قط أنهما مصدر قوته وسر صعوده إلى الطابق الثانى عشر قبل الإطاحة به، إنه بحاجة إليها الآن، يجب أن يفهم الجميع أن سنده المتين فى بيته، لذلك أكثر من الاتصال بها، مرة بحجة الاطمئنان على صحتها، ومرة للسؤال عن أحوال الحوض، ونظام الدفع النفاث، طبعًا. . لم يفته ترك خلل يسير، يعرف موضعه حتى يحدث عطل يستوجب استدعاءه.

ما يقلقه أنها لم تبد رغبة فى أى شىء، ألفاظها شحيحة، لهجتها فاترة، غير مشجعة، صادة، طبقة من الصوت تحبطه وتعزله عن نفسه، يعرف مرورها بفترات اكتئاب حادة حتى لتمر أيام متوالية لا تفارق خلالها ولا ترد على الهاتف.

بدأ ذلك بعد رحيل ابنتهما الوحيدة، تفاصيل موتها ما تزال غامضة، ترفض ما قاله أبوها عن سقوط المصباح الكهربائى فى البانيو وصعق التيار الكهربائى، لم تقتنع رغم تصديق الطبيب الشرعى الذى كتب التقرير بدون تشريح الجثمان بعد تدخلات من والدها الذى بدا جزعه وألمه فظيعين، مداهمين، لكنها لأسباب عديدة أظهرت له الجفوة وأبدت القسوة، خلال تلك الفترة زاد من مقاره التبادلية فى القاهرة

والإسكندرية، اثنان منهما بدون هواتف، عند إقامته فى أحدهما تنقطع كافة وسائل الاتصال به، تطول عزلته يومين أو ثلاثة، يتوقف صدور القرارات الملزمة، وترجأ المواعيد، يسرى ارتباك، أحيانًا يتأجل سفر وفد مهم للحصول على توقيعه، شيئًا فشيئًا استوعبت المؤسسة ظروفه وتكيفت مع أحواله، ثم انقطع هذا الاضطراب بالكلية بعد ظهور الجلاديوس وتمكنها.

فى البداية زودها بطريقة حديثة متطورة للاتصال به، تتجاوز البليب الذى أصبح من مخلفات الماضى كذلك المحمول بمختلف أجياله، وسيلة يبدو أنها قاصرة على استخدامهما، غير معروفة، ثم فوضها فى التوقيع بدلا منه، وبذلك صار إليها مجمل صلاحياته بما فيها الصرف من الأرصدة السرية المحفوظة فى غرف مصفحة بالبنك المركزى، عدا الخبيئة، الخبيئة وضعها خاص منذ التأسيس، لم تفض أختامها، ولم يطلع عليها أحد حتى البوريمى، أما قيمتها الحقيقية بالقياس إلى العملات المرجعية، الدولار واليورو، فلا يمكن تحديدها، هل من المعقول أن تنتهى إلى فيروز بحرى وتابعه؟

يكاد الميدومى أن يلطم كالنساء.

الخبيئة تحت تصرف فريح.

الأرصدة الخاصة رهن إدارة الجلاديوس.

أى مصير ينتظر هذا التكوين؟

قلق سارى واضطراب خفى واحتجاجات مكتوبة، تصل أصداؤها لكن مصادرها مجهولة، لا يرتفع صوت ولا تبدو إشارة اعتراض علنية،

الاجتماعات النوعية توقفت، والجمعية العمومية مجرد شكل، حضور على الورق، تبث بيانات تأييد لسيادته، وأحيانًا تستنكر تحركات معادية أو تشجب جماعات غير مسئولة.

الأمور تمضى بتلقائية قديمة يصعب تحديد بدايتها، إنها مجمل جهود عديدين وطاقات نافدة، سارية، مراحل تداخلت وفترات تشابهت، ماذا بوسعه أن يفعل؟

وضعه عجيب، ظاهره ترقى وحقيقته إقصاء، أمله الآن فى عطل يلحق جهاز الدفع النفاث، أو نقص فى محتويات الثلاجة، يتمنى أن تحتاجه فى أقرب فرصة، أن يرن جرس الهاتف ويسمع صوتها يأمره بالقدوم، ما يجرى الآن خطير.

فيروز يعرف طريقه إلى الطابق الثانى عشر بقوة، لم يعد النمرسى بمفرده هناك، دخل عليه صاحبنا وأى مدخل؟، لن يمر وقت طويل حتى يصبح النمرسى الأب أو الابن خارج أى حساب. هذا وسائله عديدة، ومداخله متعددة، إنه فاجر، مكشوف الساحات، لا يحرص على شىء وليس عنده ما يخشى عليه.

إنه ليس مثل الآخرين، تتجه أبصارهم إلى شذوذ فيروز وصحبه، ما يعنيه ليس ذلك الجانب، إنما القدرات والكوامن، يردد دائمًا: ما من شجرة إلا وهزها الريح، يعنى أن لكل إنسان شذوذه وأسراره الدفينة. ولماذا يستبعد نفسه؟

يعرف أن النمرسى بذل جهدًا ليس بالهين ليجلو غوامضه، لينفذ إليه، ليعرف بعضًا من دخائله، سلط عليه هذا وتلك، لكنه لم يفلح إلا فى بث تساؤل صامت عند الكافة.

لماذا لم يتزوج حتى الآن؟

عم شرف قبل نفاد الكالسيوم من عظامه وبدء تخشبه، قال إنه مصر على ألا يتزوج حتى يستمر اسمًا على مسمى، عزب اسمه وهو أعزب!

طبعًا ضحك المستمعون المساطيل حتى استلقوا على أقفيتهم، أثار فضول النساء، لم يحدث قط أن أبدى ودًا لهذه أو ميلاً لتلك، بعضهن تهامسن عنه، إحداهن قالت إنه عاطل، ليس له فى النساء، وعندما سأله سيادته مداعبًا مرة. قال إن الخباز الشاطر لا يسرق من الفرن الذى يعمل فيه!

لكن سيادته متأكد من تقارير النمرسى أن عزب ليس له فى الداخل أو الخارج، ما لم يعلمه أحد، مالا يعرفه مخلوق أنه ضاجع كل من رغبها بالنظر أو الحوار أو الصلة عن قرب أو بعد، ليس فى المؤسسة فقط، إنما فى أى موضع، فى الشارع، فى محطات القطار، فى المطارات، داخل المركبات، عبر الفراغات، من مكانه فى العاصمة احتوى جميلات نائيات، قصيات، يفصله عنهن بحار وجبال وآماد شاسعة، عبر الحدود والسدود والحواجز اللغوية والزمكانية. فى البدء كان خجولاً، ملمومًا، إذا تحدث إلى أنثى أطرق. وإذا نظرت إليه إحداهن يضطرب قلبه ويختل عرقه.

فى الخمسينيات لم يتح له إلا صور المجلات وما تيسر من أفلام سينما، فنانات مصريات أو أجنبيات يرتدين ملابس النوم أو البحر، يحتفظ بمن تلفت نظره، إذ ينفرد يخرجها، يضعها أمامه، يقبلها، يهمس إليها، يجيب بلسانها ينطق ردودها المتخيلة، ثم يبدأ على مهل حتى يفرغ!

فى دور السينما أتقن اتخاذ الأوضاع التى لا تثير الريبة، كأن يضع حقيبة فوق ركبتيه. أو يسند وجنته إلى راحة يده اليسرى بينما اليمنى تغوص عبر الجيب المفتوق عمداً.

أى أنثى تثير انتباهه الحسى يبدأ التعامل معها بخياله فوراً، يشرع حتى لو كان ماشيًا، يمتعه النظر من موضع آمن إلى إحداهن، عبر النافذة إلى الشقق المواجهة، حظى بلحظات تفيض متعة وإثارة لم يعرف مثلها فى المرات التى أتيح له مضاجعة هذه أو تلك، بل إنه عند تحقق الجماع يغمض عينيه ليرى ما يريد تقريبه، يستدعى إحداهن بخياله ليستثير كوامنه، بينما المتحققة بحضورها لا تأثير لها مهما أتت من أفعال، أو تفننت بالحركة أو الصوت.

شيئًا فشيئًا بدأ يستكين إلى ما يستدعيه من صور وأخيلة، صار ما يخشاه وصول أى علاقة إلى الاكتمال، لحظة بدأ العناق، واقتراب الجسدين من بعضهما تمهيداً للتوالج المكين ينفر، أحيانًا يعبرن باللفظ عن خيبتهن فيه.

«يمكن ما عجبتكش»

«لازم العيب فىّ. .»

إحداهن قالت وهى تخبط صدرها براحتها

«يا خبر. . أنت بتاع البعيد عنك. .»

إنها الوحيدة التى عبرت بدقة عن حاله، لا يشغله إلا الانفراد، الهروب إلى توحده بذاته، تصبح الرفقة عبئًا لا يطاق، يغمض عينيه متمنيًا انصراف من ترقد إلى جواره فوراً، بمجرد انفراده يبدأ استعادة

ما كان حتى لحظة فشله، تجتاحه إثارة ضارية حتى ليدهش من أمره، لماذا لم يعرف ذلك عند التلاقى؟

ما أكثر المرات التى عرف فيها تبسبس الإمكانية، يغمض أحيانًا عينيه، يستدعى أخرى بالمخيلة لعل وعسى، لكن ما أشق خيبته عند مواجهة ملامح أنثى لا يقدر على در غيثه إليها.

منذ التحاقه بالطابق الرئاسى كف رغم سنوح الفرص، استبدل استحضارهن عن بعد بما تعرضه قنوات التليفزيون، يردد لنفسه دائمًا: «الدش نعمة»، ضاعت سنوات خصبة بدونه، يمكنه الآن مضاجعة من يقمن بمنأى عنه، يفصله عنهن بحار وفضاءات، لن يلتقى بهن أبدًا، لكنهن يجئن إليه، يقابلهن حيثما شاء، فى الصالة، فى غرفة النوم، لا تثيره الأفلام الصريحة، لا تبقى لمخيلته أى قدرة أو فاعلية، استنفاره بكتمل إذا رأى من توافق استعداده.

من ناحيته مد جسور الوصل إلى بعضهن، يرجع مسرعًا ليلة الأربعاء، ينتظر ظهور الأسبانية عربية العينين، محددة الشفتين، المكملة بلحظها الفاتر. مقدار ظهورها الأسبوعى حوالى ساعة تتخللها لقطات من أفلام ومسارح ومعارض تشكيلية، يتأهب قبل موعد البرنامج، يتجرد من ملابسه، يتعطر، عند بدء طلتها، يبتسم مرحبًا.

«أهلاً..»

إذا تأخرت بسبب توالى الإعلانات، أو تطويل نشرة الأخبار، يعاتبها منغمًا صوته.

«كده برضه كده..»

ثم يبدأ اطلاعها على أخباره خلال الأسبوع المنقضى منذ آخر مرة رآها، يمط شفتيه، ينطق لومًا أو شكرًا أو يرسل إليها قبلة مستأذنًا بضع ثوان، يأتى بقميص اشتراه، يرفعه أمامها لتبدى رأيها فيه، نوعه، لونه؟ يؤكد أنه لن يقدم على أى فعل إلا بعد استئذانها، يتردد إليها ناطقًا كلمات التدليل أو أصوات لا تعنى شيئًا. لم يتخيلها عارية، ولم يمسها بخياله، لم تطرقه أى إثارة عند ظهورها بفستان يشى باستدارة كتفيها ومفرق نهديها المنبئ، الماضى، إنها للملاغاة والنجوى، لطفها يهدهده، ظهورها يريحه، يطمئنه، عندما تتطلع من خلال بصة معينة، اتجاهها من تحت إلى فوق، يشكرها، إنها النظرة التى يتوقعها، يعتبرها خاصة به، إذ توشك على الختام يلوح بيده، مرسلاً قبلاته عبر الفراغ.

أما تلك الإيطالية المدملجة، المكمورة بالرغبة، المبطرخة فيختلف الأمر معها، مفخخة بالبث المروع، عند ظهورها يتجرد من ملابسه تمامًا، يطلق أصواتًا بدائية، تتنوع، تتغير ما بين مواء وشخير وزقزقة، يظهر من الحركات عجبًا، يزحف تارة، يقفز، يقف على ساق واحدة، يدير ظهره ثم يئن ويهذى.

اللبنانية لها ملامح القطيطة، غلامية، أنثوية، جمعت الحدين معًا، يحار فى ملامحها، تكوينها، ابتسامتها وفلاجة أسنانها، تبسط أحواله وتشدها، يصرخ متعجبًا:

«من أين جاءوا بك.. من أين؟»

يضرب كفًا بكف، يميل يمينًا وشمالاً، يتثنى، وعندما توشك على الانتهاء يقبل الشاشة راجيًا ألا تذهب، ألا تختفى، إنها تؤنسه، تلعلع وحدته بحضور قوى، بعدها يمكث ساعة أو ساعتين بدون حركة، يتقن

مواعيد من ارتبط بهن، يتفرس فى ملامحهن عند ظهورهن، إذا لمح أى تغيير يستفسر، يبدأ حواراً، يسأل فيه ويجيب، يغير صوته، يبدل إيقاعه.

أحيانًا يسأل نفسه، هل ما يقدم عليه طبيعى؟

يجيب بتساؤل: وما هو الطبيعى؟

ينتهى إلى القول بأنه ما اجتمع عليه الناس، لكنه لا يقتنع، يلوح بيده، إنه ما يريح كل شخص.

إذن.. لماذا يهاجم فيروز؟ لماذا يتخذ منه موقفًا حادًا؟

هل لأنه معروف بشذوذه أم لأنه وصل إلى منصب حساس؟

كل شخص حر فى نفسه، فى جسده، لكن عند اختيار المسئولين فى المواقع الحساسة يجب التدقيق.

أى تدقيق؟

هل يضحك على نفسه؟

التدقيق فى أى شىء؟

ألا يعلم أن الأولوية للمعطوبين خلال الحقبة الأخيرة؟

مشكلته أن ظاهره مستقيم، سليم طبقًا للأعراف البالية، فلم تحم حوله شبهة ولم تسجل عليه مخالفة، مثله مرغوب بالنسبة للقوانين الأولى التى ما تزال مطبقة، سارية، ولكنها ليست من مرجحات الصعود والترقى.

اختيار فيروز ليس خطأ، ليس صدفة، أن تتبع الخبيئة قطاع الفيوضات قبل مجيئه أمر فيه تدبير، ما يحدث يجب أن يفهمه، إذا لم ينجح فى المشاركة أو التأثير فليحاول فهمه واستيعابه.

لماذا لم يعرف طريقة إليها كما نفذ إلى البيت؟

لاختلاف الجلاديوس عن الزوجة الثكلى، المهملة..

فيروز عرف طريقه، سبقهم أجمعين، فكرة إعداد الفيلم وجلسات التسجيل تم إقناعه من خلالها، تأثيرها على سيادته نافذ، حتى قيل إنه صار كالقفاز فى يدها، هو من ضاق بأجمل الجميلات، من عرف عنه سرعة فض الصلات بعد بلوغ الغرض.

ما وسيلتها؟ كيف روضت جموحه وبغتاته المفاجئة؟ هذا مالا يقدر أحد على القطع أو الجزم به، التخمينات كثيرة، فمن مؤكد إدراكها سره وتوصيله إلى أقصى ما يرغبه ذكر، فاقت ما عرف عن رشيدة النمساوية التى تعتبر تلميذة فجة بالقياس إليها، آخر يؤكد أن انسحاقه أمامها لأسباب أخرى لا علاقة لها بالجنس، والدليل أنها تيسر له الأمر بالنسبة لأى أنثى تستشعر منه مجرد الإعجاب بها، ليس من منطلق سهير الفيومى، سهير لم تكن إلا موظفة، تؤدى مهمة، لكن الجلاديوس حضور طاغ وتمثيل، ثم إنه لم يعرف غيرها منذ دخولها المقر حاملة الزهور النادرة.

الجلاديوس فواحة، بشاشة، دائمة التجوال فى مختلف الطوابق، لا تمر بشبر إلا وتدع فيه أثراً وتترك منها رائحة متضوعة، تتحدث إلى الكافة، إلى الحراس، السعاة، صغار العاملين، كبار المسئولين،

حضورها تجاوز إشعاع هانم الدمياطية التى لم يرها إنسان إلا وشعر بالرضى، يرتوى منها بالنظر، فالجائع يشبع والظامئ يرتوى، لا . . الجلاديوس لا سابقة لها ولا مثيل حاضر، من تحادثه مرة لا ينساها، مهذبة، نسيجها ناعم، هواها طرى، لا يدخل رجل فى محيط بصرها إلا وتدركه مويجاتها، والله معه حق!

لكن إلى الدرجة التى حدثت مؤخرًا فى قطاع المخاطبة؟

سرى بين العاملين فيه من كبيرهم إلى صغيرهم أن الميزانية متعسرة وثمة أزمة سيولة ربما تهدد تسليم المرتبات أول الشهر، مثل هذه الإشاعة لم تتردد من قبل على الإطلاق، أحيانًا يسمع العاملون عن منشأة تعثرت إلى درجة أن المرتبات الشهرية لم تصرف، يصغون إلى ذلك مشفقين وكأن الأمر يجرى فى الكوت دافور أو جزر المالديف، مثل تلك الواقعة لا تخطر على قلب فى المؤسسة، صحيح أن الأحوال تهتز أحيانًا، والأمور تتعثر هنا أو هناك، لكن الجوهر متين والأساس صلد، قناعة راسخة متوطدة، أما المرتبات فأمرها متين، دائمًا فى موعدها مثل نشرات الأخبار وصدور الصحف اليومية الكبرى صباح كل يوم.

لكن المحظور وقع، نتيجة أرتباط معاملات هذا القطاع بالين اليابانى الذى واجه متاعب فى الأسابيع الأخيرة نالت من قيمته فى مواجهة الدولار الأمريكى واليورو الأوروبى، لأول مرة يشعر العاملون فى هذا القطاع دقيق الحساسية بالخطر، خاصة أن ثمة أخبار غير مؤكدة عن بيع بعض الفروع إلى مستثمرين أجانب، تواكب هذا مع تولى فيروز قطاع الفيوضات، وبالتالى تبعية الخبيئة له وتصريحاته عن ضرورة الاستفادة

منهـا وتطوير المداخل المؤدية إليـهـا وعـمـل الدعـاية اللازمـة فى الدول الضاخة للسياح، أحد أهم مصادر العملة الصعبة للمؤسسة .

بعد أيام من قلق مستوفز محرض، فوجئ الجميع لأول مرة بإعلان رئاسى صادر بتوقيع سيادته شخصيًا، يعترف فيه بوقوع صعوبات أدت إلى خلل جسيم فى السيولة، وأن ما يقال عن النقص الحاد حقيقى، كادت تحدث كارثة تنال من هيبة الكيان كله لولا ذكاء وسرعة التحرك وموهبة استثنائية تتحلى بها زميلة من العاملات النشيطات، المخلصات، وهى صاحبة المبادرة فى الاقتراح الوجيه بتنظيم مزاد خيرى، يتم خلاله بيع بعض المتعلقات النادرة بالمؤسس، مثل الفنجان الذى كان يقدمه إليه عم صديق يوميا لشرب القهوة، وحمالة البنطلون أيرلندية الصنع، وصديرى حلة السهرة، ورباط الحذاء الإنجليزى، ومضرب الجولف الألمانى. نجح المزاد الذى حضره الوجهاء وتوفرت السيولة اللازمة للمرتبات .

لم يصدق عزب الميدومى ما نما إليه إلا عند رؤيته الإعلان الرئاسى على شاشة الشبكة الداخلية، طبعًا لم يصرح باسمها لكن فرق الأمن الخاص، والأقسام الداخلية التابعة لقطاع الفيوضات تولت التفسير والبث، إنها الجلاديوس .

سيدة الطابق الثانى عشر، الذكية، اللماعة، المنقذة فى اللحظات الحرجة، إن عزب مثله كالنمرسى لم يأخذ الأمر من ظاهره، إنما حاول النفاذ إلى ما يخفيه .

طبعًا كل عامل أو عاملة فى القطاع عند تسلمه المرتبات أول الشهر

سيقترن ذلك باسمها، ثانيًا . . ثمة شك الآن فى متانة اقتصاد أحد القطاعات الرئيسية، هل يعنى ذلك التمهيد لبيعة؟ ثالثًا . . هل غاب عن سيادته أن المؤسسة لها أعداء، وأنهم سيقومون باستغلال المزاد. وتوزيع تسجيلاته على سائر المراكز العالمية التى تصدر خطابات الضمان، وبالتالى تتحلل أسباب القوة السارية والعناصر المؤدية فيميل البنيان!

ماذا يحدث؟

لو صح أن فيروز مصدر هذه الخطة وصاحب الفكرة لكان ذلك مؤشراً خطيراً، أى خطورة يا ميدومى؟ أى خطورة يا عزب؟، ما لم يكن متصوراً حدوثه يقع بأيسر الوسائل، فأى خطورة؟

مرة أخرى يتركز همه حول تأثير فيروز على الجلاديوس، أو العكس، صباح اليوم أبرزت لسيادته العقود التى أبرمها فيروز مع محطات عالمية لبث الفيلم الذى يجرى الإعداد له عن سيادته، إما كاملاً أو أجزاء منه، محطات واسعة النفوذ فى الكوكب، لم يدر بذهن أحد أن المؤسسة ستذكر فيها يومًا، فما البال بعشر ثوان كاملة فى السى إن إن، أو دقيقة فى البى بى سى، وثلاث فى السى بى إس، وخمس فى الدى إف، وغيرها، حتى المحطة الرئيسية فى سنغافورة ستبثه.

لكن الفيلم ليس سببًا وحيداً، بعضهم يقول السر فى جمبرى الكاريبى، علم من الجلاديوس أن سيادته تناول العشاء مع صحبه فى مطعم باريسى يقع إلى يسار الداخل من شارع راسين بالحى اللاتينى، متخصص فى أنواع الجمبرى، تصل إليه طازجة مثلجة من بحر العرب، وخليج السويس، ومضيق بيرنج، والكاريبى، آه من جمبرى الكاريبى

ومذاقه الفريد، إنه نوع معين يعيش على عمق بعيد، ولا يتعرف عليه إلا متخصصون لديهم خبرة بسلوكياته وطرق صيده، سيادته سأل عن النوع فأخبروه، إنه إناث الكاريبى، نوع نادر وكمياته قليلة، هذا طبق مكانه موائد القلة النادرة، ليس من حيث الإمكانيات فقط، لكن القادرين على التذوق أيضًا.

أثناء انتظار فيروز عند الجلاديوس مقابلة سيادته، لمح مظروفًا أنيقًا أمامها، قال إنه يعرف هذه العلامة المطبوعة بحروف ياقوتية على لون برتقالى حامض، قالت الجلاديوس إنها تهنئة من مطعم شهير تخصص فى أنواع الجمبرى، اعتادت إدارته إرسال بطاقات تهنئة بالعام الجديد إلى مشاهير الزبائن الذين عرفوه، حتى ولو مرة واحدة.

قال إنه يعرف هذا المطعم، ويحتفظ بذكريات جميلة ومذاق طيب لما تناوله فيه، ويحتفظ بأرقام الهاتف وعنوانه، إنه يعرف مسئولة الضيافة هناك، سيدة ضخمة، ليست بدينة، خصرها نحيل بالقياس إلى تكوينها الفريد، صدرها هائل قوى، كذا مؤخرتها العجيبة، رغم حجمها تمشى برشاقة وتتنقل بخفة بين موائد الزبائن ومعظمهم فنانون وكتاب وشخصيات مرموقة، أما وجهها فإن ملامحه لا تنسى.

قالت بوهن

«نفسى أوفر لسيادته الطبق المفضل هنا..»

تطلع إليها فيروز بحدة، تبرق عيناه فى اللحظات الحاسمة، أو عند إدراكه الفرصة السانحة، حاد بنظراته لحيظات، تساءل..

«هل تسمحين لى؟»

تطلعت بفضول، قال إن إحضار الوجبات من أشهر المطاعم الأوروبية أمر عادى جداً الآن وتتولاه شركان خاصة، أو أقسام متخصصة فى مكاتب السياحة، هذا مجال لم تدخله قطاعات المؤسسة بعد، كان من المفروض أن يحدث ذلك منذ مدة، خاصة أن الظروف تغيرت فى الواقع، على أى حال. . يكفى ما ضاع من وقت.

يقال إنه بدأ يستثمر علاقاته فى مختلف أنحاء العالم مستمداً الدعم التام من الجلاديوس، حتى انتهى إلى ترتيب رسخ مكانته عندها، وقواها.

أول خطوة قام صاحب له بإجراء اتصالات مع الصيادين المتخصصين فى الكاريبى، أرسى اتفاقًا مع عدد من الضفادع البشرية المتقاعدين من الخدمة فى الأسطول السابع المتواجد فى بحر الصين، والمحيط الهادى، هم الأقدر على الغوص فى الكاريبى، خاصة المنطقة التى يتواجد بها هذا النوع النادر من الجمبرى، بعد صيده يتم تخصيص الكمية كلها وشحنها مباشرة بواسطة مكاتب متخصصة فى نقل الأعضاء المنتزعة من ضحايا الحوادث لزرعها فى المرضى المحتاجين، مثل القلوب والأكباد والكلاوى، وأول من رتب ذلك الدكتور كريستيان برنارد الذى أجرى أول عملية زرع قلب بشرى.

لم يكتف فيروز بحرمان المطعم الباريسى من هذا الصنف النادر الذى كان يفخر بتقديمه، بل إنه أقنع الطباخ المتخصص بالعمل فى المؤسسة بعقد مجز لمدة عام، يقوم خلاله بالسفر إلى الأقصر وأسوان والمواقع الأثرية فى الواحات، على أن يقيم فى فندق فاخر مطل على النيل بحيث يمكنه رؤية الأهرام والقلعة فى وقت واحد، فى الوقت نفسه رتب اتفاقًا

مع المطعم السلطاني بالإسكندرية ليرسل ثلاثة من المتخصصين فيه ليعملوا كمساعدين بحيث يمكنهم التقاط المقادير، بالتحديد مقادير التوابل وترتيب إضافتها، ومقدار الزيت أو الدهن الذى يقدح على النار ومدة بقائه.

عندما وقفت الجلاديوس أمام سيادته تعقد يديها أمام صدرها، مالت إلى الأمام مبتسمة وسألت عن الأيام التى يفضلها لتقديم طبقه المفضل، أبدى دهشة، لكنها أكدت حضور ما يرغب. فى المطعم الخاص قدمت إليه بنفسها أنواع النبيذ المصاحبة، سواء ما يسبق منها الطبق أو ما يلازمه أو يليه، بعد انتهائه بدا راضيًا، قابلاً، قال بحنو مداعبًا وجنتها.

«أين كنت.. أين؟؟»

بالطبع لم يلم سيادته بالجهد المبذول فى أكثر من مجال حتى يمثل الطبق أمامه، بدءًا من التدريبات الوعرة التى تلقاها رجال الضفادع البشرية فى وحدات الأسطول السابع والتى تمكنهم من الغوص فى أعماق الكاريبى وخبراتهم المتراكمة للتعرف على هذا النوع النادر وصيده، ثم حفظه ونقله وطهيه.

هكذا أضيف سبب جديد إلى أسباب أخرى ما يزال معظمها مجهولاً لتمتين مكانة الجلاديوس عند سيادته، وأيضًا لتقوية الصلة بين فيروز وسيادتها، إن اعتمادها عليه يتزايد، وقدرته على النفاذ إلى أمور دقيقة تثير انبهارها، أصبحت المؤسسة مشهورة بطبق الجمبرى الفريد بعد أن دعا سيادته عددًا من شخصيات الدولة والمجتمع المرموقة، ليس ذلك فحسب، إنما قدمه إلى كوفى عنان سكرتير عام الأمم المتحدة أثناء زيارته إلى الشرق الأوسط، وعند وصوله إلى البلاد، وتفقده المؤسسة باعتبارها

رائدة فى النشــاط المتـعلق بتنمـيـة وتطوير الـهـيـاكل الإدارية فى الدول المستقلة حديثًا، وعندما تردد كوفى عنان على المنطقة عدة مرات خلال السنة الأخـيـرة، أكـد المقـربون منه أن السـبب الحـقـيـقى ليس المشكلة الفلسطينية أو العراقية، إنما رغبته فى الطبق الفريد خاصة أن فوائده جمة وتظهر بسرعة!

لا شيء يخفى، شـاعت قـصـص شـتى عن الجـمـبـرى الكاريبى، والطائرات الخاصة التى تنقله، ورائحة الطبق التى تعبق الطابق الثانى عشر، ورويت أمور عن الحيوية التى يشعر بها بعد تمام الوجبة وفائدتها له، خاصة أن فارق العمر بين الجلاديوس وسيادته يتجاوز الربع قرن.

جرى فصل اثنين، الأول فنى، والثانى إدارى، عندما امتنعا عن تسلم مستحقاتهما المالية بعد أن قرءا البيان الموجه من سيادته إلى العاملين بالقطاع يوضح فيه جهود الجلاديوس لتوفير السيولة، لم يصدر أى فعل تجاههما على الفور، إنما صدر قرار بنقل الأول إلى مشروع جديد يجرى تنفيذه فى الواحات الداخلية، أما الإدارى فصدر قرار بإعارته إلى الجمرك البرى، ولم يظهر لأى منهما أثر بالقطاع، لكن سيرتهما وأخبارهما جرت على ألسنة عديدة، ولم يجر ذلك إلا همسًا.

فيروز لا يضيع وقتًا، إنه يركض فى اتجاهات عديدة، وبرغم تمكنه من الانفراد بسيادته من خلال جلسات الفيلم، فهو لم ينس الجلاديوس، ولم يغفل عن خصوم يتحركون فى الخفاء للنيل منه والإضرار به.

قبل دخوله إلى سيادته عرض عليها تعميم خاص لديكور مكتبها بعد أن لاحظ إعجابها بألوان مكتبه وبساطة تكوينه، تأملت التصميمات بإعجاب واضح.

«أنت بتعرف فى كل حاجة !»

بدرت منه ضحكة وحركة، أما الضحكة فلم تصغ إلى مثلها من قبل، مغناج، صادرة من العمق، أما الحركة فتثنيه وتلويحه بأصابعه، فى حضورها يبرز الجانب الأنثوى الدفين والذى يرضيه عند خلوته بارتداء أطقم الملابس الداخلية الحريرية الهفهافة، مشدات أنيقة، من الحرير الطبيعى ترغبها أى أنثى، ثم مشيه متأودًا، وإظهاره الدلال والتثنى على مرآى من صاحبه فريح، أو من يقع اختياره عليهم للصحبة.

أذن سيادته لها بتغيير مكتبها، لا يمكن أن يتم هذا إلا بعلمه، بعد أن تم كل شىء فى أقصر مدة، وأبدى سيادته إعجابه، نفذ فيروز عبر اللحظة المناسبة، إذ عرض ـ من خلالها ـ تصميم جديد للمكتب البيضاوى يتميز ببساطته، لا يوجد فيه إلا مقعد واحد، ومنضدة بيضاوية أيضًا عليها جهاز حاسب آلى متطور، يقال إنه يحوى ذاكرة المؤسسة، أما الجدران فلا حدود واضحة لها، تمامًا مثل تكوين البيضة، لا زوايا، لا أركان، كأنه يجلس فى الفراغ ذاته، كثيرون من كبار الضيوف أبدوا دهشتهم، بل إن بعضهم تراجع خشية عبور الباب إلى فراغ، هكذا توحى الجوانب الشفافة الناعمة، قال أحدهم، لولا وضعية الحجرة وحساسيتها لأصبحت مزارًا.

رغم أنها متخصصة فى تنسيق الزهور إلا أن قدرته على التوفيق والملائمة بين الألوان دفعت بها إلى الإصغاء إليه، بدأ بستائر الغرفة، ثم عرضه عينات من أنواع القماش عليها، بدءًا من المستخدم فى المفارش والملابس الخارجية ثم الداخلية وصولا إلى أشرعة المراكب، كان وثيق الصلة بمتجر شهير، مقره الرئيسى قرب أوبرا باريس.

ما أعجبها وراق لها تفانيه فى العرض ورفعة ذوقه، أثناء تفحصه لأنواع القماش يبدو منهمكًا، مستغرقًا، كأن وجوده كله انتهى إلى تلك اللحظة، كأنه يقوم بآخر مهمة، ينهض فجأة، يتراجع إلى الوراء، ينثنى بجذعه العلوى إلى الوراء، يطيل التحديق والنظر، أو يتحرك حولها متبعًا دائرة تقترب أو تنأى عنها، أصغى سيادته إلى وصفها فيروز وإعجابها بحماسة وشدة إخلاصه، قال مداعبًا.

«لولا أننى أعرفك كما أعرف نفسى لظننت بك. .»

تضحك، تلك الضحكة المختصرة، المغناجة، الفواحة بالدلال، يصغى إليها فتتبدل أحواله، خاصة إذا سمعها عبر الهاتف، صوتها إذ يأتيه مرشحًا، متخثرًا، يتخلله كله، يفصفصه ويبسبسه رغم قربها منه، رأى منها ما لم يعرفه من غيرها، وصفها لبعض خاصته قائلا: ليس كمثلها أنثى!

هو من رأى ومن عرف، ومن تنقل من رحيق إلى رحيق، تفاصيل عديدة تروى عن مهاراتها وشدة إقبالها عليه، وقوة إرضائها له، ومعرفتها بكوامنه، بدءًا من نفاذها عبر مسام حسه باللمس والجس إلى بذلها الصوت خلال اتصالاتهما الليلية التى تستغرق وقتًا غير قصير ويتخلى فيها تمامًا عن حرصه أو خشيته من تسجيل مكالماته، يعرف أن القاعدة تقضى بذلك، جميع هواتف المسئول الأول مرصودة بحجة أن ذلك ضرورى لتاريخ المؤسسة ومسارها، لكن يتردد إنه مشترك فى خط دولى متصل مباشرة بالأقمار الصناعية لا يمر على الشبكات المحلية، يصعب مراقبته أو التنصت عليه من الأجهزة المحلية، لا يعنيه تجسس الوكالة المركزية CIA عليه، أو أى جهاز غربى آخر، لم يتحدث عبر هذا

الخط إلا مع صديقات له، أجنبيات اعتاد التمتع بأصواتهن قبل أن تبطل الجلاديوس عنده ما عداها.

عرف فيروز كيف ينفذ إليه من خلالها، ما قابله سيادته بالرفض الصامت الحاد، المفحم، رضى به وتم تنفيذه، عندما أخطرته بموافقته على اختيار مصور خاص لالتقاط صورة يتم بثها عبر الشبكة المحلية، وطبعها فى أحجام مختلفة، وتوزيعها وفقًا لخطة دقيقة فى أنحاء المقر والفروع، وسائر القطاعات، سعى إلى مصور أرمنى حقق شهرة واسعة حتى خمسينيات القرن الماضى، كافة صور المشاهير التى رسخت معالمها فى ذاكرة القوم من إبداعه، اكتفت الأميرة فائزة به وعندما تزوجت الشاهنشاه رضا بهلوى صحبته معها ويقال إنه كان مقربًا منها طوال مدة إقامته بطهران، حتى تم طلاقها وعادت إلى مصر فأحاطته برعاية وأوصت به خيرًا، لكن أحواله تعثرت بعد الثورة وبدء المرحلة الشمولية، ومن المؤكد أن المؤسس حاول إيجاد صلة بين قيادات العهد الجديد وبينه، قدمه وأثنى عليه، لكنهم أعرضوا عنه وأبوا، ذلك أنه مرتبط بالعصر الملكى، حتى نجوم السينما القدامى انصرفوا عنه خشية وتقية، وبالنسبة للجيل الجديد فلم يسمعوا به ولم يعرفوه إلى أن أصدرت دار نشر أجنبية مقرها بروكسل كتابا عنه أشارت إليه الصحف والمجلات الأسبوعية، فوجئ فيروز بوجوده على قيد الحياة، ولكن أحواله لم تعد ميسورة بعد اضطراره خلال العهد الشمولى إلى تصوير القوم لزوم جوازات السفر والبطاقات الشخصية، هو الذى لم يسدد آلاته إلا صوب الأميرات ومشاهير الناس، سعى إليه، التقى به فى شقته التى نجح فى الاحتفاظ بها رغم تقلب الأحوال، تقع فى الطابق الأول من عمارة قديمة، متينة بشارع

فؤاد الأول، تجاوز الرجل التسعين بثلاثة أعوام لكنه مازال فعالاً، يسترد عافيته وكامل طاقته عندما يقف خلف آلة التصوير.

الصورة أعجبت سيادته، ليس اللقطة فقط، لكن طريقة القطع، اختيار الإطار والإضاءة، بعد ظهور الصورة فى المدخل الرئيسى، عند مفترق الممرات المؤدى إلى المصاعد والخبيئة، لفظ الرجل أنفاسه، وقيل إنه عرف كيف يختار توقيت رحيله المباغت، إذ تم ذلك قبل انصراف الخادمة اليونانية العجوز التى تزوره مرتين فقط كل أسبوع، لتعد له طعامه وترتب حاجاته.

فى الطبعة الثانية من الكتاب، شغلت صورة سيادته صفحة كاملة باعتبارها آخر ما قام به ذلك الفنان الأرمنى الذى عاش مجهولا حوالى نصف قرن، ثم تألق فى تلك اللقطة التى تدرس بمعاهد التصوير كدليل على متانة الأسلوب العتيق قبل اختراع الآلات المتطورة.

المهم.. حقق فيروز من خلالها ما لم يقدر عليه مباشرة، ولذلك لم يبح بملاحظته الثانية لسيادته إنما أفضى بها إلى الجلاديوس فى لحظة حميمة تلت فراغه من إخبارها بدقائق الأحوال فى المقر، خاصة ما يتعلق بالقيادات القديمة، معظمهم يشنون عليه حملات خفية ويظهرون العداوة.

قال فيروز إن قوام سيادته مثالى، لا يحلم بمثله أكبر مصممى الأزياء فى العالم، يمكن أن يصير مثالاً عالميًا للأناقة، تلقى وعدًا من صاحب له وثيق الصلة بكبار المصممين، سيتم اختياره بين أكثر عشرة رجال أناقة فى العالم.

أى مكسب هذا للمؤسسة؟

إنه شخصية دولية، مرموقة، سيزداد تألقًا، ستثق مصادر التحويل الأجنبية فى متانة الهياكل المالية عندما تنتشر صورته ويحتذى الكثيرون طريقة لباسه وألوانه المفضلة. لذلك يجب أن يتسق مظهره مع تلك الحقائق، لا يعنى ذلك أن المظهر الحالى به تنافر، كلا.. لكن إذا لاح الكمال على بعد خطى قليلة فلماذا حجبه؟

هل قبل سيادته لأنه اقتنع أم لأنه لا يستطيع رد ما تطلبه الجلاديوس؟

هذا ما لا يقدر الميدومى على القطع به.

أيا كان السبب، أصبح فيروز مسئولاً عن اختيار ملابس سيادته، بدأ بالألوان وانتهى إلى نوعية القماش ومصادره، وضعت ترتيبًا محكمًا، ظهر كل خميس ترسل إليه جدولاً بمواعيد سيادته من السبت إلى الخميس. يبدأ فيروز فى دراسة الظروف التى ستتم فيها المقابلة، الموعد.. صباحى أو مسائى؟

المكان.. فى المكتب المستطيل أم البيضاوى أو الاستراحة الخلوية أو مكان لم يحدد. شخصية الضيف، أهو قصير أم طويل؟ نحيف أم بدين؟ حليق أو ملتح؟ أحيانًا يطلب معاينة الموضع إذا تم بعيدًا عن المكاتب المؤسسية، يراعى ألوان الخلفية، طلاء الجدران، الأثاث، نوعية الإضاءة، المداخل والمخارج، الأشياء المعروضة التى يمكن أن تلفت النظر، يراجع المعلومات المتاحة عن الطرف الآخر، بعد هذا كله يختار الزى الملائم.

جاكت أزرق ذو زراير مذهبة، مع بنطلون بيج أو رمادى وحذاء

ياقوت غامق ورباط عنق من لون الجورب، أو بدلة بصف واحد، تحتها صديرى من نفس اللون أو مضاد له، مغاير . .

هكذا . .

خلال أسابيع قليلة ظهر تأثيره، تميزت ملابس سيادته، لفتت الأنظار رغم ندرة ظهوره فى التليفزيون، أحد الأمراء العرب سأله عن بيت الأزياء الفرنسى الذى يتعامل معه، لم يصدق عندما أجابه . . إنه خبير من المؤسسة .

أناقته تلك كانت سببًا لظهور سيادته على صفحة كاملة فى مجلة البارى ماتش وهو يمشى بمفرده تمامًا فى لحظة تأمل مؤسسية على شاطئ البحر .

ما يعجز الميدومى عن تفسيره، تلك السرعة التى احتل فيها مكانة متينة عند الجلاديوس، هل يعرفها قبل مجيئها إلى المقر؟

ربما . . لكن الأسباب التى أدت به إلى القرب الوثيق عديدة طبقًا للروايات المتداولة، المؤكد اهتمامه بها وتركيزه عليها وإحاطته بها، أدرك بفطنته منزلتها عنده، هذا ليس سر مستعصى، المهم . . إدراكه لمداخلها، يقال إنه وضع يده على أمر أقض مضجعها زمنًا، علم أنها تتردد على طبيب أمراض باطنية معروف بوسامته وصداقته لنجوم الفن والرياضة، علم فيروز أنها تعانى من صدور أصوات عن بطنها نتيجة تحرك غازات راكدة، مما يسبب لها حرجًا شديدًا فى ذروة اللحظات الحميمة .

انفجارات صغيرة مفاجئة لا يمكنها التنبؤ بمواقيت حدوثها، بغتة عند حضورها اجتماع خاص، يتطلع إليها الضيوف بفضول، تتململ

حرجة، لكن الأخطر ما يحدث فى الخلوة، لحظة التهيؤ والتلقى، لكم يبدو ذلك منفراً، غير مستو مع طلاوة معالمها، بل . . واسمها أيضًا. لا يمكنها السيطرة على هذه الصرّاعات والانفجارات المفاجئة.

لم تنفع معها أقراص الفحم، ومضادات التهاب المصران الغليظ.

بالنسبة لفيروز كانت الصعوبة فى البداية، مصارحتها بأنه يعرف المشكلة، الأمر هنا دقيق جدًا، وكل تصرف يصدر عنه، بدءًا من اختيار الألفاظ إلى نوعية النظرة يمكن أن يترتب عليه ردود فعل يصعب التنبؤ بها، إنها أنثى معتدة بنفسها وقد يشق عليها إطلاعه على ما تعانيه، لكن مشكلتها حساسة وحادة، وربما يثير لديها الأمل، هذا ما حدث، بعد انتهاء إحدى زياراتها المفاجئة إليه تطلع إلى عينيها طويلاً، قال إنه يخمن وجود بعض متاعب بسيطة بالمعدة، ولديه الأعشاب المعالجة، قبل أن تبدى دهشتها قال إنه تعلم العلاج بهذه الوسيلة من صاحب صينى تعرف إليه أثناء إقامته فى باريس، أتقن منه أيضًا تفسير الأحلام.

لم تجبه مباشرة، لكنها لم تنكر، لم تفه بما يعنى النفى أو الاستنكار، اكتفت بإبداء دهشتها من معارفه المتنوعة، من الصباغة إلى الأحلام، مروراً بتخطيط المدن، وتنسيق الحدائق، وسائر العناصر الحضرية والأمور المعنوية.

رغم أنها لم تبد موافقة لكن بعد انصرافها أدرك أنه أصاب وسدد، فى اليوم التالى قدم إليها ثلاثة أكياس، الأول يحتوى على أزهار البابونج الجافة، على الريق معلقة فى نصف كوب دافئ، فى الثانى أوراق وأغصان بردقوش، نصف ملعقة صغيرة عند الظهر على كوب ماء يغلى، ثم يترك حتى يبرد ويشرب دفعة واحدة، الثالث منقوع ثمر العرعر،

يؤخذ ملء ملعقة صغيرة وينقع فى ماء دافئ لمدة عشر دقائق، ويشرب قبل النوم.

«نعم يا أستاذة عشر دقائق. .»

بعد الاتصال أدرك أنه حقق أمرًا، تستفسر منه عن طريقة إعداد المنقوع، حرص على ذكر تفاصيل عديدة لإطالة المكالمة رغم أنها عبر الهاتف المحمول وكان يجلس فى المطعم الدائرى الجديد المطل على النيل بصحبة فريح وثلاثة شبان من خريجى كلية الفنون التطبيقية، لديهم مشاريع يقترحون على المؤسسة تبنيها بعد فشلهم فى الحصول على عمل مناسب.

حرص على ألا ينطق بأى لفظ يمكن أن يستنتج منه شخص المتحدث على الطرف الآخر. إنه ما زال فى البداية وأى خطأ يمكن أن يعصف به، يعرف تربص كثيرين، بعضهم بدأ التحرك ضده، الحذر ضرورى، مهما بلغت درجة القرب ثمة أمور يجب ألا يفضى بها، لا تلميحًا ولا تصريحًا. حتى فريح وهو الأقرب يجب ألا يعرف كل شىء، عندما قال له مداعبًا.

«بتخبى على؟»

دفعه فى صدره برفق هين

«كله فى وقته. .»

ابتسامة لينة صاحبت قوله

«كله. . كله؟؟»

مط شفتيه مقوسًا حاجبيه

«كله . . »

للمرة الثالثة اتصلت به، مرة أخرى أوضح لها أمر المنقوع، ذكرها بضرورة الالتزام بمقدار العرعر، والحفاظ على المسافات الفاصلة بين الوصفات الثلاث، لم يعد بحاجة إلى الاتصال بها، تبادر عدة مرات يوميًا، أحيانًا تسأله مباشرة وتبدو اللهفة في صوتها، مرات أخرى تبدأ باستفسار قصى ثم تذكر ما يتعلق بحالتها وكأن الأمر صدفة.

هى أيضًا تحيره، يخشاها كلما ازدادت ثقتها فيه، لكنه يزداد تقربًا منها، يحذر بلوغ تلك اللحظة التى يمكن أن تدرك فيها عبثه وثقل حضوره عندها، أمنه فى اعتمادها عليه، فى كل لحظة يقول لها ما يدفعها إلى التعليق.

«الله . . أنت تعرف كل حاجة !»

سيادته لا يقلق من ناحيته، إنه يؤدى خدمة، ورغم وسامته وملاحة شكله فلا خطر منه، يعرف ذلك ويدركه، لا ينفيه، إنما يؤكده عند أهل الطابق الرئاسى.

لم يعد الأمر قاصرًا عليها، إنما امتد الآن إلى سيادته، الكل يجمع على أناقته خلال الفترة الأخيرة، أما هى فتنتزع من النساء داخل المؤسسة وخارجها عبارات الإعجاب ونظرات الحسد، وبعد عودته من أول رحلة إلى الخارج باعتباره مسئولاً عن قطاع الفيوضات أغلق الباب عند قدومها إلى مكتبه، أخرج علبة القطيفة الخضراء، ورجاها أن تقبل هذه الهدية الرمزية.

أثناء مروره أمام جيرار الفرنسى قرب فندق ريتز لمح هذا الخاتم، بهره فصه الياقوتى، إنه من أنقى درجاته، عندما لمح شعاعه أيقن أن سيدة واحدة فى العالم تستحقه لو لم يجد طريقه إليها لأصبح هذا ظلمًا بينًا.

يعرف أن كل المقدمات تؤدى إلى قبولها الهدية، بعد إقرار اختياره ألوان ملابسها ونوعيتها أزيل حاجز ضخم بينهما، اقترب منها أكثر بعد وصفات الأعشاب التى أثمرت نتيجة سريعة انعكست على ملامحها، لم يذكر لها أسرار التركيبة وتفاصيل التحويجة، أتقن إخبارها بتفاصيل كثيرة لكنه لا يقول شيئًا مهمًا خلالها.

مثلهن كلهن لحظة رؤيتهن الهدايا، مهما بلغت الأنثى من مكانة أو ثروة فالهدية عندها موقع ولها تأثير، اتسعت عيناها، غير قادرة على احتواء الأشعة المنعكسة من الفص الياقوتى الثمين كأنه كوكب صغير فى مداره.

«إنه من بورما حيث أنقى أنواع اليواقيت، اسمه بين الجواهرجية فى مصر شطف النار، أو أحمر دم الحمام..»

قالت بدلال

«بتعرف فى كل حاجة..»

أطرق راضيًا مبديًا الخجل

«من فضلة خيرك..»

إنها مبهورة بخاتم مصنوع حديثًا، له أن يتخيل ذهولها إذا رأت بعضًا من مضمون الخبيئة. لكل خطوة وقعها، زمن خاص ومزاج معين وظرف مناسب.

حتى تعتمد عليه لم يكن يسلمها مقادير الوصفات إلا بحساب دقيق، ما يكفيها أسبوعًا بأسبوع، لم يعد الأمر يختص بها، إنما أقدم بحماس على إعداد وصفة من الترمس المدقوق مخلوطًا بالخردل لفتح شهية أمها للطعام. وزجاجة من زيت اللوز المر مخلوط بمقادير دقيقة من زيت الخروع وزيت الزيتون لعلاج نمش يؤرق إحدى صديقاتها، بل إنه عندما علم بقرب موعد ولادة زميلة قديمة فى الدراسة أهداها زجاجة من زيت الينسون المركز. وفى مرة نادرة خفض صوته متطلعًا إليها ليصف عصير الخس المخلوط بالبقدونس لسيادته، نصف كوب على الريق. وعندما قال إن الفوائد جمة، تطلعت إليه بعينين زجاجيتين لا أثر لأى تعبير فيهما فانتبه على الفور إلى تجاوزه المدى، وحاد إلى موضوع آخر بمهارة، وإن كان على ثقة الآن من تناول سيادته للعصير يوميًا، يمكنه رصد ذلك من ملامحه عندما يراه عن قرب.

فى لحظة معينة أدرك أنه متمكن، مدعوم منها، الأصح أنه قريب جداً.

ما من أمر يستعصى عليه طرقه معها، مفاتيحها بحوزته، الطرق المؤدية إلى دخائلها آمنة، جلية، عند الفجر اتصل بفريح، سأله عما يفعله الآن؟

قال إنه يتفرج على فيلم جميل، أدرك أن فيروز يمر بمرحلة نشوة جارفة، راغب فى المشاركة، لكنه فوجئ عندما قال له.

«هل أنت على استعداد لتتفقد معى الخبيئة؟»

«هل زالت آخر عقبة؟»

لم يجب فيروز بنعم أو لا، إنما قال أمرًا، مداعبًا معًا.

«هات الأولاد وقابلنى بعد نصف ساعة فى المدخل..»

مســـابقة

دعهم يحتفلون.

دعه يزهو بتأثيره وما حققه من اختراق مكين للطابق الثانى عشر ء فليتألق كما يتوهم، لكن تحت يده الآن ما سيصيبه بالخرس، كل ما تردد خلال الفترة التالية على ظهوره إشاعات وأقاويل مؤسسة على ظواهر أو تفاصيل مروية بدون دليل.

الآن.. لديه ما يقطع الشك باليقين، صورة.. صورة حقيقية أبيض وأسود ملتقطة له فى الفراش، وجهه واضح رغم أنه بدون نظارة طبية ء بين ذراعى شاب نحيل، طويل الذراعين والعنق، إنها الأوصاف التى تحركه، قوام منطلق، نحيل كعصا الخيزران وشعر أكرت، وطريقة خاصة فى الحديث والإدلاء.

ليواصل استعداداته للحفل الكبير الذى لا سابقة له فى تاريخ المؤسسة، سيقام تحت رعاية سيادته وسيشهد الجزء الافتتاحى منه، اختيار موقعه بعناية، عند رأس الجزيرة القريبة من تفرق مجرى النيل إلى فرعين، بداية الدلتا، قرب النخلات الأربع النادرة، للمؤسسة أراضٍ خصبة تتجاوز المائتى فدان اشتراها المؤسس فى الأربعينيات، لم يهتم بها

أحد، تركت لصغار المستأجرين الذين يزرعون فيها الخضار الذى يمد المدينة، إيراد هزيل قد يأتى ولا يأتى، اختيار فيروز الموقع الذى لم يعرف أى حفلة من قبل أو مناسبة كهذه ليس صدفة، يريد لفت نظر سيادته إلى فرادة الموقع وجمال المكان، يبدو أنه أضمر نية ما ربما تتعلق بمشروع استثمارى متصل بالخبيئة، سياحى فى جوهره، تفاصيله غير معروفة، لكن ربما كان الحفل مناسبة لعرضه وبذل المحاولة للإقناع به.

ما يحير النمرسى، ضخامة الاستعدادات وحجم المبالغ التى رصدت بسهولة لها من الميزانية العامة، تسوية الأرض غير المعدة، تعويض المزارعين، خمسون فدانًا مزروعة بأجود أنواع الملوخية أتلفت. إضافة إلى الخيمة الرئيسية التى صمم فيروز تكوينها وألوانها بنفسه والمحاطة بسرادقات الضيوف الممثلين لجميع الهيئات المحلية والأجنبية، والموقع الذى ستقدم منه الفرق الموسيقية فقراتها، أما المنصة البللورية فتم استيرادها من سلوفينيا حيث يصنع الكريستال الشهير، لفيروز صديق حميم فى بوهيميا، وصديق آخر يمتلك مصنعًا متخصصًا فى المورانو على الطريقة اليدوية العتيقة، يقع فى قرية قريبة من مدينة فينسيا الإيطالية. طلب من كليهما مساندته وشد أزره وكانت النتيجة تلك المنصة الفريدة التى ذاع صيتها فيما بعد.

لم تعرف تكاليف الحفل على وجه الدقة، رغم أن البعض بذل محاولات فى إتجاه الأجهزة الرقابية لكن مالا يعرفه هؤلاء السذج أن المعلومات لا تخرج إلا بقرارات سيادية وطبقًا لظروف معينة تحددها اعتبارات بعضها خفى ومعظمها ظاهر، لكن التساؤل الذى عم وجال بخواطر الكافة: إذا كان مجرد الاحتفال بترشيح المؤسسة للدورق الذهبى

أقيم له مثل هذا الحفل المكلف، فكيف يكون حفل تسلم الجائزة إذا تم الفوز وتحقق.

فيروز رد على منتقديه عبر وسائل مختلفة ومن خلال بعض أصدقائه فى وسائل الإعلام المحلية والأجنبية، وبعد أسبوع من الحفل أعد ملفًا تضمن كافة ما نشر من أخبار ومقالات وصور، وحرص على توضيح المنشور كأعلان مدفوع من ميزانية القطاع، والكتابات الخالصة، وذكر فى تقريره الذى رفعه إلى الطابق الثانى عشر أن ظهور خبر مصور فى السى إن إن لمدة نصف دقيقة ضمن النشرة العامة يحدث لأول مرة، وأن التقدير المادى لا يمكن تحديده أما المعنوى فلا يحد.

يعجب النمرسى لتوافق الظروف. فى ذروة ردود الفعل التى جرت بعدما أشيع عن الحفل الجماعى الذى جرى فى الغرفة المقدسة للخبيئة، دعا فيروز صاحبه فريح والثلاثة المعينين، وأتوا مالا يجرؤ أحد على تخيله، انفلت كل منهم مما يوثقه أو يؤطره، فشربوا وأكلوا وأطلق كل ما يريدمن صرخات، وأتى بما يشاء من حركات وهتفوا على عمق سحيق بسقوط كل ما يتصوره عقل ولا يجرؤ عليه إنسان، بل إن أحدهم ولعله فيروز نفسه بال طويلاً على باب الخبيئة، الباب النهائى الذى لم يشأ أن يفتحه إلا فى حضورهما، الجلاديوس وسيادته، بل إنه يخطط لتدبير خلوة لهما إذا راقت الفكرة لأحدهما، خاصة هى التى يقدر على مصارحتها.

مثل هذا الحفل اعتاد فيروز دعوة أصحابه إليه على فترات، يقيمه دائمًا فى أماكن نائية، معزولة، ويسميه «إطلاق العنان» حيث يدعو كل شخص أن يفعل ما يرغب، ما يشاء، ما لا يقدر على إظهاره أمام الكافة.

الوحيد الثابت هو فريح، لكن المدعوين الآخرين يتغيرون طبقًا للظروف. مرة من الداخل، مرة من الخارج، مرة مقيمين، مرة عابرين، لكنهم فى جميع الأحوال، ذكور، وبينهم حميمية، لكن شرط الحضور التخلى أيضًا عن الخصوصية، فيمكن لصاحب أن يأتى أو يؤتى من صاحب غيره بدون إختلال أو إبداء احتجاج.

فى هذا الحفل الذى سرت أخباره وانتشرت، بالطبع بولغ فى التفاصيل، ورويت وقائع كثيرة لا يدرى أحد الحقيقى من الزائف فيها؟، حضره الثلاثة. المناسبة فض جميع المغاليق والأرصاد المؤدية إلى الخبيئة، جميع الذين استعان بهم فيروز أجانب، وبالتحديد من إيطاليا والنرويج، أدى هذا إلى استياء بعض العاملين فى مواقع أمنية سيادية، رفعوا احتجاجات إلى القيادة السياسية منبهين إلى الأخطار المحدقة بالخبيئة، ما يذهل النمرسى أن ذلك لم يؤد إلى أى ردود فعل من الطابق الثانى عشر، كأن شيئًا لم يحدث رغم أن مثل هذه الاحتجاجات فى وقت قريب كانت تثير رجة، يبدو أن قدسية الخبيئة تآكلت، بل ذوت إلى الأبد، وأن الأمر يتغير الآن من الحفاظ عليها لصون الكيان إلى الاستفادة منها، وإن هذا كان يقتضى الخروج عن أطر راسخة لم يكن ممكنًا اختراقها إلا من خلال فيروز الذى لا يعبأ بشىء راسخ أو يتفق عليه الجميع، بل إن ملاحظات المدرسين القدامى الذين عرف العلم على أيديهم تؤكد رغبته الدائمة فى الخروج عن الإجماع، وكثيراً ما أبدى خلال المناقشات الدائرة رأيًا مغايراً يصر عليه وينفعل ثم يفاجأ المدرس أن رأيه الحقيقى مغاير لما أعلنه وكاد يؤذى بسببه.. عجيب!

كلما عرف النمرسى عنه تفاصيل جديدة ازداد حيرة، إنه فى مواجهة

خصم غير تقليدى بالمرة، ليس لأنه شاذ، ولكن لشذوذه عن كل مألوف، لا يتعلق الأمر بجسده أو ميله وتعلقه بجنسه، لكن بسلوكه، بمفهومه، برؤيته، بافتقاده الحرص على أى شىء، باختراقه حدوداً لم يتوقع أحد وجودها، فما البال بتلك المعروفة!

إنه فى مواجهة حال صعب، بقدر ما يمقته، بقدر ما يضبط نفسه معجبًا به، ما قام به تجاه الخبيئة آلم الكثيرين، إنه يمس أموراً معنوية لها قدر ومنزلة عند الناس، أشياء يزهو معظمهم بذكرها، وتشكل عمقًا روحيًا لوجودهم وسعيهم، لكن ما جدوى هذا فى مواجهة عالم صعب، السيادة فيه لسعر الدولار وأحيانًا اليورو والين، والصادرات والواردات والميزانية العامة والصادرات والواردات، هؤلاء الآلاف المنتمين إلى الأنشطة الظاهرة، كيف سيتصرفون إذا لم يجدوا مرتباتهم أول كل شهر، إن الاستقرار المتين الذى ساد لعقود بحيث أصبح من المسلمات المفروغ منها يتقلقل الآن.

يخطط النمرسى أشكالاً على الورق يصعب على غيره الاستدلال منها على شىء، لكنها تعكس حيرته وعدم فهمه لما يجرى، هل سيتوقف مصير هذا الكيان على مساعى فيروز وقراراته ومشاريعه المفاجئة، فى البداية استهدف تمتين نفسه وتقصير المسافة بين فمه وأذن سيادته، لم يعد بينهما وسيط منذ أن بدأت جلسات الفيلم التى يبدو أنها لن تنتهى قريبًا، مالا يجرؤ على قوله يمرره من خلال الجلاديوس، لكن أخطر ما جرى بالفعل تمكنه من ملابس سيادته، إن من يحدد الألوان والطرز يعنى تواجده داخل المعنى طالما أنه يرتديها ويتحرك بها، فكرة فعالة، نافذة، لا يملك إلا الإعجاب بها مرغمًا، لكنه فى

نفس الوقت مضطر إلى كسر شوكة فيروز، إلى الحد من جموحه مؤقتًا وإصابته بضربات متتالية تمهيداً لإقصائه قبل تمتين صلاته بجهات لا قبل لأى مسئول هنا أن يقاومها.

الحفل الجماعى الذى أقيم فى قدس أقداس الخبيئة أمره ذاع، وبدأت الإشاعات والهمسات تتحول إلى تلميحات وأشارات فى الصحف المستقلة. ما لم يقدم عليه حتى الآن تسريب الأنباء إلى الوكالات الأجنبية، إنه ملتزم بتراثه القديم، جوهره الحذر من الأجانب أو التعامل معهم مباشرة فى الأمور الحساسة، رغم معرفته الوثيقة بجميلات قدمن خدمات جليلة، ورغم يقينه من نشر بعض الأخبار فى الصحف الغربية التى يلقى كل ما ينشر فيها أصداء واسعة واهتمامًا خاصًا عند سيادته.

إنه ليس بعيد عما ينشر حول فيروز وصحبه، لكنه يقوم بذلك فى إطار حذر شديد، إنها المرة الأولى التى يقوم فيها بمثل هذا النشاط، أن يستخدم عناصر من الخارج للتأثير فى الداخل، ما يجرى مخيف رغم كل شىء، ما أنفق على حفل الترشيح للدورق الذهبى كان كفيلاً بافتتاح مشروع جديد يكفل العمل لعشرات من أبناء العاملين الذين لا يجدون فرص عمل، رغم تفوق معظمهم وإتقانهم المهام، لكن الفرص معدومة، يقول فيروز إن عائد هذا الحفل سيظهر للجميع فيما بعد، أى بعد؟ . . كل ما يعلن عنه أفكار مجردة ترتبط بمراكز وقرى بعيدة، نائية، عندما لم يجد صوتًا يرتفع بالحساب أو الاحتجاج، أو بالتحديد عندما لم يواجه بموقف ينم عن استياء أو عدم رضى من جانب سيادته تشجع وأقدم على خطوة غير مسبوقة، إذ بث بيانًا على الشبكة الداخلية يؤكد فيه أن الحفل لاقى أصداء واسعة، وأن المؤسسة فى بؤرة الضوء العالمية الآن،

ليس هذا فقط . . إنما تم جمع تبرعات من الأثرياء الذين شاركوا غطت التكاليف وزادت على الانفاق الخاص .

كلام عام ، مجرد ، لا تفصيل فيه ولا تحديد ، قاله فى البداية ثم راح يكرره بل انتقل إلى مرحلة الهجوم واصفًا كل معارضى حفل الترشيح بافتقاد الحس الحضارى المستحدث .

المؤكد أن الجلاديوس أعجبت بالحفل ، خاصة عند تقدمها من المنصة البللورية مرتديه لباسًا أنيقًا ، جميلاً أثار إعجاب الحاضرين ، ثم ألقت كلمة العاملين بتؤدة ونطق فصيح ، كلمة كتبها فريح القتات وشكل حروفها بالأحمر حتى لا تخطىء ، ولم يكن إتقانها إلا حصيلة ذكاء وقاد وجلسات ثلاث مع فريح ، أهم ما نتج عنها إرتياحها إليه وبدء ثقتها به ، مما أسعد فيروز كثيراً ، يبدو أن الحالة الافتتاحية الاحتفالية لاقت عندها هوى إذ نما إليه خبر يقين بقرب تنظيم احتفالية بمناسبة توقيع عقد بحرى تقوم المؤسسة خلاله بتموين سفن الاسطول السادس العاملة فى البحر الأبيض بالمواد الغذائية وهذه نقلة ليست هينة ، أين ذلك من أيام استيراد السفارة الأمريكية طعام العاملين بها وشربهم من دول البلقان؟ ، كذلك تقديم الوقود الفعال اللازم لتسيير القطع الكبرى من حاملات الطائرات والبوارج والمدمرات .

العقد موقع منذ ثلاث سنوات ، لماذا الاحتفال به الآن؟ ، لم يعلن عنه فى وقته بناء على رغبة الجانب الأمريكى لاعتبارات أمنية ، هل حدث تراجع؟ أم أن فيروز يتصرف على هواه؟ ولماذا يعيد الأساليب الشمولية عندما كان الاحتفال بافتتاح جسر أو مصنع يتم عدة مرات للايهام بوجود حركة مما دفع الخلق إلى التندر ، لكن الأمر هذه المرة مختلف ، واضح أن

الحفلة هدف فى حد ذاته، ليس للافتتاح، ولكن للحفلة، ما جرى خلال الفترة التالية لم يتوقعه.

يمكن القول إن النمرسى يتلقى يوميًا من جهة فيروز ما يثير دهشته، اليوم علم بأمر المسابقة، لم يفق من بدعة الاحتفالات حتى فوجىء بمسابقة التوظف، حقًا. . وسائل فيروز متقنة، متطورة.

إعلان من أمانة الخبيئة فى الصحف التابعة والمناوئة عن الحاجة إلى وظائف من الجنسين لخدمة الخبيئة فى المقر المركزى وفروعها فى الصعيد وامتدادتها غير المعلنة فى البلاد المجاورة.

تفشى البطالة أمر واقع منذ سنوات بعد فض التزام قديم بتعيين الخريجين، كان ذلك من صميم المؤسسة وجوهر التزاماتها، لكن جرى التراجع عنه على مراحل بدعوى عدم اتفاق ذلك مع الاقتصاد الجديد القائم على الالتزام بمبادىء العولمة.

كثيرون لا يصدقون ما ينشر من إعلانات بعد اكتشافهم أنها مصيدة أو للتعمية، بعض النصابين استغلوا الأوضاع واستثمروا البطالة، تتضمن الشروط تحرير استمارة يدفع مقابلها ثلاثة جنيهات أو أربعة أو خمسة، مبالغ تبدو متواضعة بالقياس إلى قيمتها الآن، لكن عائدها كبير مع ضخامة مجموع المتقدمين، ثمة أخرون يعلنون عن فرص متاحة للهجرة إلى كندا وأستراليا وقارة انتركاتا وبالطبع الولايات المتحدة، المطلوب تحرير استمارة من أصل وثلاث صور بعد تسديد قيمتها عشرة دولارات، فقط عشرة دولارات، مبلغ يبدو زهيداً، لكن إذا ضرب فى عدة آلاف، لنا أن نتخيل. ثمة مكاتب تعلن عن رغبتها فى اكتشاف وجوه جديدة

للعمل فى السينما والمسرح، من أطرف مالفت نظره جمعيـة تعلن عن مساعدة المطلقات.

لكن هذا كله كوم، وحيلة فيروز وصاحبه كوم!

بعد نشر إعلان واحد عن الوظائف الشاغرة بأمانة الخبيئة تقدم آلاف من مختلف التخصصات، جرى اختبارهم على ثلاث مراحل، انتهوا إلى خمسمائة بعد التصفيات المتوالية.

يمكن القول إن فريح قته شارك فى المرحلتين الأولى والثانية، كان يجلس صامتًا، يتأمل الشباب، يتفحصهم بهدوء، من يلفت نظره يوجه إليه استفساراً، إلى جواره ثلاثة يمتون إلى هيئات خارجية طبقًا لما تقضى به اللائحة القديمة، لكن هدوء فريح البارد، نظراته الراسخة، تؤكد أنه العنصر المؤثر. كان يتأملهم بعينى صاحبه ومذاقه.

فى المرحلة الثالثة جاء فيروز بنفسه، فوجىء المتقدمون به، بعضهم يعرفه لظهوره المتكرر فى التليفزيون خلال الفترة الأخيرة، يتحدث عن أنشطة القطاع وخاصة أمانة الخبيئة، تفحصهم، دون بعض الملاحظات، أحيانًا يشير بالاقتراب، لا يوجه أسئلة، إنما يدقق النظر، أومأ مرات، ويبدو أن تلك الإشارات تعنى شيئًا ما إلى صاحبه إذ سرعان ما يقدم على التدوين!

الجلاديوس اتصلت به مستفسرة عما يشاع وما تضمنه منشور سرى وصل بعض العاملين بالبريد مؤخراً ولم يتضمن أى مظروف إشارة إلى مصدره، قال إن المشككين والمغرضين لا حصر لهم، خاصة فى مواجهة الخطوات الجريئة التى اتخذت مؤخراً والتى لم يكن سهلاً الإقدام عليها

لولا مؤازرتها ومساندة سيادته. قال إن العمل فى الأقسام التابعة لأمانة الخبيئة يجب أن يتم بمواصفات معينة، بحيث يستدل الأجانب والمتعاملون عليها بسهولة، لذلك كانت مشاركته، وليس لتحضير أى اسم بسبب توصية مسبقة من قبل أى مسئول أو جهة مؤثرة.

النمرسى بداخله دهشة وغيظ، إنها المرة الأولى التى يتم من خلالها استغلال المؤسسة علانية فى غرض هكذا، هذا جديد عليه، يعرف أن الإيقاع بالإناث أسهل، العمل فى سبيله مبرر، منطقى، طبيعى السعى للتقريب بين رجل وامرأة، الذكور أصعب، يتطلب الأمر مرانًا وفراسة، خاصة المراحل المتقدمة فى العمر، المهمة سهلة قبل الرابعة عشر أو العاشرة، هنا تتعدد وسائل الغواية. مع قلة الخبرة بالعالم، إما للجهل بالحقائق أو حسن النية أو تعقد الظرف.

فيروز وصاحبه بدءا منذ فترة مبكرة، لا يعرف بدقة بداية فيروز لكنه من الرائج أمرهم، الشائع خبرهم، جمع تفاصيل شتى عن فريح، بشكل ما يتعاطف معه، إنه ضحية اغتصاب، والمرء يعتاد ما حدث له، بتجربته مع الآخرين اكتشف أن الأوضاع والعادات التى يفضلها البعض إلا محصلة الخبرات الأولى وهذا يطول الحديث فيه. أما فيروز فأمره مختلف، مغاير، لم يسمع بمثله، ما يصدر عنه مثير، داع للتأمل، وأحيانًا ينتبه فجأة إلى إعجابه لما يصدر عنه، جنوحه وما يصدر عنه بغتة واندفاعاته وخرقه المألوف يدعو إلى الفحص.

ليس مستريحًا لاهتمامه بهما. تجنب دائمًا الاقتراب من أمثالهما، مرة واحدة فقط، مرة واحدة لاغير اضطر عندما سعى لتدبير غلام دون الخامسة عشرة، أقنعوه بما سيعود على الجميع نتيجة إرضاء هذا المسئول

الذى يمت إلى دولة شقيقة، صديقة، مؤثر فى صنع القرار هناك، عندما ألمح أحدهم إليه بعد مضى عامين، صاح غاضبًا.

«أنا ما باشتغلش فى العيال..»

باستثناء تلك الواقعة الفريدة، لم يبذل جهدًا إلا فى اتجاه رجل وامرأة، إلى جانب الفوائد العامة، لديه دوافعه الخاصة، يهوى الاطلاع على دقائق الأمور، مهووس بما يجرى، بدءا من انفراد الانثى بالذكر، تدرج الحال، الحركات والألفاظ المنطوقة خاصة فى نهاية الشوط وبلوغ الأوج، يدقق ما يلفظ من كلمات، يصغى إلى التسجيلات مرات، يدون، على مدى سنوات لديه أكثر من خمسين كراسة، وآلاف القصاصات، تصرفات شتى، لو نشر ما جمعه لعرف الناس مالا يتصوره أحد منهم!

الآن، مضطر إلى التعامل والاهتمام بفيروز وصحبه، لا يرأس قطاعا مؤثرا فقط إنما يدفع بأمثاله إلى المواقع المؤثرة، لم يتردد ولم يحسب عندما قرر إسناد أمر الخبيئة إلى صاحبه، ثم الإعلان عن المسابقة ليختار من يلائمه، إنه يواجه ظاهرة جديدة وليس فردًا.

اليوم.. سمح بمنشور آخر يجرى تداوله سراً، لم يعرف محتواه بعد، لكن دلالة ظهوره وتداوله، ما يخشاه تلك التيارات التحتية التى لا يعرف أحد بالضبط من أين تبدأ وإلى أين تنتهى؟

طوال خدمته لم ينغص عليه إلا تلك الأنشطة السرية، يعرف أن المؤسسة ضمت أصنافًا لا حصر لها، لكل رؤيته ومكوناته، بعضهم أمضى وتمادى لكن.. جرى هذا كله داخل الإطار، الآن يختلف

الوضع، ثمة مفترق يلوح، لم يحدده بعد، لكن الكل متجه إليه، قوة غامضة تدفعهم، عندما تغمض الأهداف هكذا تواجه المؤسسة أخطر ما يتربص بها، يثق الآن من ترتيب لمجيء فيروز، لم يحدث خطأ، ولن يتم تصحيحه، ربما لم يجر التخطيط له بدقة، لكن ثمة خاصية للكيان، الكليات فيه تحدد التفاصيل، واضح أن الخبيئة هدف منذ فترة ليست قليلة، ربما يقلق وجودها البعض، ربما آن لكمونها أن ينتهى، بالتأكيد جهات وهيئات أجنبية ذات فعالية ونفوذ تهتم بها، لكنها لم تدخل فى دائرة النقاش، لا تصريحا أو تلميحا طوال المراحل المتعاقبة.

ظهور فيروز المفاجئ وتلك الجرأة التى يتحرك بها تعنى شيئا ما، لا يمكنه تحديده أو تعيينه، المنشور الثانى يتحدث طبقا لما بلغه عن انتهاك الخبيئة، عن الاستعانة بأجانب ناصبوا المؤسسة العداء سنوات طويلة لفك الرموز التى لم يعرف مفاتيحها إلا البوريمى.

لم يتعجل الحصول على المنشور، إذ شغله الأهم، أخيرا وضع يده على ما سيوجع فيروز، العمل ضده ضرورى الآن، كبح تدفقه واندفاعه بلا ضوابط ظاهرة أو خفية، هذا عنصر مهم له علاقة بحفظ التوازن بين الكافة لضبط الإيقاع بما يحقق الامتثال الأقصى للطابق الثانى عشر، التقدم بقدر، والصعود بحساب، وما من ملامح يجب أن تظهر فى الصورة أكثر من سيادته، صحيح أنه محتجب معظم الوقت، لا يدلى بحديث، ولا يظهر فى أى محطة فضائية، ولا يعرف الناس ملامحه إلا من صورة وحيدة معتمدة بالتأكيد تختلف كثيرا عن حقيقته الآن، أما ظهوره فنادر، لذلك يدعو فيروز الآن إلى اعتبار اليوم الذى نزل فيه إلى المقر لدعمه ومؤازرته عيدا للخبيئة، بدأ التخطيط لاحتفالية مبرمجة تقام

فى الذكرى الأولى لظهور سيادته عند المدخل المؤدى، هذا حدث لم يشرف به أى قطاع.

فكيف يدعه يفوت؟

هذه الصور الحية الواضحة ستمثل أول صدمة لفيروز، الحصول عليها كلفة جهداً ليس بالهين، مضاجعة، تبدو ملامحه واضحة، ينحنى الآخر فوقه، ما أدهش النمرسى وضعهما!

لم يتخيل بعد خبرته الطويلة تلك أن يرى ما يمكن أن يثير عجبه، ربما لاهتمامه بالعلاقات السوية، رجال مع نساء، لكن لم يهتم بتفاصيل العلاقات بين ذكر وذكر، أما الأفلام الخاصة التى رآها فمعظمها لنساء يتساحقن، إنهما متواجهان، فيروز يستلقى على ظهره مفسحاً ساقيه للآخر، الوضع الطبيعى للذكر مع الأنثى، أيضاً. تلك القبلات المحمومة، لم يعرف لها مثيلا بين أشد النساء إثارة وأقدر الرجال، قبلات التهامية، كأن شفتا فيروز ستختفيان فى فم الآخر الذى لم يتعرف على شخصه، رأى الشريط مرات ليدقق ما فاجأه، ما استجد عليه.

بنفسه تولى طبع صور فوتغرافية لأشد اللحظات إثارة، صور تتضح فيها الملامح، بشكل ما وصل مظروف مغلق إلى فيروز، لا زوردى اللون، يحمل شعار المؤسسة، هذا يعنى ضرورة فتحه بنفسه، إما أنه وارد مباشرة من الثانى عشر، أو يتضمن وثائق مهمة من مسئول قطاع إلى مسئول قطاع آخر، مكتوب عليه «خاص جداً».

لم يبد عليه أى رد فعل عندما رأى وجهه فى لحظة حميمة، قرأ الجملة المكتوبة على القصاصة المرفقة.

«ما رأيك فى نشر الصورة، أو . . إذاعة الشريط الأصلى؟»

على الفور تناول سماعة الهاتف، استخدم الطريقة العادية فى الاتصال.

يعرف أن أسمه سيظهر على الشاشة الصغيرة عند الطرف الآخر.

«وصلتنى الصورة، لكنك لم توضح المجلة أو الجريدة

التى ترغب فى نشرها على صفحاتها، أو . . المحطة الفضائية،

أم تريدها محلية؟».

بدا النمرسى هادئًا إذ يتساءل:

«أى صورة . . فيروز بك؟».

يستمر فيروز

«إذا أردت نشرها كخبر عندى أصدقاء يسهلون لك

وإذا أردتها أعلانا فأضمن لك خصمًا كبيراً . . »

فى اليوم نفسه وصل إلى النمرسى قرار مؤسسى، سيعلق غدًا فى اللوحة الرئيسية عند مدخل المقر الرئيسى، وسيتم بثه فى شبكة الاتصالات الداخلية كل نصف ساعة.

يدرج اسم فيروز بحرى وفريح قته أمين عام الخبيئة ضمن العشرة المحظور مراقبتهم، أو رصد تحركاتهما، أو تسجيل مكالماتهما لأى سبب حتى لو تعلق الأمر بالوثائق والسجلات، مع تخصيص عربة حراسة ترافق المسئول عن الخبيئة.

درب

عندما أصغى إلى صوتها نسى كافة ما سمعه اليوم من أمور مثيرة، فشا أمرها وأشاعت اضطرابًا، مثل الحديث عن تنحية النمرسى وقرب اتخاذ إجراءات ضده، لانحرافه عن المهمة المحددة المسندة إليه ولسوء استغلاله الثقة الممنوحة له، أو ظهور البيومى المفاجئ قرب المدخل الرئيسى، وصياحه بصوت قوى، مشيرًا بأصبعه إلى الطابق الرئاسى، ما قاله اختلف العاملون فيه، ويبدو أن كلاً منهم فسره طبقًا لما يراه أو يرغبه، لم يستمر ظهور البوريمى طويلاً، انصرف بخطى مضطربة وكتف مائل قليلا، وظهر فى بعض الميادين الرئيسية زاعقًا، منبهًا ومنذرًا لما يحدث للخبيئة، قيل إن أكثر من جهاز أمنى اهتم بأمره، وبدأت بعض الهيئات الأجنبية تنتبه إليه، إنه جزء من الخبيئة، ألم يقضى عمره مجاورًا لها؟

لم يتوقف الميدومى ليتحقق من تلك الأمور التى تعنيه للغاية، إذ إنه انتظر ذلك الرنين من مدة غير قصيرة، حتى ظنها نسيته وطوت أمره، ياه.. لكم سر لسماع هذا الرنين المبارك المؤدى إلى سماعه صوتها، كما توقع حدث خلل فى الحوض الألمانى، عندما ولج البيت بدا فراغه راكدا، باردًا، ظلاله أعمق، أما هى فازدادت نحولاً، انتبه إلى صور

عديدة لابنتهما الراحلة، لقطة واحدة، كل الإطارات فضية، يعلوها شريط حريرى أسود، هل رأى تلك الصور من قبل؟

من المؤكد أن بصره ألم بها. هنا فى البيت، والأخرى فى المكتب، إلى يمين سيادته، لمحها خلال المرات القليلة التى دخل فيها لعرض بعض المذكرات العاجلة، أو لتلقى تعليمات محددة لينفذها، لو أحصى الفترات التى انفرد به لما تجاوزت عشر دقائق على امتداد سنوات، دائما يقف فى انتظار توقيع أو لتلقى ملحوظة، لم يجلس أمامه قط، الآن يحظى فيروز بساعة على الأقل يوميا، بينهما جهاز تسجيل متطور، سيادته يقص عليه تفاصيل ما مرّ به وعرفه، ما سيقوم عليه الفيلم، طبعا الحديث عن حياته لا يستغرق كل الوقت، إنها فرصة فيروز السانحة التى مهدت لها الجلاديوس، لم يسبق هذا لأى شخص.

أمام المقر صاح البوريمى.

«انتبهوا إلى ما يحصل فوق!»

لا يدرى ما ينتظره، يبدو المستقبل غامضا أكثر من أى وقت مضى، ليركز الآن فى إصلاح الحوض، على مهل أقدم لكن بعناية ظاهرة ودربة، وضع يده على مسببات قلة الدفع النفاث لتيارات الماء التى تدغدغ العضلات، قال إن الأمر يقتضى توفير قطعة غيار معينة، لا تزيد عن حجم القرش صاغ الستينى، تشبه صامولة مسدسة، معدة بشكل معين، من معدن بطل استخدامه حاليا، قال إنه سيمضى إلى سوق الرويعى ناحية العتبة، إنه ملم به، بمتاجره، وثيق الصلة بالتجار، اقترح خطة لتطويره، لكن قطاع الأسواق لم يعتمد الفكرة حتى الآن.

السوق متخصص فى ماكينات الحياكة الحديثة والقديمة بشتى أنواعها ، خاصة ألمانية الصنع من طراز سنجر ، كذلك الأقفال ، سواء الداخلة فى تركيب الأبواب أو المفردة ، به كافة أنواع المقابض ، اللازمة لأبواب القصور ، والبيوت العادية فى المناطق المتوسطة أو الفقيرة ، سائر الطرز من العتيق إلى الإلكترونى المتطور ، من عاداته التى يحرص عليها التجول ساعات كل أسبوع ، الفرجة على الماكينات القديمة وتفحص الأقفال ، تجربة الفتح والإغلاق .

أبدت دهشة ، للمرة الأولى تسمع عن مثل هذا السوق ، تعليقاتها مقتضبة ، لكن ثمة فضول يضفى عليها حيوية ضئيلة ، لمعة عينيها تنبئ بأنثى ماتزال حية ، كامنة ، مقموعة ، غير متاح لها ، لكن ذهن الميدومى لم يحم به أى خاطر فى هذا الاتجاه ، ليس لأنها قرينة سيادته ، إنما لافتقادها ما يمكن أن يثيره عند استدعائه ، جسدها مقدد ، بدون بروز أمامى أو خلفى ، مسح ، كأنها عمارة بدون شرفات أو أفاريز ، قال إنه يمكنه مصاحبة سيادتها إلى هناك للفرجة ، هزت رأسها بما يعنى استحالة ذلك ، قال إنه إذا لم يجد الصامولة فى سوق الرويعى سيتجه إلى الحرامية ، سُر عندما أبدت دهشتها ، ملمح مغاير بدا على هيئتها الجامدة ، حرامية؟

قال إنه سوق قديم ، لا يعرف أحد أصله ، متى بدأ؟ ولماذا حول ضريح الإمام الشافعى ، فى الأزقة والدورب المؤدية إليه ، يبدأ عند طلوع الشمس وينتهى قبل صلاة الجمعة ، معروف أمره ، مخصص لبيع المسروقات والبقايا ، بدءا من الحيوانات والطيور والكلاب حتى الأفاعى والحمام والقرود حديثة الولادة والمدربة ، إلى البطاريات الجافة التى نفد ما بها من مواد ، والولاعات والحواسب الآلية ومصابيح يدوية وأجزاء من

دراجات، وآلات تنبيه، كل ما تخيله موجود، مذياع قديم، صنبور أثرى، بوق لفونغراف، أسطوانات أو أجزاء منها، أغطية أجهزة تسجيل ولوحات قيادة سيارات، أصص زهور فارغة، سماعات طبية مختلف أحجامها، أجهزة طبية بطل استخدامها، فوارغ مقذوفات وأعيرة نارية صدئة، علب سجائر لأنواع مجهولة، بقايا أعواد بخور اشتعلت وفاحت رائحتها يوما، أجهزة أشعة، هوائيات، مواسير مدافع، أجهزة تصويب، أصص من خزف تركى، بلاطات فارسية، مراوح سقف، أجزاء من قطع أثاث، أبواب لمبان لم يعد لها وجود.

لكل بضاعة زبونها، لذلك يختلف المترددون عليه، يصل إليه البعض فى العربات الفارهة، آخرون يسعون مشيا على الأقدام مسافات بعيدة، يذهب للفرجة والمعاينة، يقع أحيانا على نوادر، آخر ما عثر عليه مجموعة أسطوانات طبعت فى العشرينيات لمطربين لم يسمع عنها أحد، لحسن الحظ أنه اقتنى منذ سنوات جهاز استماع، بطل استخدامه ودخل فى عداد التحف، وربما انتهت الشركة المنتجة، لم يعد لها أثر، قام بفكه وتركيبه ليفهم ويستوعب كل جزء فيه، وليمكنه إصلاحه إذا تعطل. لكنه لم يستخدمه إلا مرات معدودات، صوته نقى، يتقن تنظيف الأسطوانات، إذا طرأ عليه خلل يصلحه بنفسه، لو علم به أحد هواة التحف لعرض عليه مبلغا، لكنه يأبى، لم يعتد التخلى عما يقتنيه، يحتفظ بجميع الوسائل التى تصله، وفوارغ زجاجات الأدوية، علب المربى والسردين المحفوظ وزجاجات البيرة، إنه مشغول بقضية التغليف، من أهم إضافات سيادته قطاع التغليف، انعكس أثره على سائر فئات المجتمع، ذلك أنه لم يحظ باهتمام كاف سواء فى العصر الليبرالى،

أو الشمولى ، كثيرا ما ضرب مثالا بورق لف اللحم الثقيل ، الخشن الردىء ، وأوراق الكراريس المستعملة ، والكتب القديمة ، يؤكد أن تخلف أساليب لف البضائع من الأسباب التى عجلت بانهيارالاتحاد السوفيتى .

تفيض ملامحها بالاستفهام ، الفضول الصامت . .

يمعن فى الحكى ،رواية أدق التفاصيل ، يثق أنها تسمع منه أمورا عن المؤسسة لا تعرفها ولم تلم بها ، فضولها قوى لكنها تتظاهر باللامبالاة .

تحرص على إبقاء مسافة ، لا بأس ، المهم أن يظل على مرأى ومسمع ، على أى وضع تقبله ، يكفل لديه القرب ، يقص عليها أنباء مدينة تعيش فيها وتجهلها ، لا تعرف ناسها إلا فى الحفلات العامة والمناسبات العابرة .

منذ فقد الابنة الوحيدة تؤثر العزلة ، تخرج فى الصباح الباكر منفردة لتمشى فى النادى ، الرياضة الوحيدة التى تتقنها ، تتريض بمفردها ، لا تخاطب الحراس ، الكل يعرف ضراوة ثكلها وحزنها المتجدد على ابنتها .

الوحيد الذى يمكنه الاقتراب منها ، حسين حارس حديقة الأطفال بالنادى ، إنه أقدم العاملين ، لم تأنس المرحومة إلى غيره ، يمكنه مصافحتها ، والاستفسار عن الباشا ، تومئ إليه إذ يرفع يديه داعيا الله أن يرعاها ، أن يحقق لها الستر الجميل والسداد .

لم تسمح لأى إنسان بتقبيل الغالية عداه ، تعرف أن الأطفال يستكينون إلى من يؤثرونهم ويطمئنون إليه ، كانت تقول لزوجها إنها تحب وتثق بالمطرب عبدالحليم حافظ ، ليس لجمال صوته أو فرادته فى الغناء ، إنما لرؤيتها الصغار يقبلون عليه ، عاينت ذلك بنفسها فى بداية إقامتها بمصر ، فى سهرة عند صاحب غاب عنها اسمه ، رأت طفلة

لا يزيد عـمـرها على أربعـة أعـوام، أى تكبـر المرحـومـة بثـلاث سنوات وبضـعـة شـهـور، توقـفت عند مـدخل القـاعـة، جـالت بنظرهـا بين الحاضرين، حسمت أمرها بسرعة، اتجهت صوب عبدالحليم، استكانت بين ذراعيه مع أنها تراه لأول مرة، قالت لسيادته عند انصرافهـما، هذا إنسان داخله سليم، مطمئن للكافة.

قـال إنه مطرب شـهيـر، قـالت إن ذلك لا يعنيـهـا، لكنهـا تعـرف أن الأطفال مثل الحيوانات، إحساسهم قوى بالمكنونات!

أحيانا تقبل على عم حسين، بنفس الهيئة التى كانت تبدو عليها الغالية إذ تلمحه، كأنها تعيد ما كانت تفعله لو أنها تسعى.

حتى الآن تحتفل بعيد ميلادها، تشعل شـمعات، تأتى بهـدية ملفوفة وزهـور رقـيقـة، ترص كل شىء كأنـهـا تنتظـر عـودتها أو اسـتيقـاظهـا، وإذا تأكدت أنهـا بمفردها يخرج صوتها مسمـوعا، منغما، آمرًا أو راجيًا أو مداعبًا. .

«تعالى هنا. .»

«شيلى الطبق من هنا. .»

«أصحابك. . متى يجيئون؟»

أحيانا يتخاطبان بالفرنسية، تدخل إلى المطبخ، تعـد الكعكة المفضلة، المحشوة بالبلح الجزائرى الشفاف مثل الكهرمان، يجيئها من تيزى أوزو، لا تجيب رنين الهاتف، لا تصغى إلى نداء، تؤدى كـافة التفـاصيل، تمـامـا كما اعتادت فى المناسبات المرتبطة بها.

وحدتها ثاقبة، لم يتصور عزب أنها إلى هذا الحد، لم يكن حرصها على سلامة الحوض الألمانى لندرته، إنما لقضائها الساعات بمفردها مستسلمة لدغدغة الماء، أو محملقة فى السقف، مدثرة بالصمت.

إنها بحاجة إلى الإصغاء، أن تسمع ما يحدث فى الواقع القريب منها والبعيد أيضا، يحاذر إبداء التعاطف معها، أو التلميح حتى تبدو فى وحدتها شبيهة به، وحدته متكاملة، لم يتزوج، لم ينجب، لا صلة له بأقاربه، وحيد، مقطوع، منبت، رتب أموره وهيأ أوضاعه، لكنها تبدو بعيدة بحزنها المصمت، فى كل الأحوال يجب ألا ينسى موقعه مهما بدت الإغراءات أو تقلصت الدرجة الفاصلة، لا يستفسر منها، إنما يستنتج ويربط.

حدثها عن سوق البراغيث، قديم، قرب ميدان العتبة، ما بين شارعى الأزهر والموسكى، مخصص لبيع وشراء الملابس القديمة، لا توجد متاجر، إنما الكل يقفون بالساعات، أولئك الذين يتاجرون أو الساعون إلى بيع ما لديهم.

لماذا اسمه البراغيث؟

لا يعــــرف

أما سوق الجمال فأقدم، تجىء القوافل عبر درب الأربعين من السودان، اهتم المؤسس بهذا الطريق ومشى فيه، بالعربات المجهزة طبعا، وضع تصورا ومخططا متكاملا لتجديده وتطويره، تتدفق عبره الحركة، ليس إلى السودان ومنه فقط، إنما إلى سائر أنحاء أفريقيا، إلى الدول المطلة على البحيرات العظمى، إلى النيجر ومالى، غير أن الشدة أدركته

قبل خروج أفكاره إلى الواقع، كان مهتمًا، معنيا بدرب الأربعين، قطع عبره مسافات بعربة مجهزة، وكثيرا ما ردد لصحبه إنه يتمني قضاء ما تبقى له من عمر فى قرية فريدة الموضع، غريبة المعمار، تسمى القصر، قريبة من الواحات الداخلة، كان يقول إن مصر مجهولة لأبنائها، وماتزال عوالمها لم تُعرف بعد.

درب الأربعين . .

عندما لاحظ اهتمامها واستفسارها عنه، أمضى فى اختلاق التفاصيل، لم يجد فى المكتبات ما يثرى روايته، فقط رحلة لأحمد حسنين باشا عبر الصحراء الغربية إلى جغبوب، الواحة التى تتبع ليبيا الآن، راح ينسب ما قرأه إلى درب الأربعين ويضفى من عنده، تصغى باهتمام لفترة قصيرة، ثم تحيد نظراتها إلى جهة أخرى، تتوق إلى تفاصيل، إلى حكايات عن الناس، عن الأماكن، عن دهاليز المدينة، التى تعيش فيها ولا تعرف، منها إلا البيت والنادى ومقبرة ابنتها الوحيدة، الحفلات لا تمضى إليها، لا تلبى أى دعوة، خاصة أو رسمية، لا يعنيها ازدهار المؤسسة أو ما يتردد عن صعوبات.

يمضى ساعات فى إصلاح الحوض، أو إتمام تركيبات أخرى فى المطبخ أو إصلاح التوصيلات الكهربائية، وخفض صوت جهاز التكييف فى غرفة النوم، عندما دخلها أول مرة تركت عنده كآبة ورغبة فى الإنكفاء، تشبه غرف العجائز فى دور المسنين، وسادة واحدة فقط، عدد كبير من العرائس المصنوعة من مواد مختلفة، عيونها تحملق إلى مجهول، غير معلوم، أحذية مرصوصة قرب الباب، مختلفة الأشكال، لا أثر لسيادته هنا، لابد أنه ينام فى مكان آخر، لم تذكره ولم تشر إليه، لا بالتلميح

أو التصريح، لكن المؤكد أنه إذا كان يخشى شخصا ما فى هذا العالم، فإنها تلك الثكلى، الممصوصة، يعرف أن علاقته بالبيت ربما تسبب متاعبا له، خاصة بعد خروجه من الطابق الرئاسى، لكنه وصل إلى نقطة يصعب التراجع عنها، وقوفه على مزيد من الأسرار مصدر تهديد، خاصة أنه يعى الآن أكثر من أى وقت مضى مدى قربه من شىء ما يخيفه مجرد الإحاطة به، أهم ما يحرص عليه بقاء تلك الصلة بعيدا عن العيون والأرصاد، ألا يجاهر بها كما يفعل الآن فيروز بحرى.

إذا سأله أحد عن الجلاديوس تحدث كأنه ينوب عنها، وإذا استفسر بعضهم عن أخبار سيادته سارع بالرد، لكن فى غموض مقصود، فى الاجتماعات العامة للقطاع يجىء فريح صاحبه ليهمس، عندئذ يقوم مستأذنا، لا مؤاخذة.. تليفون مهم!

يغادر متمايلا، متقصعا، يعود ليعتذر قائلا:

«لا مؤاخذة لأن سيـ.....»

يتوقف كأنه منع هفوة أو تدارك زلة، غير أنه أفصح فى الوقت نفسه، الطابق الثانى عشر لا يستغنى عنه، من الناحية الفعلية هو الآن أقوى من بعض العاملين فيه، لكثرة تردده، إنه الوحيد الآن، المزود بهاتف محمول، صغير الحجم، متصل مباشرة بالأقمار الصناعية، إنه يختار نوعية المشروبات الخاصة بالطابق، وأنواع المقاعد، وأحجام المناضد فى غرف الاستقبال، وألوان ورق الجدران، وأنواع المياه المعدنية والشاى والقهوة، بل إنه يحدد درجة الحرارة من خلال ضبطه اليومى لأجهزة التكييف حتى الورود، يقوم باختيارها وتنسيقها بعد تفرغ الجلاديوس

لمهام أجل، قطعت كل صلة بماضيها كمتخصصة فى الزهور وشقيقتها راضية.

إنه يتفوق على فيروز باقترابه من البيت، واعتماد سيادتها عليه فى أمور أخرى غير إصلاح الحوض الألمانى، أصبح مسئولاً عن تموين الثلاجة، أى عما يتناوله سيادته على الأقل فى وجبات الإفطار، يأتى بزجاجات العصائر المستوردة، الخضراوات الطازجة، الفاكهة، أما اللحوم فتتعامل مع جزار فى الزمالك لا تثق إلا به، كذلك الأسماك، من ضاحية المعادى، تتصل هاتفيًا وتدقق فى اختيار ما تريده، اقترح عليها تفقد الأسواق المركزية الجديدة، الفروع التى أنشأتها المؤسسة بالتعاون مع شركة ألمانية وأخرى أيرلندية، وثالثة تتخذ مقرًا لها فى الكاريبى، سيادته يفضل كل ما يمت إلى البحر البعيد، يردد فى الاجتماعات.

«عليكم بالكاريبى»

ربما لعلاقة هذا النوع من الجمبرى بتلك المياه النائية، لم تقتنع قط بالأسواق الجديدة رغم شرحه المفصل لما توفره، الآن يمكن شراء أى فاكهة فى غير موسمها، الطماطم من أستراليا وشيلى، والتفاح من اليابان ولبنان والولايات المتحدة، فاكهة الليتشى الصينية الطازجة متاحة، كذلك الكيوى الفيتنامى، والموز الأكوادورى، والمانجو البانامى، أما أقسام الجبن فكأنها صورة طبق الأصل من المراكز الكبرى فى فرنسا، تهز سيادتها رأسها، تأبى مجرد الذهاب للفرجة، لكنها تصغى بفضول إلى كل ما يتعلق بوكالة البلح، أو سوق المنجدين، ومقاهى الطباخين النوبيين فى زينهم، إلى أن أصغت إلى وصفه لسوق درب البرابرة، فوجئ بلهجتها الآمرة.

«خذنى إلى هناك . . »

خلال السنوات العشرين الأخيرة انقطعت صلته بميدان العتبة الخضراء، يعبره بالسيارة فوق الكبرى الممتد بطول شارع الأزهر، لكنه لا يمشى عبره كما اعتاد فى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى، خاصة عند تردده على المسرح القومى، كان الميدان نقلة ناعمة مدثرة بالحنين بين القاهرة القديمة، والقاهرة الأوروبية التى تشبه فى تخطيط شوارعها وميادينها ومبانيها مدينة باريس. كانت له مراكز يعتاد التوقف عندها، دكان خرالمبو اليونانى، يقدم المشروبات بالصودا، أما نيلسون المجاور فتفوح منه رائحة المكرونة المحشوة باللحم المفروم، والشيكولاتة المستخدمة فى الحلوى.

تتدهور الأماكن وتشيخ مثل البشر، هكذا تزايدت الحركة وتوافد الباعة، وظهرت البضائع المهربة، واختلطت الملابس التايوانية بالسلاحف السودانية والعصافير البرية وأنواع الحبوب الغامضة، لسبب ما أصبح يخشى المشى عبره، يتفاداه قدر الإمكان والآن يجب أن يصحبها إلى درب البرابرة، أى يجب اجتياز ميدان العتبة إلى بداية شارع الجيش، منطقة مضطربة، مزدحمة، فيها ضياع يمقته، لكن طلبها لا يرد، جرى لها أمر بمجرد سماعها تخصص السوق فى معدات الأفراح . . خاصة أوعية الحلوى التذكارية «البونبيرات» التى تقدم للضيوف، قبل الموعد الذى حددته بيوم مضى إلى هناك ليعاين المكان، وليستعيد خبرته به، وليتعرف عليه حتى لا يبدو جاهلاً بدروبه، ومتاجره، وناسه، ومقاهيه.

لن ينسى أبداً انفراج ملامحها عندما خطت عبر الدرب الضيق

وتوقفت أمام الواجهات التى تعرض لوازم الأفراح، ثم دخولها وتطلعها إلى الأوعية الصغيرة مختلف أحجامها وأشكالها، تأملها الألوان، استفساراتها عن الأسعار، نسبة التخفيض فى حالة الأعداد الكبيرة، أنواع الحلوى ومصادرها، فى البداية استفسرت عن الأرخص والأغلى، ثم استقرت عند المستويات المرتفعة، الدرب يلبى احتياجات الفئات المختلفة، الشعبية والثرية وما بينهما، أما الأثرياء الجدد فيتعاملون مباشرة مع متاجر كبرى فى ميلانو وباريس ولندن، مع أن الخبرة المتوفرة فى الدرب لا يمكن توافرها فى أى مكان آخر، لا يعرف أحد على وجه الدقة متى بدأ هنا؟ لكن المؤكد أن الدرب وفر وأمد كافة مستلزمات الأفراح الملكية بدءاً من زواج أنجال الخديو، تلك الأعراس الشهيرة التى أفاض المؤرخون فى وصفها وبالغوا فى ذكر ما أنفق عليها، حتى أرجع أحدهم أسباب خراب الخزانة المصرية إليها وإلى احتفالات قناة السويس، ما يزال متحف عابدين يحتفظ بأوان مذهبة، وأخرى من الفضة الخالصة عيار تسعين المطلية، وزع مثلها على المدعوين فى أفراح زواج فؤاد من نازلى، وفاروق من فريدة، وفوزية من شاه إيران، حتى الزواج الثانى لفاروق من ناريمان، آخر ما أعده الدرب للأسرة بمناسبة ميلاد ولى العهد أحمد فؤاد، لم تمض شهور إلا وقامت الثورة وهكذا بدأت مرحلة جديدة، توقف المعلمون الكبار عن إعداد «البونبيرات» الثمينة، والشموع الضخمة التى صنعت منها نماذج معينة لم يجرؤ أحدهم على تكرارها خشية من وخيم العواقب، فالقصر لا يسمح، والأشكال التى صنعت منها معدات الحفلات لم تتكرر لأى أسرة أو جهة مهما بلغ نفوذها، تماما مثل السيارات الملكية، منح اللونين الأحمر والأسود على السيارات الخاصة والعمومية، اقتصرا فقط على عربات القصر المكشوفة والمغطاة،

خاصة تلك التى قادها جلالته بنفسه علانية، إذ خصصت سيارات أخرى من طرز مغايرة لخروجاته الليلية الغامضة.

يمكن القول إن الزمن الملكى للدرب انتهى مع الثورة، لكن دوره لم يتوقف بل امتد إلى خارج القاهرة، حيث تعامل مع متاجره أعيان الريف، وتجار الجملة، وأصحاب الأنشطة الحرفية وما شابه ذلك. لم تنأ المؤسسة عنه، كثيرون تمونوا منه عند زواج أبنائهم أو تقديم الهدايا ليس فى الأفراح فقط، إنما فى المناسبات العامة، لا يعرف أحد إذا ما كان المؤسس تردد على الدرب أم لا؟

بدا تردد الميدومى غير مقنع له، صحبها أول مرة حذرًا، متعجبًا، فلم يخطر له المجىء يومًا إلى مكان تخصص بأكمله فى معدات الأفراح وتجهيزاتها، هو الذى طرح فكرة الزواج منذ أمد، ولم يسع إلى فرح إلا ضيفًا، رغم معرفته واطلاعه، ظن فى البداية أنها تسعى من أجل أحد معارفها، أو أقارب سيادته، لكنه أدرك حقيقة مسعاها، إنها تستفسر وتتقصى وتتفحص التصميمات وتختار العينات وتتفق على كميات لفرح يضم خمسمائة مدعو، أو ألف، أو ألف وخمسمائة، وتدفع مقدمًا!

إنها تعد لفرح لن يتم، لخطوبة لن تعقد، ولزفاف فى الماضى، أين ستدفع بهذه الكميات كلها؟

يوميًا تمضى الساعات، تدقق وتناقش ثم تدفع مقدمات مالية، وأثناء ذلك تصيح وتنفعل، ينفر عرق الغضب فى جبينها قاسيًا، ثم تلين ملامحها وترق، تتبدل فى لحظة.

عندما طلبت منه أن يتفضل ليتابع عمله، أن يدعها بمفردها بعد

اعتيادها الطريق، وألفتها الدرب، وتعرفها على التجار والباعة وبعض الصناع، لم يجادل، ولم يبذل محاولة رغم أن السعى فى الطريق يتيح فرصة أكثر للاقتراب، ولإبداء الحرص الزائد، خاصة عند عبور الطريق أو اقتراب طفل للتسول أو عجوز !

لم يدر بالضبط مصدر نفوره من الدرب، وضيقه بالوقت الذى يمضيه بصحبتها، ربما لما بدا عليها من أحوال متناقضة، وما يمكن أن تنتهى إليه فجأة، ومسئوليته. يوقن أن سيادته ملم بما يقوم به، ربما يقلقه ذلك، يتذكر ما جرى لأحد العاملين عندما قصد باب المؤسس يومًا، وجده مفتوحًا، مع الخطوة الأولى فوجئ.

إحداهن، فتاة تحت التمرين، مؤخرتها عارية، وضاءة، واضحة الانفراجة، تجلس فوقه.

من بدا عليه الارتباك؟

من خشى؟

الموظف وليس سيادته، تراجع مغمض العينين، سرعان ما بدأت التداعيات عنده، بدأ يوسط بعض المقربين طلبًا للعفو، لماذا؟. لا يجيب عندما يسأله أحدهم، إنه يسعى إلى السماح وحسب، حتى انقطع خبره تمامًا، وتردد أنه طلب نقله إلى بعض المواقع المتحركة على درب الأربعين.

يدرك الميدومى أن الاقتراب من طرف واحد فيه مخاطرة، وأن سعيه لإصلاح الحوض الألمانى سينقلب حتما عليه، خاصة أنه لم يعد يواجه

النمرسى، إنه هدف لفريح الصاعد، المتمكن، الذى لا يعبأ بشىء، اقترابه فيه مخاطرة.

هل أخطأ منذ البداية أم تغيرت الظروف؟

إنه يخشى شيئا ما، لا يمكنه تحديده أو تعيين مصدره.

بالتأكيد بدأ قبل صحبته لها إلى الدرب.

متى؟ متى؟

ربما من عصر ذلك اليوم الرمادى، بعد تركيب الصامولة النادرة، لمحها مطرقة عند انصرافه، مضمومة، مهمومة، لم يعهدها كذلك، عندما استفسر منها مبديًا الحنو، قالت بدون النظر إليه..

«الأحلام غريبة..»

اقترب، أى حلم كدرها؟

لم تجبه مباشرة، نطقت ألفاظًا غير مترابطة، فرنسية، أخرى ألمانية، قال إنه يثق بشيخ ضرير من الجعافرة يتخذ من مسجد سيدى الدردير مقامًا، يقصده الناس من داخل مصر وخارجها، إنه أقرب المريدين للشيخ صالح الجعفرى الكبير.

من؟

قال إنه شيخ كبير من أقصى الجنوب، سمع عنه ولم يره، لكن يؤكد الجميع أن المؤسس قدمه إلى جمال عبد الناصر الذى تبرك به وأصغى إليه، سمع منه وسكن إليه.

طريقته معروفة، عامرة بالقوم، ومريده هذا يقصده الناس من قريب ومن بعيد.

تطلعت إليه مستنجدة، أومأ مشجعًا..

قالت إنها رأت سهير في مكان فسيح، ترتدي ملابس خضراء كأنها من أوراق نبات، ما أقلقها، ما أيقظها متعبة، مهدودة، أنها بدت بكماء، ترغب النطق ولا تقدر.. تتألم؟!

استمر محتفظًا بوضع الساكن، لا يرمش حتى لا يزعجها، مبديًا الأسى، أطراقتها وألمها العميق أضفيا عليها جمالاً خاصًا، لمح انبساط صدرها وبروز قفصها الصدري، نحيفة، مقددة، لكن.. عندها شيء، بـ... بل أشياء، صوتها إذ تهمس يحوي بحة، درجة مثيرة أرعشت ظهره، هو مدمن الأصوات الجميلة، تمامًا كما يهوى سيادته، لكنه لم يتأثر به، هذا هوى قديم متأصل، يتذكر صاحبًا له عند عبورهما شارع عماد الدين إلى سينما كايرو بالاس، قال:

«كل أنثى فيها شيء، مهما بدت قبيحة أو مجدبة..»

غريب أنه يتذكر القول ولا يقدر على استعادة ملامح أو اسم القائل، فقط.. يعي أن خطوه كان أسرع، إلى الأمام، ويرتدي قميصا من الصوف.

أكد أنه سيأتيها بتفصيل دقيق لمعنى الحلم قبل شروق الشمس، صحيح أن الشيخ لا يلتقي بمن يسعى إليه مباشرة، لابد من ترتيب، لم تقل لا، لم تقل نعم، بدت نظراتها واهنة، ملامحها مستجيرة. مضى إلى مكتبة متخصصة في الكتب القديمة ناحية قصر عابدين، لمحها مرة بعد زيارته

دكاكين صغيرة خلف سوق الخضار بالعتبة، متخصصة فى أجهزة الاستقبال والإرسال والإسطوانات العتيقة، منها اقتنى جهاز اللاسلكى الميدانى الخاص بمونتجومرى، والمصباح الضوئى اليدوى الذى يحمل علامة السلطان عبد الحميد، أجهزة استقبال مختلفة الطرز والأحجام، يفضل المصنوع فى الأربعينيات، صناديق من الخشب الأصلى، واجهات أنيقة، تميز وتحدد حقبة معينة، تمت إلى زمن الحرب العظمى، قبل مجيئه إلى الدنيا، أحد الدكاكين متخصص فى الإسطوانات القديمة، مطربون يعرف أسماءهم، وآخرين لم يسمع بهم، من بداية القرن، عنده قابل شابًا أجنبيًا يتحدث العربية بطلاقة، يقرفص بحثًا عن نوادر الإسطوانات، يمسكها بحرص، يقلبها، ينفخ الغبار عنها، عندما تحدث بالإنجليزية أجابه بالعربية، فصحى سليمة . .

«كأنك تعلمت فى الأزهر . .»

«لم أحصل بعد على العالمية . .»

«وتعرف العالمية . . ماشاء الله، ماشاء الله ! . .»

قال إنه يدرس اللغة العربية فى الجنوب الفرنسى لأبناء المهاجرين من الجزائريين والمغاربة، لكنه يعد أطروحة جامعية عن الموسيقى المصرية القديمة التى هجرها أهلها، يجمع نوادرها، ما نفذ أو خفى .

تبادلا العناوين، فى الأسبوع التالى بدأ يشترى الإسطوانات القديمة، أعد مذكرة لتتبنى المؤسسة مشروعًا لاقتنائها وإنشاء أرشيف، خزانة حافظة، يرجع إليها من يريد، أحيلت إلى قطاع الفيوضات، لكن فيروز أحالها إلى فريح للدراسة والعرض، ويبدو أن هذا النوع من التأشيرات متفق عليه بينهما، يعنى تجميد الموضوع .

لم يتبق من الشاب الأجنبى إلا ملامحه واسمه الأول، فريدريك، أما بائع الإسطوانات فرحل وتوقفت تجارته، راحت معه وباع ورثته المحل لتاجر أسلاك كهربائية، السوق بدأ يتآكل، أصبح من الصعب الحصول على أجهزة قديمة منه، ظهرت مكبرات صوت تايوانية، وأجهزة إضاءة، متعددة الأشكال والألوان. ما بقى عالقًا فى الفراغ رائحة اللحوم الطازجة والأسماك البحرية والخضراوات والأجبان، امتدت متغيرات ميدان العتبة إلى هذا الشارع، باعة الهيروين، الماكس، البانجو وحبوب الصليبة المعطلة لسائر الحواس، والغرباء الباحثون عن مأوى ! هذا ما أدى إلى انقطاع صلته بالمنطقة قبل عودته إليها بصحبتها، المكتبة فى الإتجاه الآخر، لم يمتد الزحام إليه، المعالم متماسكة، لم تتحلل بعد.

من المكتبة حصل على طبعة قديمة من «تفسير الأحلام» لابن سيرين، ورغم وجود طبعة جديدة إلا أنه فضل الأولى، تضفى العتاقة على الكتب بعدًا غامضًا وقيمة ما. بعد يومين عاد ليجد نسخة من «تعطير الأنام فى تفسير المنام» للنابلسى.

الكتبى المجرب مد إليه مجلدًا، قال:

«أنصحك بهذا أيضًا. . »

التذكرة لداود الإنطاكى، قلب الصفحات، هز رأسه بتأن، قبل الغروب مثل أمامها، عيناها غائرتان، حائرتان، مفتقدة للوسن، الغريب أن أى أثر لسيادته كان مفتقدًا تمامًا، يعلم بوجود عدة مقار له لكن عناوينها مجهولة حتى للمقربين، اثنان منهما على الأقل بدون هواتف أو أى أجهزة اتصال، ينقطع تمامًا حتى عن المراكز الحساسة، يبدو أن لقاءاته بالجلاديوس تتم فى أحدها. المؤكد أن بعض المداعبات تتم فى الطابق

الرئاسى، مما يشاع عنه هواه بالممارسة فى أماكن لا تخطر على بال، مصعد يوقفه بين طابقين، داخل مقبرة أثرية، فى ذروة الاحتفالات التى تقام لضيوف عرب أو أجانب، تتقدم فى الزحام، تتوقف أمامه، تتخذ طريقها إليه بخفة ومهارة، أما أشد ما يثيره فأثناء الطيران، خاصة رحلات الشرق الأقصى عند عبور المنطقة الواقعة بين الساحل العربى والشاطىء الهندى، مجرد اقترابه من شبه القارة يؤجج رغبته، تمامًا مثل ذكر الكاريبى وسائر ما يمت إليه.

كلام لا أول له ولا آخر، لا يدرى الصحيح منه، لكن.. المؤكد أن الجلاديوس تمكنت وأوثقت، وضعت يدها على مكمن مجهول لدى كل من عرفهن، خاصة هذه الثكلى الممرورة، القابعة فى وحدتها، المستدعية أطياف ابنتها الراحلة، يتداخل الحقيقى بالمتوهم، لها سرحات، خلالها تتحول عيناها إلى نفقين معتمين، لكنها تتطلع الآن مترقبة، متلهفة، متوقعة أى إشارة.

يقول إن رؤياها فى حد ذاتها بشرى وخير عميم، لتهدأ وليطمئن فؤادها، القماش الأخضر الذى حيرها رمز لباس أهل الجنة، إنها فى النعيم، أما ضيقها البادى فلأنها لم تتصل بأمها الحبيبة منذ زمن.

«لك وحشة عندها يا سيدتى..»

بسطت يديها، كيف؟ أى طريق يمكن أن تقطعه إليها؟ لو الأمر بيدها، قال متأثراً إن ذلك ممكن، سيرجو الشيخ إيجاد وسيلة ما بحيث تتردد على أحلامها بانتظام.

«ممكن..»

قال إنه سيستفسر، للشيخ قدرات عجيبة وأمره ذائع، لكن إتمام ذلك يقتضى وقتًا.

«أنا تحت أمره.. كل ما يطلبه..»

«لا.. لا.. ليس له أى طلبات.. إنه لا يخدم إلا أنقياء الضمير، الصالحين..»

عندما خرج من البيت، توقف عند الناصية، ضرب الأرض بكعب حذائه، بصق مستهدفًا وجوده، سخط على نفسه، مط شفتيه احتقاراً، يعرف سلوكه دروبا ملتوية، وطرقًا سافلة، برر اضطراره إليها بمواجهة آخرين أشد ضعة منه، أضطر!

لكن.. المتلاعب بهذه الثكلى، الغريبة، المقطوعة عن كل صلة، أمر مقرف جدًا، بدأ بإصلاح الحوض وانتهى بالأحلام، لا يمكنه التراجع، أوغل إلى حيث لا يقدر على الانكفاء.

لكن.. أحقًا يضيق بما يقوم به، أم أنه يدرك خطورة القرب منها الآن، أو لانعدام تأثيرها على سيادته، عندما سعى إليها كان يواجه النمرسى، لم يخطر له فيروز على بال، شتان ما بينهما، الأول يعمل خفية وفى حدود وبهدف فائدة المؤسسة، أما فيروز فلا يعرف أحد إلى أين يمضى، لا يعبأ بشىء، ولا يحرص على شىء، فأى خصم هذا؟

لا يمكنه التراجع الآن، فى القرب مخاطرة، وفى الابتعاد أيضًا، يستعيد واقعة سمع تفاصيلها منذ سنوات عندما كان مغرمًا بالتردد على سوق الخضار خلف مسجد محمد بك أبو الذهب، المساحة ضيقة،

المترددون كُثر والباعة متجاورون، حتى الظهر يزدحم بنساء شابات ممشوقات، لدنات، فواحات، موحيات تبرز ملاءات اللف السوداء المحكمة تضاريس الاستدارات والمفارق المتصلة، لم يكن سوء التغذية انتشر بعد، ولم تكن المؤسسة عرفت استيراد الطعام المغشوش، منتهى الصلاحية، الخاوى من القيمة الغذائية، لم تمض سنوات عديدة إلا وتغيرت تلك الأوضاع، ضمرت الصدور، تضاءلت القدود، أصبح عسراً رؤية مؤخرة مكتملة يمكنها تأجيج ذاكرته، فى تلك الأيام كان يحار بين هذه وتلك، كانت الوجوه ريانة والملامح فتية، مستنفرة، أحيانًا يحتوى قوامًا بنظره فيندلع منه لهيب، يسعى، يناور حتى يحقق لمسة لجزء من ذراع، أو لردف نافر، يسرى عنده من الطلاوة مالا يتحقق باكتمال الانفراد والتوالج.

أتقن إخفاء ما يدور عنده، لجهامة ملامحه ظن الباعة أنه من رجال الإدارة المختصة بمراقبة الأسواق، وصل معظمهم هذا من هيئته وجلوسه مدة داخل مقهى صغير قريب لكنه لا يطل على السوق، انفرد بتقديم الشاى على الطريقة المالاوية، لذلك يقصده طلبة الأزهر القادمين من تلك الجزر البعيدة.

غير أن المقهى كان معروفًا بتوزيع نوع من الحشيش لا ينمو إلا فى أفغانستان، سمع عن تاجر صغير، بائع قطاعى، لكنه اشتهر بقدرته على تمييز الأنواع، بشمة سريعة ونظرة فاحصة يمكنه تدقيق النوع، لبنانى أم مغربى أو تركى، أما الأفغانى فلعبته، يمكنه تمييزه بالجس والبص والتذوق إذا صعب عليه الأمر لغش فى الصنف، عرف عنه الأمانة، ميزانه يضرب به المثل، ورث التجارة عن والده، بعد بلوغه الستين أبدى رغبته لصحبه

ومعارفه فى التقاعد، أن يكف، ليس خشية، ولكنه ضاق بما يفعله وما يمارسه من حرص، واضطرار إلى يقظة دائمة خشية إحراج معارفه من رجال مكافحة المخدرات، ضحك قائلاً إن الموظفين يتقاعدون عند بلوغهم هذا العمر، رغبته فى ملازمة ضريح سيدى الدردير قوية، أيضًا زيارة الأولياء والصالحين، الطواف على مراقدهم وقراءة الفاتحة مع طلب المغفرة، فالدعاء عندهم مستجاب.

لاشىء يخفى فى الباطنية، خاصة عند الطرفين، تجار المخدرات ورجال الشرطة، المنطقة كلها قوامها الحرص، الإنصات من ناحية لأى خطر أو مداهمة محتملة من الشرطة المدربة، لكل طرف آذانه وعيونه، إضافة إلى درجة من التواطؤ.

نما إلى الشرطة المعنية رغبة الحاج فى التقاعد، عندئذ قصده شرطى سرى، كل منهما يعرف صاحبه منذ سنوات، استفسر عن السبب، لماذا يريد التوقف؟، قال الحاج إنه بلغ درجة من الوهن يسعى فيها إلى التقاط الأنفاس، قال برقة: يا الله حسن الختام!

تصور أن قراره سيلقى تهنئة ومؤازرة، لكن المفاجأة رد فعل المخبر الذى أعتمت ملامحه، قال بوضوح إنه مضطر إلى مصارحته، ولولا ما بينهما من ود لما سعى إليه: إن توقفه عن العمل سيودى إلى القبض عليه، لا يمكنه التقاعد، غير مسموح!

لم يتساءل الحاج عن السبب، علمته التجارب ألا يلف ويدور فى الأمور الحساسة، عند اللحظات الفارقة، تقاعده يعنى إخلالا بالبنية القائمة، إنه مصدر هبات منتظم، دقيق لعدد من أفراد المكافحة، بل إن صلة رسخت ونمت، إذا مرض يسعون إليه، إذا غاب أحدهم يستفسر

عنه، توقفه يعنى قطع جزء من أرزاقهم، لا يتوقف الأمر على ما يدفعه هو أو غيره، إنما يمتد إلى العمل نفسه، ما يقومون به لا يكتمل إلا بوجوده وما يفعله.

الميدومى لا يمكنه أيضًا التوقف الآن.

صباح اليوم التالى أطلعها على البشرى، ستزورها الابنة الغالية مرتين فى الأسبوع، هذا ما يضمنه الشيخ الجعفرى، وأمره مجرب مع آخرين.

غير أنه فوجئ برد فعلها، تصور أنها ستبتهج، ستقابله متهللة، لكن رد فعلها فاجأه حتى غطى على مخاوفه من الأيام التالية إذا لم يعمل الإيحاء عمله ولم تظهر الابنة فى الرؤيا.

تطلعت إليه بنظرتها الشاردة، تتجاوزه، قالت إنها تقابلها كل يوم، ما الحاجة إذن إلى مرة أو مرتين فى الحلم؟

لم ينطق، مالت قليلاً إلى الأمام، كأنها تحدث نفسها، كأنه لا يمثل أمامها بالمرة، تتحدث عن جميل صحبتها، واختيارها معها أوعية الحلوى، والشمعدانات، وبطاقات الدعوة، قالت إن الدرب هو الأصل، كل شيء هناك، ضحكت.

«من فات قديمه تاه..».

العابرون

العاملون القدامى اهتموا بما أطلقوا عليهم «مجاذيب المؤسسة»، لكن لم يعن أحد ولم يهتم بإحصائهم أو تدوين ملاحظات عن نوعياتهم، جاءوا وكأنهم لم يفدوا، عبروا وكأنهم لم يظهروا، مع أن بعضهم أمضى سنوات ملازمًا موضحًا محددًا قرب الفتحة الدائرية، أو المدخل الرئيسى، ولكن لم تهتم بهم أى إدارة، أو قسم، لم يقعوا فى أى دائرة للاختصاص، كثيرون منهم أقاموا واختفوا فلم يهتم أحد، ولم يتبق منهم إلا حكايات عابرة، أو ذكريات غامضة يرويها البعض على سبيل الفكاهة أو السخرية، إلى أن جرى ما جرى من البوريمى وتصدى فيروز بحرى له بسرعة وحزم، لكن هذا لا يمكن استيعابه أو إدراكه إلا بالإلمام الخاطف لما هو متاح من أحوال مماثلة.

أقدمهم محمد المجنون، أو محمد العبيط، ظهر مع حفر الأساس، لا يذكره الآن إلا عدد قليل من قدامى السائقين والسعاة، وهؤلاء سمعوا من أسلافهم، يمكن القول إن الجيل الأول لم يعد مستمرًا منه إلا النمرسى الذى لا يعرف أحد إذا كان الموجود الآن بالمكتب هو الأب أم الابن أو أنه شخص آخر، خاصة بعد خفوت أمره وضعف حضوره مع تزايد نفوذ فيروز وتمكنه من الجلاديوس.

كان محمد العبيط ضخمًا، كل ما يمت إليه هائل الحجم، ذراعاه، كتفاه، عنقه المدكوك، صدره المنفوخ، أما أغلظ ما فيه، قدميه وقفاه، لم يوجد حذاء يناسب مقاسه قط، حتى عندما اهتم أحد المحسنين من المتعاملين الأوائل وأبدى اهتمامًا، لم يقبل أى عامل للأحذية صنع زوج مناسب، ليس لانعدام وجود القالب فهذا يمكن تصنيعه، ولكن لصعوبة ضبط المقاس، فأى لمسة لقدمى محمد العبيط تطلق منه حركة لا يمكن التبنؤ بنتائجها، إذ تدفع بهذا الكيان الهائل إلى الانفراط غير المحسوب، والاندفاع إلى أى جهة.

كان محمد العبيط يأكل ما يجود به القوم، لديه كيس متين من مخلفات الجيش الإنجليزى يضع فيه بقايا الأرغفة وقطع اللحم والحلوى وربما البطيخ، إذ يحين الوقت، عندما يشعر بالجوع يجلس القرفصاء على مقربة من المبنى، ويبدأ المضغ والبلع. عندئذ يستطيل عنقه المدغوم، ويمتد إلى الأمام، وتغرورق عيناه بالدموع.

إذا كانت نقطة الضعف ساقيه وقدميه، فإن عنقه أكثر حساسية، إذا لمسه أحدهم ينتفض موزعًا ذراعيه على أقصى مدى، بعض شبان الناحية تباروا فى لمسه وسرعة الانفضاض عنه، تراهنوا فيما بينهم على ذلك.

لم يعرف أحد أين يرقد؟ أو متى يغمض عينيه؟ إذ كان يرى فى الليل هائمًا حول المطر عندما كانت الحقول تحيطه والعمران لم يمتد بعد، كذلك لم يعرف أحد أين يقضى حاجته، أو أين يغتسل؟

كثيرًا ما وقف أمام المقر وزعق بألفاظ غير مفهومة، وأحيانًا كان يلفظ حروفًا تشبه اسمًا أنثويا، ويحرك يديه بما يعنى أنه أتاها، ويؤكد البعض أن عددا منهن سعين إليه، واستمتعن بفحولته المطلقة، غير عابئات

بإعلانه وإشهاره أسمائهن، فمن يصدق محمد العبيط؟ ومن هؤلاء مرموقات، شغلن مواقع هامة، طبعًا كان نطقه الحروف يتيح لكل إنسان أن يفسر الأمر على كيفه.

في الصباح وجدوا محمد العبيط منفرطًا، هامدًا، وبدا في تمدده أضخم، لا يعرف أحد السبب الذى أدى إلى طلوع روحه بينما كان يبدو طبيعيًا حتى ذلك المساء، فيما بعد قيل إن لاعب كرة شهير تمكن من قفاه، صفعه بقوة وطال موضعًا لم يلمسه أحد من قبل، وقيل إن الأمر مدبر بالاتفاق مع شخصية مهمة فى المؤسسة، لكن مثل هذه الأقاويل لا تستمر طويلاً، فمن يعنيه أمر محمد العبيط؟ ومن سيهتم بتحريك التحقيق لمعرفة الدوافع والأسباب، كما جاء ذهب.

ومنهم حمدون الصعيدى، ظهر بعد اختفاء محمد العبيط بأسابيع معدودات، وقيل إنه كان لا يجرؤ على الاقتراب من المقر، وبعد أن تأكد من خلو المكان ظهر، كان نحيلاً، طويلاً، ملفتًا للنظر، يلوح من بعيد إذا أقبل ويظهر إذا مشى فى جمع، لا يعرف بالضبط مسقط رأسه، فمن قائل إنه نجع البوص ناحية طهطا، وقائل إنه من الأشمونين، وثالث يجزم بنشأته وسعيه فى نجع حمادى، حتى خرج هائمًا على وجهه، مشى من بلد إلى بلد حتى نزل سوق الجمال فى إنبابة ولكنه فارقه بعد أسابيع ليستقر أمام المقر.

قيل إنه هارب من ثأر لا ذنب له فيه، فوجىء أنه مطلوب من عائلة أخرى، أحد أقاربه قتل شابًا لخلاف على أرض وتمكنت منه الشرطة، صدر ضده حكم، أرسلوه إلى سجن بعيد فى الواحات ليمضى المدة وهذا يعنى إفلاته من سعى العائلة المصابة، أصبح الدور على حمدون

الذى لم يكن له حيلة ولم يمسك سلاحًا فى حياته، ولا يعرف حتى الدفاع عن نفسه، كان يتقن تلقيح النخيل فى الموسم، يربط خصره بحبل ويصعد النخلة الذكر لينتزع بمهارة حبوب اللقاح وينزل بسرعة، مرتقيًا النخلة الأنثى، يدس البذور طازجة، حامية، وزعم لمن يعرفهم أن ذلك أثار عنده لذة لم يعرفها مع النساء.

لماذا وقع اختياره على الفراغ المواجه للمقر؟

لا أحد يعرف.

السؤال لا يتعلق بحمدون وحده، إنما بكل الذين ظهروا فجأة ولزموا ثم غابوا، إما بموت غامض أو معروف أسبابه، أو اختفاء مريب أو عادى، لم يهتم بهم أحد، ولم يسجل سيرتهم إنسان، ولم تعن بهم إدارة، ما بقى منهم واقعة تتعلق بكل منهم ربما لا تعنى بالنسبة له شيئًا، أو جملة لفظها، أو حركة معينة.

ما بقى من حمدون ذكر عضوه، يؤكد الديروطى حارس الجراج القديم إنه رآه بعينيه عندما صحبه غصبًا إلى حمام بلدى قديم ناحية الكيت كات، طويل إلى درجة أنه يلتف كثعبان إذا قعد، يبدو أن الحكاية المتداولة عنه تمت إلى ما قاله الديروطى. إذ يؤكد البعض أنه كان ينام فى الخلاء، يُعرف موقعه من شخيره، يتمدد على ظهره، عيناه إلى السماء، وفى إحدى الليالى كانت امرأة تعبر الطريق إلى البيوت القريبة من المقر، لم يكن البشر مصدر خطر فى ذلك الوقت، فقط الكلاب والذئاب التى تجىء من الخلاء أحيانًا، والثعابين والعقارب، كان يمكن للمرأة أن تمشى من وراق العرب حتى ميت عقبة ليلاً بدون خوف من تعرض أحد، هذه المرأة لفت نظرها الشخير، عندما اتجهت صوب المصدر فوجئت!

حـمـدون طريح الأرض، نحـيل، مـا يقـوم منه يماثل طوله، وتد منتـصب، نافـر، إلى درجـة تجـاوزه الجلبـاب وطرحـه إلى الـوراء، بدا استثنائيًا، فريدًا، غريبًا، داعيًا، متشوقًا، المرأة ابتلت وبلعت ريقهـا، تلفتت حولها، فوقها وتحتهـا، شلحت جلبابهـا، وأمسكت هذه البركة، أولجت ما يمكنهـا احتماله، قضت حـاجتهـا، وتلقت منه، رأت تقلصـه، وبربشة عينيه فى ضوء القـمر، كأنه يحتلم، ما توقف قط شخيره، عندما بلغ ارتواؤها الكمال وتسربت إلى خلاياها سخونة مائه، ظل منتصبًا، متصلبًا، ممتدًا، وعندما أدركهـا الإنهاك أكملت طريقها، فى اليوم التالى عرفت طريقهـا إليه، الحال كما وجدته أمس، لكنها بعد مرات لا يمكن عدها، يبدو أن نوبة كرم انتابتها تجاه صديقاتها اللواتى يهمسن بصعوبات يواجـهنهـا مع أزواجهـن، أو يعـانين عـقـمًا فشلت فى عـلاجه زيارات الأوليـاء والخطو سبع مـرات فوق جثث الموتى، أو التعـرض لخضـات مفاجئة، يبالغ البعض فيقول إنها تقاضت هبات وأجورًا بدلت أحوالها، وصار لقبهـا المعروف «أم العـامـود» حتى أن المقربات منهـا نسين اسـمهـا الأصلى، لـم يخذلهـا قط، حتى عندما بلغ المتعاقبات عليه فى ليلة واحدة سبعة، منهن شابة لم تتجاوز السابعة عشرة، وعجوز انقطع طمثهـا منذ عشرين سنة، كل هذا وهو لا يبدى عـلامة على استيقـاظه أو إدراكه لما يفعلن به، كـأن عضوه نابت من الأرض، يتأثر ويؤثر بمعزل عنه، يؤكد عم شرف أن صلات قامت بينه وبين بعض العاملات فى المؤسسة، لكنه لم يذكر أسماء بعينها.

ومنهم عزيز الديرمواسى، ظهر قبل الثالث والعشرين من يوليو بأربعة أيام، عندمـا قـامت الثورة كـان بعض العـاملين اعتادوا رؤيتـه، الظهـور المفاجئ لأحد الأغراب العـابرين لم يكن مثيرًا للفضول وقتئذ، لم يكن

الأمن الخاص قد ظهر بعد، حتى فى ظروف الاضطرابات السياسية لم يعرف المقر إغلاق الأبواب حتى بعد غروب الشمس، مع أن المنطقة كانت خلاء، لم يمتد إليها العمران، ولم تصبح من المراكز المستحدثة، الهامة فى المدينة كما آل إليه الوضع الآن، الأشمونى أول موظف استعلامات لم يكن ظهوره فى نهاية الأربعينيات لضبط الدخول والتأكد من شخصيات الزائرين بقدر ما كان لزوم المظهر، خاصة بالنسبة للأجانب.

هؤلاء الأغراب، أو الشاردون كما أطلق عليهم الجواهرى فى الزمن القديم كانوا يدخلون ويخرجون من المقر، لا يسألهم أحد ولا يستفسر، والواقع أنه من النادر مكوث أحدهم بالداخل، حتى فى ليالى الشتاء الباردة جداً، رغم توصية سيادته بعدم إزعاج أحدهم لو وجده العاملون راقداً فى أحد الأركان أو الغرف بحثًا عن الدفء.

بعكس حمدون، كان عزيز ضئيل الحجم، كبير الرأس، لم يضع قدميه فى حذاء أو صندل قط، إذا ظهر سيادته يجرى على مقربة من العربة السوداء، يقف على مسافة رافعًا ذراعه على امتدادها بتحية شبه هتلرية، لم يلتفت إليه أحد، ولم يهتم إنسان به، أو محاولة تقصى أسباب مجيئه، عدا صفية الأبنوبى التى كانت ترسل إليه الطعام ملفوفًا ى ورق معدنى قبل أن ينتشر على نطاق واسع، وفى المواسم والأعياد سل إليه كسوة، أو بعض المال اليسير، كان إذا لمحها ينحنى إلى حد أنه بشى على أربع، وكلما اقترب منها يخفض رأسه ويغمض عينيه، لم تبد انزعاجًا، ولم تطلب إقصاءه، بالعكس، لكم أبدت الحنية تجاهه وهى الصلدة، التى خشيها علية القوم.

ماذا جاء بك يا عزيز؟

يشير إلى الفتحة الدائرية، إلى ناحيتها إذا كان بعيدًا عنها، ثم يهز رأسه بسرعة مؤكدًا:

آه.. وحياة المسيح الحى..

يقصد الرؤية التى حكى تفاصيلها لكثير من العاملين وأهالى الناحية أتيح لهم سؤاله والإصغاء إلى جوابه، ذلك أنه كان نادر النطق، على مرات متفرقة قال إنه رأى الملاك ميخائيل فى المنام يأمره بالرحيل عن ديرمواس، وملازمة الدائرة المفتوحة - وليس الفتحة الدائرية كما تُعرف فى الوثائق الرسمية - إلى أن يسمع النداء؟

ما هو النداء يا مقدس عزيز؟

لا يجيب، يلزم الصمت. وإذا ألح عليه أحدهم ينكمش شيئًا فشيئًا، يتداخل فى بعضه حتى يتكور تمامًا، يتخذ هيئة قنفذية، يبدو أن النداء جاءه أو انبعث فى بداية الستينيات قبل زمن المحنة الكبرى بشهور، يزعم أحد المزارعين أنه رآه بعد الفجر يجرى بسرعة غريبة على بنى آدم، اعتلى الحافة ثم قفز إلى منتصفها تمامًا، لم يدر هل اختفى فوق أم فى داخلها. بدا المشهد غريبًا حتى أنه لم يصدق فى البداية، حتى الآن يسأل نفسه، هل ما رآه خيالا أم حقيقة؟

مثل الآخرين، عندما غابوا لم يهتم أحد، لم يبذل أحدهم جهدًا لاستقصاء الأسباب، كلهم ظهروا بلا مقدمات ومضوا بدون ضجيج فما الغريب فى الأمر؟

على أى حال لم يستمر المكان شاغرًا، بعد أربعين يومًا رأى العاملون وجهًا جديدًا، لكنه لم يكن رجلاً هذه المرة، كانت نفيسة العمدة، بدوية، سمراء، متوسطة الطول، لا هى بالسمينة ولا النحيفة، واحية، أى من الواحات، أما لقبها العمدة فلم يعرف بالضبط من أطلقه عليها، هل جاءت به، أم علق بها بعد ظهورها، ما يميز ملامحها وشم على هيئة نجمة منقوش فى منتصف جبهتها تمامًا، لم تعرف الهدوء قط، قبل شروق الشمس تبدأ كنس المنطقة المحيطة، بدءًا من المدخل وحتى الحفرة الدائرية، إلى بداية الزرع، تمسح السلم الرخامى مرتين فى الأسبوع، تقوم بهذا الآن شركة نظافة أجنبية تم التعاقد معها أخيرًا، كان لديها قدرة فريدة على تسلق الجدران بدون أن تخشى السقوط أو زلة القدم، لذلك احتفظت بنظافة الواجهة لمدة ست سنوات قبل إصابة قدمها التى سبقت اختفاءها النهائى، كانت تتسلق الجدران معتمدة على الأفاريز النحيلة وبروزات المعمار وكل ما يمكن التشبث به حتى لو رأس مسمار صغير، من يراها ولا يعرفها يظن أنها تزحف صاعدة أو نازلة، وحدث أن استعانت بها السفارة البريطانية فى الصعود إلى أعلى مبنى قصر الدوبارة القديم لإنزال قطة ظلت يومين تموء فوق القبة الملساء مما أقلق راحة السفير الذى تقع غرفة نومه على مقربة، أما كيف عرفت السفارة أمرها، فهذا لم تفصح عنه المصادر بعد من الجانبين المصرى والإنجليزى، لكن المؤكد أن طلبًا رسميًا قدم إلى جهة الاختصاص طبقًا للأعراف الدبلوماسية. فى البداية رفضت، لكن الطابق الرئاسى استعان بعم شرف الذى كانت تكن له مودة، وتبتسم ملامحها إذا لمحته.

أين تنام؟ كيف تقضى حاجتها؟ كيف تدبر أمورها؟

أسئلة عديدة لم تلق إجابة، ليس لغموضها، إنما لأن أحدا لم يطرحها إلا بعد إصابتها تلك، حية نهشت قدمها، لدغتها بشراسة، عندما صرخت مبددة صمت الليل اكتشف الحرس الخاص الذى بدأ فى الظهور خلال تلك الفترة أنها تنام فوق بروز يلى نافذة مكتب مدير قطاع الفيوضات، عرضه حوالى عشرين سنتيمتراً، لم يرها أحد عند صعودها أو نزولها منه، حار القوم فى قدرتها على الاحتفاظ بتوازنها، بوضعها، لا تتقلب إلى يمين أو شمال.

رغم إصابتها استطاعت النزول، بل إنها ربطت ساقها بطرحتها السوداء التى تغطى بها شعرها حتى تقلل سريان السم، دخلت إلى المستشفى تعرج، رفضت حملها على سرير متحرك أو نقالة، تشاءمت من ذلك، لكنها خرجت إلى الأبدية.

ماذا جرى؟

همس جرى، لدغة الحية لا ذنب لها، ما جرى أن الأطباء فى هذا المستشفى يقومون بتحليل دماء المرضى وأنسجة الكلى، بحثًا عن المناسب منها لمرضى أثرياء يفدون من أقطار أخرى، يبدو أنهم كانوا ينتظرون نوعية أنسجتها، إذ كانت ملائمة تمامًا لحاكم عربى ثرى، ولأنها غريبة، مفردة، لا أهل لها، مقطوعة من شجرة، لم يكتف الطبيب باستئصال واحدة، إنما سطا على الأثنتين، طبعًا. . راحت وانتهى أمرها ودفنت فى مقابر الصدقة التى أنشأها المؤسس بقرافة سيدى عقبة، كان ممكنًا أن يظل ما جرى سراً إلى الأبد، لكن حدث أن أكتشف أحد المرضى سرقة كليته أثناء إجرائه عملية فتق، ورغم رقة حاله وضعف مكانته إلا أنه رفع الصوت بالشكوى، وفى هذا الوقت كان ممكنًا سماع أمثاله، والتحرك

من أجلهم، وإنصافهم، بعكس ما عليه الحال الآن، مثل هذه الأمور شائعة، منتشرة ولا رادع يحدها. عندما انكشف الأمر، واتضح تورط أطباء كبار انفجرت الفضيحة ولم يجر التستر على مخطىء، كبر شأنه أو صغر، وبشكل ما عرف الناس مصير نفيسة العمدة، تأسف عليها البعض، خاصة السائقين والحرس الخاص والسعاة، وبعض أهالى الناحية.

مع غيابها استقرت المتغيرات المستجدة، مثل دق أعمدة حديدية قصيرة، بعضها مزخرف، لمنع العربات من الوقوف بالقرب من جدران المقر مباشرة، لم يعد الدخول متاحًا إلا بموعد مسبق مع التحقق من الهويات، والاحتفاظ بها فى المكتب الأمامى وتقديم تصاريح مؤقتة يتم تسليمها فور انتهاء الزيارة، الآن أصبح من الضرورى تعليقها فى مكان بارز، لصق الجيب العلوى غالبًا، ويستثنى من ذلك ضيوف سيادته من الشخصيات المرموقة وهؤلاء يتم الإعداد مسبقًا لاستقبالهم ويكون فى انتظارهم أحد العاملين بالطابق الرئاسى.

آخر ما أتيح له حرية الدخول والخروج والمبيت، هى نفيسة العمدة، كانت تظهر فجأة فى أى مصعد، فى أى وقت، تتجول هنا وهناك ولا يسألها أحد عن مقصدها أو وجهتها، ويبدو أن الدقة التى أبداها المؤسس ناحيتها فى أيامه الأخيرة اعتبرت كوصية التزم بها العاملون، ولو أن العمر أمتد بها إلى تلك الأيام، لما نفع معها ذلك!

لذلك عندما ظهر الدكتور لزم الناحية الأخرى من الحديقة التى انشئت فى بداية التسعينيات لايجاد مسافة بين المقر والطريق الرئيسى الذى يخترق الضاحية، لذلك اختلف القوم فى أمره، هل يعتبر من العابرين أم أنه

لا يمت إليهم ، فى ذلك الوقت كان ممكنًا الوقوف فوق هذا الرصيف الفسيح وبيع الصحف ، أو بعض الحلوى ، مع التحوط من شرطة المرافق وهجماتها المباغتة التى تثير الذعر بين الباعة الجائلين وغير المرخص لهم .

على أى حال يمكن اعتبار الدكتور آخر الغرباء الذين اقتربوا إلى مسافة يمكن من خلالها تدقيق ملامحه ، إنه دكتور حقيقى ، هكذا يؤكد كثيرون ، حاصل على درجة علمية رفيعة ، ربما فى الهندسة ، أو العلوم السياسية ، مر باضطراب عظيم لأسباب مجهولة ، لم يعمل فى تخصصه ، إنما ذاع أمره فى مجال بعيد تمامًا عما درسه ، إذ أتقن فن الطهى ، ليس الطهى وحده ، إنما تأسيس المطاعم ، وبالتحديد ، إكساب الوجبات نكهة خاصة ، متفردة ، إنه مختلف تمامًا عن مفتش الصحة صديق الأنفوشى ، لكنه يتشابه معه فى إمكانية دخوله أى مطعم راق بالمدينة ، فى الفنادق الفاخرة أيضًا ، إذا ظهر فى أى منها يخلى له مكان على الفور ، يدقق القائمة ثم يطلب أصنافًا معينة من تلك التى اختارها وحدد مواصفاتها ، لا يتناول الطعام كجائع ، إنما كخبير ، تتضح حركة لسانه إذ يتذوق الطعام بتأن ، يبقيه قليلاً قبل أن يبتلعه ، ثم يصدر رأيه .

«من الأفضل قليل من الكسبرة . . »

أو

«لو أنك أضفت مقدارًا من الكمون مع قطرات من الخل . . »

ملاحظاته واجبة النفاذ ، تنفذ على الفور ، لا يكف عن التجوال ، يدخل فى الليلة عدة أماكن فى مناطق متفرقة ، متباعدة ، يقابل بالترحيب دائمًا ، أما طعامه المفضل فهو الطحال ، كان يعتبره ألذ أجزاء اللحم ،

بنعومته، ولسعة مذاقة، ونعومة هرسه، وقوامه اللين، ويبدو أنه من وجبات الذاكرة، إذ كان يقول دائمًا إن أفضل الأطعمة عند المرء ما ارتبط بالزمن الأول، لذلك يمكن معرفة الوجبة المقربة إلى هذا أو ذاك فى أول مدارج العمر، من تفضيل هذا الصنف أو ذاك.

عنده هو. . الطحال.

مازال يذكر بالحنين الدائم نشأته فى حارة بيرجوان، كان فى طريقه اليومى، عند الظهيرة يمر بالصاغة، ما بين سوق الذهب والفضة، والنحاسين، يقف رجل نحيل، طويل، يرتدى جلبابًا أبيض، شاهق البياض، يضع فوقه «مريلة» من مشمع أبيض، يربطها بحزام نحيل حول خصره، أمامه منضدة ذات ثلاثة قوائم، مرتفعة، يمكن لمها وفردها، فوقها وعاء أقرب إلى شكل القبة، من زجاج، ذى حليات من نحاس، يثق أن الوعاء منحدر من عصور قديمة، فلم ير مثله، ولم يسمع، فى مواجهة الرجل باب صغير، يمكنه إدخال يديه بحذق وحرص منه، تقطيع الطحال الممدد فوق خشبة صغيرة مستديرة من أشجار الجوز، مغطى بشاش نحيل رهيف الرقة والنظافة، مازال الدكتور يذكر حركة يديه إذ تقطعان الأجزاء النفيسة من الطحال.

تقلبت ظروف الحياة بالدكتور، تزوج أكثر من مرة، ربما فى كل بلد حل به، بعد بدء هجرة المصريين إلى الخارج إستدعاه كثيرون للإسهام فى تأسيس مطاعم، أبدى مشورته فى باريس، ولندن، وفيينا، ونيويورك، وزيوريخ وأثينا والبحرين ودبى وجدة وبيروت وأخيراً فى إستانبول، لم يكن يشير بالقوائم والتحاويج الخاصة بكل طبق والمقادير، بل بنوعية النشاط أيضًا، كأن ينصح مثلاً.

«لا . . لابد أن تقدم الوجبات السريعة هنا . . ومن نوعية معينة . . »

إستانبول نهاية المطاف، لم يرحل بعدها إلى أى بلد، فى السوق الكبير عثر على قبة الطحال الزجاجية، كاملة بمشتملاتها، المنضدة النحيلة، الطويلة، قطعة خشب الجوز، السكاكين الدقيقة الحادة، لو لا أنه فى إستانبول، لولا أن البائع أكد له مصدر القبة، أزمير حيث يوجد صناع متخصصون، لأيقن أنها نفس ما رآه فى سنواته الأولى، اشتراها، أحاطها بعنايته حتى أنه مدد المنضدة إلى جواره فوق السرير، وحمل الاثنين بيده رغم ما سببه من مشاكل عند دخول الطائرة المصرية .

قليلون أولئك المطلعون على حقيقة النذر الذى قطعه على نفسه منذ أربعين عامًا، أن يتفرغ لبيع الطحال إذا ما عثر على قبة ومنضدة وعدة، تمامًا كتلك التى أثارت إعجابه وخياله فى طفولته .

أما وقد رآها واقتناها وجاء بها إلى المدينة فلم يعد مضطرًا إلى التجول الليلى فى المطاعم، وإبداء المشورة، وتذوق الوجبات هنا أو هناك، كثيرًا ما سألوه عن السر فى عدم افتتاحه مطعمًا رغم أن الفلوس لم تنقصه، ولا الخبرة، لماذا لا يقدم؟

إنه الانتظار، أن يجد تلك القبة والمنضدة، هل جاء بها مباشرة إلى الرصيف المواجه للمقر، أم تنقل فى أماكن أخرى؟، لا أحد يعرف : لكن سرعان ما اشتهر أمره وذاع خبره، بحيث أصبح الطلب عليه وعرًا، رؤساء القطاعات، ومديرو الشركات الحديثة المنتشرة فى المنطقة، وبعض من الأثرياء العرب الذين يفضلون السكنى فى تلك الناحية، رغم كثرة الطلب عليه لم يزد أو ينقص كمية الطحال التى

أحاطها بشاش معقم مما يستخدم فى عمليات القلب المفتوح، رغم أهمية زبائنه إلا أنه احتفظ بالأولوية لمن ينتمى إلى المؤسسة، بدءا من الطابق الرئاسى وحتى الجراج.

مع مرور الوقت أصبح من المعالم، ولأسباب عديدة ربما منها وقار هيئته، ونظافة ملبسه، وعنايته بما يقدم لم يتعرض لمتاعب من رئاسة الحى، أو مأمور الشرطة، أو البلدية، كذلك من أمن المقر الذى كان أفراده يخاطبونه باحترام.

«يادكتور..»

لكن الدكتور اختفى، فى البداية ظنه البعض معتلاً، وندم الزبائن لأنهم لم يسألوه عن عنوانه، أو رقم هاتفه، حتى اسمه لا يعرفه أحد، السبب أعلنه البوريمى أول من يخرج من المقر إلى موقع العابرين، وكما اختلف القوم فى أمر الدكتور، تباينت آراؤهم حول البوريمى أيضًا، هل يمت إلى العابرين، خاصة إنه معروف للجميع، جميع الذين ظهروا عبر العقود الماضية، كانوا من الغرباء، معظمهم لم يعرف له أصل ولا فصل، لكن البوريمى تولى أمانة الخبيئة لسنوات طوال، وانتهى أمره إلى ذلك الحال الموجع الذى جعل كثيرون يتقبلوه باعتباره من مجاذيب المؤسسة.

مقـــدمـات

المقيـمون بدءا من الطابق الثـالث فمـا فـوق يـشعـرون بالزلزلة يـوميًا ، توقيت مـحـدد ، ربما يتأخـر ثـوان أو يتـقـدم ، غـيـر أن الـهـزة تقع بغـتـة ، مـفـاجـئـة ، تكاد تتـجـاوز زلزلـة عـام اثنين وتسـعين من القـرن الماضى ، حضورها لا يستغرق أكثر من ثانية واحدة إذا طالت ، لذلك تبدو أحيانًا كأنها دفعة ، قوة مجهـولة الكنه ، تلكم البيوت ، لا يعلم إلا الله العلى القدير المدى الذى يمكن أن تصل إليه لو استمرت .

علمـاء الأرصاد الجيوفيزيائية والفلكية أتموا إنشاء الشبكة المؤسسية للرصد ، تغطى جـميع الأراضـى التابعة والمحيطة ، كل أجـهـزتها تعتـمد على الجيل الرابع من الحـواسب الآلية ، دخـل الخدمـة بالفعل فى حـدود ضيقة ، تتبع البنتاجون .

مـا لا يعـرفه إلا عـدد مـحدود من أهل الطابق الرئاسى ، ذلك التـقـرير السـرى جـدًا ، يؤكـد أن مـركـز الهـزات يقـع فى قلب الحـفـرة الـدائرية أو بالقرب منها ، ويبدو أن ثمة ارتباطًا بالخبيئة وهذا مما يطول شرحه . المؤكد لا علاقة بزلزلة اثنين وتسعين .

خبير قبرصى يعـمل فى مركـز متخصص بالجزيرة نبه إلى ذلك أيضًا ،

يتابع الفالق الأفريقى الأعظم والشرخ الكريتى الممتد حتى أطراف بحر مرمرة، أكد فى تقرير رفعه إلى قيادة التدخل السريع بالأطلنطى أنها مقدمات وليست توابع، لذلك يجب على الوحدات المشاركة فى مناورات الخماسين والتى تبدأ مع منخفض الهند الموسمى أن تتأهب بالمعدات المناسبة، فربما تقع الزلزلة العظمى أثناء التدريبات المشتركة. أما التوقيت اليومى فحار القوم فيه، قال بعضهم إنه متصل بدوران الكوكب حول مركزه، أو بمداره الشمسى، الأسباب مبهمة فالأمر كونى.

أخطر ما تضمنه التقرير القبرصى أن مدة الهزة فى تزايد، صحيح أنه جزء من مليون من الثانية، لكن الجيل الرابع تمكن من رصدها.

مؤكد إلمام الطابق الرئاسى بتلك التقارير العلمية، والمقدمة من جهات دولية متينة يهمها استقرار المؤسسة لأسباب شتى، منها المديونيات التى لم تسدد بعد إلى صندوق النقد، وتداخلات وثيقة الصلة بالمجالين الأفريقى والعربى، خاصة أن مساهمة ذات شأن تمت مؤخراً فى القرية الالكترونية بدبى.

لم يعلن التقرير حرصًا على هدوء العاملين والمنتسبين، إنما لتغير الظروف خلال المرحلة الأخيرة، ودخول الكيان كله حقبة يبدو فيها أى شىء مثل أى شىء، بل وصل الأمر إلى الشك فى أمور معاينة مثل ظهور البوريمى، هل جرى فعلاً؟

بل امتد التجاوز إلى أمور أصولية، مثل هذا التساؤل..

هل سيادته موجود فوق أم لا؟

مجلة تصدر بالفرنسية فى بروكسل، أكد معلقها السياسى أن سيادته

يعانى مرضًا عضالاً منذ سنوات، وأن من يجلس مكانه الآن شبيه له، ما يؤكد ذلك وجود فرق فى شكل وهيئة شحمة الأذنين، تختلفان من شخص إلى آخر، تمامًا مثل بصمات الأصابع، الصور الملتقطة لسيادته منذ ثلاثة وثلاثين عامًا عندما كان موفدًا إلى مدينة سياتل الأمريكية لدراسة الجيل الأول من الحواسب الخاصة بالطائرات ذات المحركين، تختلف تمامًا عن الصور الملتقطة له فى آخر مناسبة ظهر خلالها لتحضير مشروع فيروز الخاص بفض الخبيئة.

وجود أكثر من شبيه أمر مؤكد أشار به الخبير الروسى الأمنى الذى عمل لسنوات فى الكى جى بى قبل انهيار الاتحاد السوفيتى وبدء تسرب الخبرات الثمينة، ثمة حكايات تتردد عن ظهوره فى مكانين خلال آن واحد، أو عبوره ثلاثة أبواب فى ثلاثة مقار متباعدة فى نفس اللحظة.

الجلاديوس تعرف الحقيقة، تحفظ رائحة جسده، وبصمات متعته، لكن من يجرؤ على سؤالها: هل يوجد سيادته فوق فعلا؟، كل شىء أصبح موضع شك، حتى لو كان معاينًا، مثل ظهور البوريمى، وقفزة السنغالى إلى الحفرة، وطول مكث الخطاط التركى.

ربما كان المتسائلون عن شخص البوريمى معهم حق، إذ أمضى خدمته محتجبًا عن الأبصار، لا يتعامل مع أحد إلا بقدر، الوحيد الذى كان يدخل إليه بدون تصريح فى موقعه المتصل بالخبيئة، عم صديق النوبى، كان يدخل ويخرج فلا يراه أحد لفرط انزوائه وسريانه الهادىء، ماذا جرى؟ هل عوقب بشكل ما؟ هل تم تلفيق تهمة له؟ هل لحق به أذى؟

كل شىء ممكن فى المؤسسة، وكل شىء غير ممكن، ألم يطل التشويه

المؤسس نفسه؟ واقعة تبدو بعيدة، قصية الآن، يذكرها البعض، لكنها وقعت.

عندما لحقت المحنة العظمى بالمؤسس، جرت محاولات عديدة، بعضها حذر، وقليل منها سافر، جرى إلحاق مهندس من عائلة مشهورة الثراء أمضى معظم حياته فى مدينة البندقية يتاجر فى الموارانو ويقال إنه يمتلك مصنعًا هناك، متزوج من إيطالية ميسورة، تتحدث العربية بدرجة معقولة، جرى زفافهما فى القاهرة عام ثمانية وأربعين من القرن الماضى، ونشرت الصحف أخباره لأن الورود التى زينت القاعة استوردت خصيصًا من هولندا، ولم يكن ذلك مألوفًا وقتئذ كما هو الآن، الغريب أن المؤسس كان من ضيوف الشرف، هذا ما ذكره الجواهرى عندما أسفر المهندس عن غله ونشر فى صحيفة أسبوعية وثيقة تؤكد أن المؤسس أستولى على أربعة ملايين فرنك سويسرى، ثم تحويلها من بنك فرعى فى لوزان، احتفظ بها فى حسابه الشخصى ولم يدخلها خزينة المؤسسة.

نشر صورة الشيك، وتحدى أى شخص يثبت إضافة قيمته إلى الأرصدة المعتمدة.

بسرعة صدرت ردود الأفعال، أولها وأسرعها من الطابق الرئاسى، أعلن الخليفة الأول استنكاره لما نشر، وحذر من التشكيك فى ذمة القيادات المسئولة. لكنه لم يقدم أى أدلة تنفى، لذلك لم ينطل موقفه هذا على العاملين، واعتبروه من قبيل المناورة درءًا لشبهة التواطؤ، وأن الكل يعملون بمنطق «العيار اللى ما يصيبش يدوش..»

لأول مرة تجرى حملة جمع توقيعات واسعة، تسابق الكافة إليها،

ولعب الدور الأول فى تأجيجها النمرسى الذى لم يكف عن التحرك بنفس الهمة التى تبدو منه عندما يشرع فى الإيقاع بأنثى، أطلق تساؤلات استنكارية روج عبارات هجومية ونشر إشاعات ضارية.

معقول هذا؟ أن يتهم المؤسس الذى أنشأ هذا الكيان من عدم بالاختلاس؟، الرجل الذى باع بعضا من أثاث بيته الموروث عن أجداده لينشئ هذا المقر ويفتح بيوت القوم؟

أنقلب الأمر على المهندس حتى أن البعض شك فى أصله وطعن فى فصله، كان يعبر المدخل فلا يقوم له الأنفوشى، وتلتقى نظراته بعينى عم شرف السائق أو زميله جويلى فيحيد كل منهما بنظراته بعيداً، وعندما تدخل عطية بك وضع حداً لحضوره المعنوى ثم المادى بعد أن أطلق إشاعة قوية.

أكد أن ظهوره الآن لم يكن صدفة، وأنه لا يمتلك مصنعًا للمورانو، ولا يحمل أى درجة علمية فى الهندسة، إنما هو مهرب آثار محترف، يعمل مع المافيا الإيطالية، أرسل صوراً لتماثيل نادرة من الدولة القديمة وأقنعة من الدولة الحديثة وأوانى فخارية من الحقبة البطلمية. قطع معروفة اختفت على امتداد النصف الأول من القرن، أكد وجودها طرف المهندس، بالفعل قامت الشرطة السرية المتخصصة، والتى تحتفظ بصلة وثيقة بالقطاع المشرف على الخبيئة بتنفيذ عمليات رقابية مكثفة، ثم طلب قائدها الإذن المؤسسى لمهاجمة سكن مهندس المورانو. بعد صدور الإذن لم تقم له قائمة، إذ اختفى تمامًا، وعد ذلك من مساوئ الفترة.

صار ذلك مثلاً يضرب على إمكانية وقوع المستحيل، إذا كان اتهام

المؤسس جرى يومًا، فهل يبدو التشكيك فى وجود البوريمى مبالغًا فيه رغم مثوله اليومى أمام المؤسسة.

ما غطى قليلاً على صياح البوريمى اكتشاف الشيخ عبد العزيز المغربى، ولولا أن عددا من العاملين رأوه بأعينهم وتحدثوا إليه لما صدق أحد، قيل إن فريح القتات أول من وقع عليه بصره عندما بدأت عمليات فض المغاليق التى تحول بين القوم والخبيئة، عندما رآه لم يصدق لغرابة هيئته، ولانعدام إمكانية وجود أى كائن حى على هذا العمق، وفى تلك الظروف، لكن هذا ما جرى.

غرفة مربعة، منخفضة السقف، لا باب يحجبها، إذ تقع فى نهاية دهليز فرعى، تتصدر الحجرة مصطبة فوقها حشية، يمكن الجلوس إليها أو التمدد فوقها، لوح خشب مستطيل كان الشيخ يضعه فوق ركبتيه، يستخدمه كلوح للكتابة، إلى جوار الجدار الأيمن أوعية صغيرة، ضئيلة الحجم بها أحبار مختلفة الألوان، علبة مستطيلة للأقلام متعددة الأحجام، صرة فى الركن الأيسر، مصدر الضوء غير واضح، وسط بين نور الشمس والقمر، ليس حادًا وليس خافتًا، أما منبع ذلك الهواء السارى فعسير اكتشافه أيضًا، كان الشيخ قاعدًا وأمامه اللوح، لم يستطع مذكور الثبات فى اللحظات الأولى ولولا أن أثنين من الخبراء العاملين فى الدهليز كانا بصحبته لفزع وتراجع فارًا، رؤية إنسان هنا غير متوقعة، فما البال إذا كان شيخًا مهيبًا، أبيض اللحية، كث الشعر، حاد النظرات، وإن كانت هيئته العامة توحى بالسلام والسكينة.

أبدى الشيخ حزنًا، وقام منكسرًا، بادى الألم، قال جملة ظلت عالقة بذاكرة القتات.

«ليس مقدراً لى . . »

فيما بعد وضح كل شىء عندما صحب الثلاثة واتجهوا به إلى المكتب الخاص المعد لفيروز حديثًا بجوار غرفة مدكور والتى ظلت لأكثر من أربعين سنة مقراً للبوريمى .

كل ما استفسر عنه فيروز أجاب الشيخ عليه باستسلام هين، أصبح ذلك معروفًا، شائعًا فيما بعد، وإن تعددت الروايات، غير أن جوهرها متقارب .

اسمه الشيخ عبد العزيز الإدريسى الحسنى، من أشراف المغرب، ذاع أمره باعتباره أمهر من كتب الخط الأندلسى القديم، تخصص فى كتابة القرآن الكريم، يخط بعض الآيات التى تعد الآن أنفس ما تحتفظ به القصور الملكية ومما اشتهر عن الملك محمد الخامس أنه إذا أراد التعبير عن وثيق الصلة وعميق تقديره لسلطان أو رئيس يهديه لوحة خطية لأية قرآنية من عمل الشيخ .

فى الخمسينات ولسبب غير معروف بالضبط قام المؤسس بزيارة خاصة إلى المغرب لم تعرف أسرارها حتى الآن، لكن يؤكد بعض القريبين من مواقع النفوذ أن الصلة الطيبة التى قامت بين عبد الناصر ومحمد الخامس ترجع إلى تلك الزيارة التى تمت قبل نفى ملك المغرب لجهاده الوطنى، خلالها طلب المؤسس السماح للشيخ عبد العزيز بالسفر إلى مصر ضيفًا غاليًا مكرمًا، وسيتم توفير كافة ما يطلبه لكتابة نسخة نادرة لا مثيل لها فى الدنيا من القرآن الكريم .

وافق محمد الخامس بشرط، أن يرى تلك النسخة النادرة، أن يطلع عليها فقط .

جاء الشيخ عبد العزيز الإدريسى الحسنى إلى مصر، عندما بدأ المؤسس يسمع منه دهش وإن لم يبد عليه ذلك، أراد عزلة كاملة عن الخلق، أموره من مأكل ومشرب وقضاء حاجات سيدبرها، ليس ذلك عليه بعسير، ما يرغبه مأوى قريب من الخبيئة، بعيداً عن الممرات المحصنة بالتعاويذ والأسرار، أن يحولوا بين أى إنسان وبينه، ألا يسمحوا لأى من العاملين، كبيراً أو صغيراً بالوصول إليه قبل صدور إشارة منه إلى المؤسس تفيد بانتهائه من كتابة المصحف الشريف.

ما كنه تلك الإشارة؟

ما مضمونها؟ ما شكلها؟

لا أحد يعرف، ولن يتضح ذلك أبداً، إذ أنه لم ينته من نسخ المصحف حتى ظهور أمره، مما تردد أن من بواعث قلق المؤسنس خلال اعتقاله قسرى مع بدء المحنة العظمى أن تأتيه الإشارة وهو مقيد لا يقدر على حركة، مقطوع الصلة بالقريب أو البعيد.

اختلف القوم فى طبيعتها، فمن قائل إنها علامة متفق عليها، ومن مؤكد أنها رؤيا ترد على المؤسس خلال نومه، ومن جازم أنها ظهور طائر غريب فى غير أوانه.

كل يؤكد ويقطع. أما الحقيقة فغابت، ليس مع المؤسس فقط، إنما لاكتشاف المكان الخفى والشيخ عبد العزيز على وشك الانتهاء من سورة النجم، يعنى ذلك عدم إتمامه لما بدأه قبل أربعين سنة، فمن شروط تمامه وصلاح أمره ألا تقع عليه عين، للأسف جرى ذلك، وممن؟

من مساعد فيروز الأول وصاحبه الحميم.

اختلف القوم فى سبب ندرة النسخة فمن قائل إنها على حبة قمح وبذلك تكون أصغر نسخة فى تاريخ كتابة المصحف، ومن مؤكد أنه ابتكر مداداً خاصاً استقطره من الضوء، هذا ما اختلف القوم فيه، أما المتفق عليه بينهم فيقين المؤسس أن اكتمال تلك النسخة سيؤدى إلى حلول البركة، وتحصين المؤسسة من العثرات واستقامة أحوالها.

لم يعرف أحد مصير الشيخ بالضبط، لم يره أحد، غير أن الجميع فوجئوا بتصريح من فيروز بحرى تلاه نيابة عنه فريح صاحبه، بدأه بحمد الله وشكره، وكريم نعمته على المؤسسة باكتشاف مكمن البركة ومستودع الخير، مقر إقامة الشيخ وما يتعلق به من ظروف فريدة لم يسمع بها أحد من قبل، يكفى السؤال عن مصادر مأكله ومشربه وكيفية قضاء حاجاته، أما فرادة النسخة الشريفة فأمر لن تكون له فوائد جمة فقط، بل سيؤدى إلى تمتين وضع المؤسسة وتوطيد صلاتها بدول المجموعة الآسيوية، والجاليات الإسلامية فى دول الشرق الأقصى خاصة، ما تم اكتشافه حدث نادر لا يتكرر، تركيا أقامت الدنيا لوجود نسخة نادرة من القرآن الكريم مكتوبة على حجر من الرخام الأبيض، بيضاوية الحجم، تقيم لعرضها قاعة خاصة فى قصر طوب قابو المطل على الخليج الذهبى. ما تم اكتشافه لن يمر فى صمت، بل إنه أهم من الخبيئة. نسخة من القرآن الكريم على حبة قمح حدث عالمى بكل المقاييس، حتى وإن لم يكتمل نسخ المصحف كله، لو أن الشيخ عبد العزيز الإدريسى خط سورة واحدة لعد ذلك معجزة، فما البال وقد تمكن من كتابة ثلاثة وخمسين سورة وآيات من سورة النجم.

سيجرى تنظيم احتفال مهيب بمناسبة الاكتشاف، ولن تظل النسخ

النادرة محجوبة عن الأنظار، بل سيقام لها معرض فى نفس الموقع الذى أمضى فيه الشيخ عبد العزيز تلك الأعوام الطويلة فى ظروف نادرة ليتم فيها هذا العمل النفيس، غير المسبوق.

لم يفت العاملين الصياغة التى حوت شعوراً دينيًا عميقًا لم يعهده القوم فى بيانات فيروز وصحبه، قال النمرسي عبر الهاتف لشخصية مرموقة إن فيروز يدغدغ المشاعر لتمرير أمر ما، لكنه لا يعرف طبيعته، وإن كان يشك فى استهداف الخبيئة، إن حيله لا تنفد، قادر على اللعب بالبيضة والحجر، ولغرابة ما يصدر عنه يضبط النمرسى نفسه معجبًا به أحيانًا وبقدرته على المفاجأة وعدم اللا مبالاة بما يمكن أن يلاقيه.

هل يمكن أن يصدر مثل هذا الخطاب عن فيروز؟

كثيرون أجابوا قائلين.

الله يهدى من يشاء.

ربما تاب الله عليه.

إنها المرة الأولى التى يبث فيها إعلان عام عن إقامة معرض لنسخة من المصحف الشريف، صحيح أن المؤسس وضع نسخة مخطوطة عند إرساء حجر الأساس، واحتفى بالمناسبات الدينية، وعرف عنه التشدد فى صوم رمضان، لكنه لم يتظاهر قط بالتدين، وشك بعضهم فى أدائه الصلوات الخمس، لكن زمنه كان مغايراً، الآن ينشط المتشددون، منذ سنوات صبح لكل طابق مسجد، تم إعداد غرفة أو صالة أو حيز، وأحيانًا يفترش المصلون الطرق المؤدية إلى المصاعد فتتعطل الأحوال، ولكن لا يجرؤ أحد على إبداء ملاحظة، ولم يصدر عن الطابق الرئاسى أى رد فعل

بعكس ما جرى منذ سنوات عشر، عندما قام سيادته بإحد اتصالاته المفاجئة من مكان ما بالبدالة العمومية، فوجئ بالعامل يبادره قائلاً. .

«السلام عليكم. .»

يومها أقام الدنيا ولم يقعدها، أمر بإقصاء هذا العامل على الفور، وأصدر تعليمات محددة بما يجب أن يقال. .

«هنا المؤسسة. . تفضل. .»

الآن يؤذن بعض المسئولين للصلاة عند منحنيات السلالم، وأمام أبواب المصاعد، مثل ذلك في الفروع كافة، لا تصدر ردود أفعال مضادة، بالعكس، على غير المألوف نشرت أسبوعية مستقلة صورة لسيادته وإلى جواره فيروز أثناء صلاة التراويح، ليلة السابع والعشرين من رمضان، كثيرون أبدوا الشك في نوايا فيروز، لكن عدداً لا يستهان به من الملتحين أظهروا الارتياح، وأكبروا فيه إقدامه على إعداد المتحف الخاص بنسخة المصحف الشريف النادرة، وإعطاءه الأولوية على كل شيء، بما في ذلك الاحتفال الخاص بترشيح المؤسسة لنيل جائزة الدورق الذهبي.

قال بعضهم إن الله يغفر الذنوب. .

غير أن بعض الخبراء العاملين في مراكز البحوث المهتمة بما يجرى أيقنوا بوجود مهادنة غير معلنة بين الطابق الثاني عشر وجماعات التشدد التي لم يتم الإعلان عن حضورها حتى وقت قريب، ولم يعرف سبب ذلك. أبدى فيروز همة عالية في الإعداد للحفلات التي تقرر إقامتها.

حتى تولى فيروز قطاع الفيوضات لم تعرف المؤسسة إلا مناسبات محدودة للاحتفالات، كلها طابعها البساطة، بعضها لم يستغرق إلا ربع أو نصف ساعة رغم ارتباطه بمناسبات هامة، وربما اقتصر الأمر على توجيه كلمة إلى العاملين عبر الشبكة المركزية، كما اقترنت المناسبات بصرف مكافآت، إما مبلغ له حد أدنى وآخر أقصى، أو ربع شهر أو نصف شهر، قبل التأميم الستينى مباشرة أقر المؤسس مبدأ صرف جزء من الأرباح عند تحققها بنسبة معقولة. لم تكن الحفلات تقام إلا بعد الإنجازات العظمى، غير أنها تعددت بعد تمكن فيروز وأركانه وطلوع أمرهم.

فى البداية لاحت مقنعة، مثل افتتاح الأنشطة الجديدة للقطاعات والفروع، توقيع الاتفاقيات مع المؤسسات العالمية، مد خطوط جديدة، إرساء مبادىء توفيقية.

تم إعلان التقويم المؤسسى المتضمن مناسبات محددة، معظمها يمت إلى مرحلة سيادته الحالية، على سبيل المثال تواريخ التعاقدات الكبرى، الدخول فى الكيانات العولمية، مثل الكوميسا والفيفا والفاو ومنتدى دافوس السويسرى ومنظمة الاياتا والاتحاد المناهض للكافيين والنيكتون، ورابطة ركاب درجة رجال الأعمال فى الطائرات الحديثة إلى غير ذلك، أما المناسبات المؤسسية فكلها تمت إلى حقبة سيادته، منها تواريخ توقيعه على الاتفاقيات، وما يرتبط بذلك من صور ولقطات جانبية أو أفقية أو رأسية، كذلك استقباله للوفود وممثلى الهيئات الدولية، أو الرحلات الهامة التى قام بها لتوطيد المكانة والاجراءات التى اتخذها لتصحيح المسار فى أوائل الفصول ومع تغير المناخ، وموقفه المعلن من الإجراءات

الخاصة بمنخفض الهند الموسمى والذى يتسبب فى رفع درجة الحرارة إلى مستويات يضج منها القوم، ويتخوف بسببها المتأهبين لأداء العمرة.

قال فيروز بعد أن صار متحدثًا فى أمور عديدة، مختلفة، بدءا من البورصة إلى التنسيق الحضارى واستغلال الخبيثة بأسلوب علمى، حديث، متطور، متنور، قال إن كل خطوة اتخذها سيادته أو أعلن عنها أو أضمرها تعد ثورة فى حد ذاتها، لذلك لابد من الاحتفال بها، من حق العاملين الإحاطة بها والإلمام بما تحوى والاستيعاب المتمكن لتوريث القيم المؤسسية إلى أجيال آتية ستتحمل الأمانة وتنجز الرسالة.

قال فريح القتات عن فيروز بحرى إن من حق العاملين الاطلاع على الخطط المستقبلية، والأفكار المشروعاتية، سيؤدى ذلك إلى تقوية المركز المؤسسى عالميًا، لذا وجب الاحتفال خاصة أن الحشرة القشرية التى ضربت قصب السكر فى الأراضى الجنوبية يستفحل أمرها وتنتشر لتهدد إحدى أهم الصناعات المؤسسية لفساد المبيدات الحشرية.

هكذا.. لم يعد يمر أسبوع إلا ويقام احتفال، افتتاح مشروع جديد، أو استعادة ذكرى، أو تكريم شخصية، أو لمناسبة ما، مثل موافقة سيادته على بدء تدوين مذكراته، أوتسليم نموذج توقيعه لإدارة الوثائق، أو لبدء كتابة الحوار الخاص بالفيلم الذى يدور حول حياته، أو لاستضافة مهرجان الزهور الآسيوية، أو للاحتفال بالطفل الأفريقى، والمالاوى بالتحديد، أو احتفال استعدادا وتأهبا للاحتفال باحتفال يخص مناسبة ما، فى البداية ظهر سيادته بنفسه وإلى يمينه الجلاديوس المتألقة، المزدهرة، الصاعدة النابتة دائما، وفيما تلى ذلك أناب عنه فيروز الذى صار إليه الحل والعقد، فيروز يعرف الأصول وملم بالفروع، دائما يبدأ

حديثه إلى الحاضرين مؤكدا أنه جاء لينوب عن سيادته، وإنه ينقل تحياته إلى الحاضرين، وكان ممكنا أن ينتهى إليه الأمر كله، فهو الذى يمسك المقص ويقطع الشريط ويلقى الكلمات الافتتاحية لولا الجلاديوس.

فى لحظة خلوة حميمة، كانت أصابع سيادته تستقر تحت سرتها بثلاث قراريط، تنهدت وقالت إنه ليس من المعقول أن يحل مكانه فيروز المرتبط عند القوم بأحوال لا ينفيها وأوضاع لا يصح أن تنسب إلى سيدها وتاج رأسها.

منذ فترة وضعت المقص والشريط هدفا لها، إذ أعجبها وضع الافتتاح الاحتفالى، ما يسبقه من تمهيدات وانتظار لمديرى القطاعات ومسئولى النواحى والأقسام، توجه العيون كافة إليها، كذلك آلات التصوير مختلفة الأحجام والعدسات والعيون المحملقة وراءها، ما يعقب القص من تصفيق وإفساح لخطوها المتئد، كيف تقوم بذلك وهى مديرة مكتبه؟

عندما وصلت إلى هذه النقطة كفت تحسبا لردود الفعل، خاصة أن سيادته بلغ لحيظة يفضلها إذ يداعب أوتارها بلمسات نهاوندية، وكانت تعدل أوضاعها بحيث يبلغ منها قصده ومستراحه.

تعرف أنه لم يعد يعنيه ردود أفعال العاملين أيا كان مستواهم، كأنه يدير مؤسسة خلت من أى بشر، ربما لانعدام ردود الأفعال، وعمق الإحباط المخطط له بعناية منذ توليه الأمور، قديما أولى المؤسس تقارير الرأى العام أهمية، بل كثيرا ما عدل بعض قراراته بعد اطلاعه عليها واستوحى أفكاره منها. هذا لم يعد له معنى الآن لأسباب عدة، تتنوع من تضاؤل ردود الفعل، إلى الثقة الراسخة فى الطابق الرئاسى، حتى تفكك الاتحاد السوفيتى والاضطرابات الداخلية التى سادت بعض جمهورياته

الآسيوية خاصة طاجيكستان، أما المتشددون فالأمن الوقائى والسياسى والعلوى كفيل بهم، رغم هذا كله، تظل بعض الأمور الشكلية التى يجب أخذها فى الاعتبار، خاصة إذا تعلق الأمر بسيادته وعلاقاته الخارجية، خاصة بصندوق النقد، ومنظمة الفاو، والكوميسا التى تعلق عليها المؤسسة آمالا كبارا.

وضعها الحالى لا يجعل قيامها بالافتتاح مقبولا، صحيح أنها توقع بدلا منه، وتحتفظ بنسخة من الختم الثلاثى، لكن هذا كان لا يكفل لها موقعا يمكنها من قص شريط، أو إلقاء كلمات افتتاحية.

فى البداية لم يكن يفضل ظهورها العام، ربما بتأثير غيرة، أو لانطوائه وكراهيته تكرار المقابلات والإصغاء إلى عبارات المرءوسين، وربما رغبة منه الحفاظ على خصوصية بينهما، خاصة اللمسات النهاوندية، يعرف أن جهات شتى تهتم بجميع المعلومات عنه، وسائلهم لا تقف عند حد، ومن خلال رصد ردود أفعالها، أو هيئتها اليومية يمكن التوصل إلى أشياء، غير أن تأثيرها عليه، خاصة فى اللحظات الحميمة لا يمكن صده، وهذا تساؤل كبير حير القوم، كيف تمكنت منه وتوصلت إلى ما لم تدركه كل من عرفهن قبلها، هو الملول، سريع النفار؟

المهم. أنه أصدر مرسوما اثنى عشريا باعتبارها ممثلة شخصية له فى الشئون التفصيلية والاحتفالية، أول من بادر إلى تهنئتها فيروز وصاحبه الحميم فريح، قبل يدها واعتبر القرار دخولا لمرحلة مؤسسية مغايرة سيكون لها أبلغ الأثر لتوطيد المكانة الدولية، اقترح عليها ترتيب الإجراءات وتنويع المراسم بحيث يتم الجمع بين مدارس واتجاهات مختلفة فى انصهار مبتكر جديد.

فى البداية لم تفتتح إلا المشاريع ذات الطبيعة الخلوية، ناقصة الكثافة، مثل مركز إنتاج الأطفال فى الأنابيب الأسطوانية، أو مصنع إنتاج الألوان المائية، أو معمل إعادة تعبئة المواد اللازمة للتحاليل الطبية.

أبدت عناية بتفاصيل دقيقة، مثل نوعية القماش المتخذ منه الأشرطة، طلبت نوعا من الكتان الطبيعى المخلوط بحرير من دود قز شرنقى لا يعيش إلا فى مقاطعة سنكيانج، ومحدد بخيوط تنسج فى العاصمة اليابانية القديمة كيوتو، أما المقصات فمن صنع سويسرى، ولا يستخدم كل مقص إلا مرة واحدة يصبح بعدها جزءا من التراث المؤسسى.

تولى فيروز توجيه المصورين إلى زوايا معينة لأصابعها أثناء قيامها بالقص، ومنع مراسل الوكالة الأيسلندية من حضور الحفل التالى لمخالفته التلقين، أما وجهها فلم تصدر بشأنه أى تعليمات، كان حالة استثنائية بالنسبة للتصوير، جميل مناسب من أى زاوية، لم يشبهها من قبل إلا أنثى واحدة غابت عن الواقع الآن، سعاد حسنى الفنانة البديعة التى أصبحت ذكرى عطرة.

لاحظ فيروز بدقة ملاحظته وحدة بديهته، اندماجها لحظة القص، استغراقها عن كل ما يحيطها، أحيانا تعض شفتها السفلى عضا خفيفا، لطيفا، كأنه رد فعل للحيظة نشوة أو اندماج مكين، لهذا حرص على اختيار مقصات أقل حدة، ثم أضاف لمسة موسيقية، عندما خصص لحنا من بحيرة البجع يصاحب تقدمها أو ظهورها، وبلغ من تناسق خطوها مع الأنغام وكأنه أعد لها خصيصا.

بتكرار حضورها، وتدبير الطقوس، علا شأن الافتتاحيات، وراج

أمر الاحتفاليات، ظهورها متعدد المستويات، فهى تضفى أهمية على المناسبة لأنها تمثل سيادته، ليس للصفة الرسمية، إنما لقربها، لأنها تراه، تخاطبه، تصغى إليه، تلمسه ويلمسها، ولا حدود لما يمكن للأفئدة أن تتخيله، أغرب ما تردد بين السائقين همسا أنه لا يقربها، يكتفى باللمس، ولكن قوة متانتها تأتى من الدور الذى تقوم به مع بعض أثرياء العرب، وكبار المستثمرين ومسئولى الكوميسا المتنفذين.

إنها الجلاديوس المبهرة، الزهرة، التى تلحق الدوار بكل من يتطلع إليها، إنها الجلاديوس وكفى، فيروز بوسامته وملاحته وقوة حضوره لا يكاد أحد يراه إذا ظهرت، ليس إلا تابع بجوارها، بل إن بعض أفراد الحراسات الخاصة أطلقوا عليه «حامل المخدة» أى الوسادة الصغيرة زرقاء اللون، قطيفية القماش التى يرقد فوقها المقص السويسرى قبل تناولها وإمساكها به، بلغه ذلك فضحك ضحكة لا تصدر عنه إلا إذا خلا بمن يرغب، قال مضيفا من عنده «نسوا المقص دار. .»، ثم لوح بإصبعه البنصر حامل الخاتم الماسى المرصع بفص من الزمرد الفينيقى النقى، هو صاحب العبارة التى صارت مأثورة. .

«إنها الجلاديوس وكفى. .»

يعنى مثولها رضا الطابق الرئاسى، ورعاية سيادته للمشروع أو الداعى أو صاحب الفرح، يكفى أن تنشر المجلات الأسبوعية المتخصصة فى الأفراح والحفلات الاجتماعية صورة سيادتها أثناء القص أو عند تصفيقها على إثر الانتهاء من كلمة ترحيبية أو افتتاحية. أفضل ما تقرأه من نثر فريح الذى قدمه فيروز إليها باعتباره موهبة استثنائية كانت الخبيئة فى حاجة إليها.

ظهورها يعنى أخطارا للكافة بدءا من المؤسسات المصرفية والمالية حتى الشخصيات الاعتبارية، والمعنوية أن المشروع الذى تفتتحه أو الحفل الذى تحضره تحت الرعاية العلوية.

مع توطدها وذيوع أمرها واستفحال جمالها وتأثيرها، أصبح الكل يتمنون حضورها وليس مجيئه، ألم يترك لها الحل والربط، والأمر والنهى، إلى درجة مثولها فى الاحتفالات الخاصة بالذاكرة المؤسسية، والتى لا ترتبط بافتتاح مشروع أو توقيع اتفاقية، إنما بمناسبات معنوية وتاريخية معظمها مشكوك فى أصله، عادة يحضر ممثلو السلك الدبلوماسى المعتمد والهيئات النفوذية.

مصادر موثوقة تؤكد أن نقل السفير الأمريكى قبل إتمامه المدة القانونية بسببها، رآها فى حفل استنهاض الهمم لإنقاذ الأطفال الأفارقة من مرض نقص المناعة المكتسب، منذ أن دخلت دائرة بصره لم تفارق، بدأ يخرج عن طوره ويتجاوز دوره، يتعقبها حتى فى الحفلات التى لا يُدعى إليها، ويتقرب منها، بل ويرسل إليها الزهور، يطلب من شقيقتها إعداد باقة نفيسة منسقة على الطريقة اليابانية، توصل إلى معرفة رقم محمولها، هنا تجاوز الممنوعات المدرجة فى القائمة الشرق أوسطية، عندئذ صدر قرار بنقله إلى ديوان الوزارة بواشنطن قبل إتمامه المدة المتعارف عليها، جرى تعتيم عليه حتى إنه غادر قبل زيارات المجاملة المتعارف عليها، وبدون حفلة وداعية.

هل جرى بينهما ما يكون بين الرجل والمرأة؟

المؤكد أنهما تحدثا مددا طويلة، ولكن أفراد المارينز المكلفين بحراسته، أكدوا فى تحقيق خاص جرى معهم أنه لم يلمسها، لكن تأثيرها عليه

وصل إلى حد أعتبر فى واشنطن خطر، وجرت تلميحات خلال المباحثات المؤسسية، إلى أساليب غير مدرجة فى القوائم، وخشى البعض انعكاس ذلك على فرص الدعم المتوقعة.

أصبحت الهدف المفضل لآلات التصوير الخاصة بالفضائيات العربية والأجنبية، ولأسئلة مراسلى وكالات الأنباء والهياكل الإعلامية، توارى فيروز عن افتتاح أى مشروع أو مناسبة، ولأنه واعر، يعرف مواقع خطاه جيدا، تراجع ليمسك لها الشريط لحظة القص أو الوسادة التى يرقد فوقها المقص، بل إن بعض المؤسسات الأجنبية العملاقة صارت تسعى لدى فيروز المقرب منها حتى تقبل افتتاح فرع أو حضور مناسبة توقيع، وتردد أن فيروز جنى من ذلك أرباحا طائلة، لكن الخبراء بأوضاع المؤسسة يهزون أدمغتهم أسفا وسخرية، يرددون، وهل يحتاج.. الخبيئة كلها معه، إنه يفعل ما يريد، وما لم يجرؤ عليه العتاة المتمكنون ينفذه ببساطة ويسر.

يردد بعضهم ما يؤكد دناءة نفسه، ورغبته الحصول على أى شيء بدون مقابل رغم تناسى ثروته وتزايد مشاريعه، حتى تردد أنه شارك مؤخرا فى مشروع للفنادق الطائرة، بعد مشروع الفنادق العائمة.

حدث أن المؤسسة أقامت معرضا لبعض المنتجات الهندية، ذهب بتكليف من سيادته لافتتاحه قبل احتكار الجلاديوس لهذا كله، راح يتوقف أمام العلب المصنوعة من خشب الصندل، والحرير المشغول، والعاج المنحوت، ثم راح وجاء أمام قطعة نسيج عليها طيور مشغولة بخيوط حريرية دقيقة، نحيلة، ألوانها متناغمة، عجيبة، جميلة حقا، إن خبرته بالألوان يشهد لها الكافة، وقدرته على التنسيق بينها مثار

إعـجاب، ولولا أن صـاحبـه الحـميم فـريح لفت نظره، لأصبح مكتبه الأجمل فى المقر كله.

عادة يقوم أحد مساعديه ـ فريح غالبا ـ فى لفت نظر أصحاب المشروع أو المعرض أو أصحاب الحفل إلى ضرورة تقديم هدية إليه لضمها إلى توابع الخبيئة، يؤكد أنه لا يضيفها إلى مقتنياته، ولكن هذا التقدير موجه إلى المؤسسة، يبدو أنه تحدث إلى الهنود فى ذلك، ولكن المسئول الهندى غض الطرف عن اهتمام فيروز بقطعة القماش، وتراجعه ثم تقدمه وميله يمينا ويسارا ليتأملها ويتفحصها مبديا إعجابه، مستفسرا عن مكونات الألوان، غير أن الهندى عمل أذنا من طين وأخرى من عجين، كأنه لم ير ولم يلحظ، أضمر فيروز غيظا وحنقا حتى خشى عليه فريح فراح يهون عليه ويصف الهندى بالغباء، فيروز أقسم أن يعطل اتفاقية الشاى المنتظر توقيعها واستيراد كميات الخريف من سيريلانكا ومملكة نيبال..

ماذا سيفعل بهذا كله؟

ما هذه الرغبة فى الاقتناء، هو الفردانى، الذى لم ينجب وليس لديه هموم، ويده غير مبسوطة، لكن من يعرفه عن قرب يؤكد غير ذلك إذا تعلق الأمر بشقيقاته الثلاث وفريح صاحبه، وبعض من أرضوا رغباته يوما، أنه لا يقدم إلى شقيقاته وأزواجهن أموالا، إنما يتيح لهم فرصا، خلال سنة واحدة من توليه قطاع الفيوضات، ودخول الخبيئة تحت نفوذه، تبدلت أحوالهم، زوج الكبرى أصبح وكيلا لشركة مقاولات متعددة الجنسيات ستتولى مشروع المبنى الجديد لأصول الخبيئة، ابن الثانية أصبح متعهدا لبيع المستنسخات وتصديرها، أما الشقيقة الثالثة والتى قال عنها أنه يتفاءل بها إلى درجة أن أى خطوة يقدم عليها لا يشرع

فيها إلا بعد مروره عليها، ومطالعته ملامحها، وشربه كوبا من القرفة باللبن من يدها، أخته هذه أصبحت سيدة مجتمع، أرجع شقيقها سبب ذلك إلى إتقانها تحويجة البن، ذلك أنها ورثت عبر تجارب عديدة إضافة إلى خبرات متوارثة في إطار العائلة إلى تكوين مجموعة أخلاط تضاف إلى البن المطحون وارد اليمن، بن غامق درجة من اللون لا يعرفها إلا الخبراء ترتبط بمناخ معين لا يتوفر إلا قرب مدينة «أب»، حبهان هندى، ومستكة حبشية، ومسحوق زهور برية تنمو قرب مدينة الطور جنوب سيناء، إضافة إلى ما لم تفض به إلى أحد وهو كثير، ذاع أمرها بعد أن بدأ رواد سلسلة الفنادق المؤسسية في التساؤل عن مصدر نكهة القهوة التي يتم إعدادها لمن يرغب لمدة ساعتين صباح كل يوم بالتوازى مع الإفطار وبعد الظهر من الخامسة إلى السابعة، وفد من أجلها مشاهير الفنانين والسياسيين المتقاعدين في البداية ثم جاء من هم في الخدمة، ورجال أعمال ورؤساء توكيلات محلية شهيرة وكبار المتنفذين في الميناء القديم، بدأت تطرح من خلال الحلبى أكياس لا تحتوى إلا كميات صغيرة، لا تتجاوز المائة جرام، الحلبى دكانه ضيق، لا يتسع فراغه إلا لقامة رجل واحد أو امرأة واحدة، أمره مشهور من خلال الهريسة، الحلوى الوحيدة التي يتقنها منذ أن حل جده بالثغر، لم يكن ممكنا الحصول على البن المحوج إلا من خلاله، حتى القناصل الفخريون بالمدينة لم يكن باستطاعتهم إلا الذهاب بأنفسهم أو إرسال من يثقون بهم ويعرفهم الحلبى شخصيا، اشتهر أمر البن وعرفه الجميع بتحويجة الست، قلائل هم الذين يعرفون اسمها بدقة، ذاع أمرها وأقبل بعض رؤساء الدول على طلب التحويجة، ولكن توفيرها كان يتم على شكل هدايا إلا إذا ساءت العلاقات وتكدرت الأجواء السياسية، يؤكد فيروز

بمناسبة وبدون أن التحويجة عادت عليها بالملايين، لم يتصور يوما أن غرامها بالبن سيؤدى إلى تلك الثروة.

لكن بعض المغرضين ومن بقلوبهم مرض يؤكدون أنه يشيع ذلك حتى يحرف الأنظار عن مظاهر الثراء المفاجئ الذى عرفه الناس فيما يتعلق بأحب شقيقاته إليه، لا صلة لها من قريب أو بعيد بتركيبة التحويجة، إنما هى مجرد موزعة لمن توصل إليها منذ عقود ومازال مجهولا، مختلف فى أمره، كثيرون يؤكدون أنه الحلبى نفسه، ولسبب ما يخفى الأمر، أما مزاعم فيروز فيكذبها معرفة القصر بالتحويجة قبل أن تولد شقيقته، من الثابت أن الملكة نازلى ـ عرفت هذا البن وتذوقته وكانت تقدمه لضيوفها فى قصر المنتزه.

صحيح أن ذلك توقف بعد قيام الثورة عام اثنين وخمسين من القرن الماضى لكن استؤنف الأمر عندما هام عضو مجلس القيادة صلاح سالم حبا بأميرة من العائلة، قدمت إليه فنجانا متقنا فهام بها وأدمنها، أخبر زملاءه وأهدى إلى بعضهم مقادير صغيرة مما حصل عليه، لكن بعضهم رفض لأنها تمت إلى بقايا العصر الملكى، فى الستينيات تم تداولها سرا، لكن بدأ أمرها فى الذيوع مع ظهور الأثرياء الجدد ورغبة بعضهم فى الانتساب بشكل ما إلى العصر الملكى، عن طريق إحياء تقاليده أو إعادة أمور مرتبطة به، منها التحويجة.

مغرضون آخرون زعموا بدخول شقيقة فيروز على الخط بعد أن ألمت بقبس من السر، وتحولت من موزعة إلى منتجة، من هنا يمكن القول إنه لا صلة بين التحويجة المتداولة حاليا وتلك المتداول أخبارها بين الناس.

الفئات الهامشية خاضوا فى الأمر، عمال النظافة، السائقون، عمال المصاعد، سعاة البريد، المكلفون بمطاردة الفئران والحشرات السامة والزواحف الخطرة مثل أم أربعة وأربعين والعقارب السوداء التى تظهر على فترات متباعدة وبأعداد كبيرة وسلوك وقح.

لم يصدق هؤلاء ما أشاعه فيروز، قال أحدهم ـ عامل مصعد ـ إنه استوحى ذلك من تحويجة آل النبراوى الخاصة بطواجن السمك، النبراوى الذى كان السبب الأول فى تثبيت أمر فيروز، مع ذلك لا تمر فرصة بدون أن ينال منه الآن، ويظهر الكراهية له، ويؤكد موته بحبة فياجرا.

طبعا فيروز أتاح الفرصة لشقيقاته، خاصة الصغرى، ومما ساعده على إخفاء ذلك اختلاف أسمائهن، فيروز بحرى اسم مركب، إنه اسمه بمفرده، أبوه هو الطودى المسعدى، ما من معلومات مؤكدة عنه، البعض يقول إنه على قيد الحياة، يمده فيروز بكل ما يحتاج إليه، يوفر له إقامة مريحة فى جزيرة صغيرة أمام الساحل اليونانى الجنوبى، ولا يُعرف سبب ذلك، آخرون يؤكدون وفاته قبل أربع سنوات، تم دفنه بمقابر اللادينيين القريبة من شاطئ إسكندرية بناء على رغبته، لم يخف إلحاده وجاهر به، أوصى بدفنه فى تلك المقابر التى ترجع إلى العصر الكولونيالى، عندما تواجد الأجانب بكثرة وشاع التسامح، أما ما يزعمه فيروز عن إقامته بجزيرة متوسطية فليس إلا مجرد إشاعة لإخفاء موقف والده الذى يمكن أن يستخدمه المتشددون، السلفيون للهجوم عليه والنيل منه، ألا يكفى ما يتردد ويقال عنه، حتى ليشفق عليه بعضهم خفية، يتساءلون: كيف يتحمل هذا كله؟

عند ظهوره فى اجتماع أو حفل يتطلع كثيرون إليه ، إلى كل ما يصدر عنه ، إلى قوامه ، خاصة ما تحت الخصر ، إلى مؤخرته النحيفة ، بل إن مسئولا أمنيا اشتهر بطول اللسان وصراحته اللامحدودة اعتاد أن يغمس أصبعه الوسطى فى راحة يده عند المصافحة ، لا يبدى فيروز علامة ضيق أو انزعاج ، كأن شيئا لم يحدث ، الحق أنه أبدى جلدا ومتانة مع طول تحمل وضبط نفس .

فريح فقط هو من يدرك أن ما يظنه الآخرون مصدر مضايقة إنما يعتبر عنده باعثا على الزهو والرضا ، فريح يأوى إلى فيروز والعكس ، كل منهما يتحقق فى الآخر ويكتمل ، بالنسبة لفريح يعتبر مصدرا للحنان والسكينة منذ أن وعى مجهولية الأب والأم ، يستكين إليه كطفل ، يحب كل ما يتعلق به ، رائحته ، نطقه للكلمات ، لوازمه ، حركات يديه ، تراجعه إلى الوراء ، ميله إلى الأمام ، تعبيره عن أفكاره ، لمعة عينيه ، تطلعه الصامت إلى نقطة ما فى الفراغ ، قدرته الداخلية على تجاوز أى حدود ومنتهى الأطر الموضوعة والمكتسبة ، تباهيه بما يبدو منه وإشهاره ما يقدم عليه سرا وعلانية .

«فلتة . . »

هذا ما يصف به فريح صفية ، لا يعنى ذلك أنهما لا يختلفان ، أحيانا يتخاصمان ، غير أن وقوع ذلك يعنى محنة حقيقية لكل منهما ، المقصود الشقاق الحقيقى وليس ما يتظاهران به ، إذ كثيرا ما يشكو بعض العاملين ، أيضا رؤساء القطاعات من فجاجة فريح وقلة تمسكه بأصول المعاملات وتجاوزاته ، يصغى فيروز بعناية ، يبدى غضبا ويتعمد طلب فريح عبر الهاتف ، يسفر عن حدة بالغة يتدفق الدم بسرعة عبر شرايينه ، يبلغ من

التوتر درجة مزعجة حتى أن بعض الشاكين يبدون الرغبة فى إنهاء ما قدموا من أجله، غير أن البعض بدأ يكتشف زيف الغضب الفيروزى وخواءه رغم مظهره القاسى، شيئا فشيئا بدأ يستقر عند الجميع يقين باستحالة الفصم بينهما، أو الولوج، حتى لو وقع خصام حقيقى فلا يؤدى إلا صوب التمتين والترسيخ، وهذا الشقاق العابر لا ينتج عن سبب يخص ثالثا أو غريبا، إنما يبدأ من أمر يخصهما.

مما عُرف عنهما إقامتهما معا مدة وانقطاعهما عن الكافة، فصمهما العلائق واختيارهما الحالة، تبدأ الخلوة عند وقوع حدث غير عادى سلبا أو إيجابا لأى منهما، ينزع كلاهما إلى تجسيد حالة، أو استدعاء احتياج محدد، أحيانا على سبيل المثال وليس الحصر، يمضيان معا إلى الطابق تحت الأرضى فى ضاحية المعادى، ينقطعان عن كل ما يتصل بهما، حتى بعد صيرورة الخبيئة إليهما لا يتفقان على أمر، لا ينطقان، لا يحتاجان الكلام، ما يبطنه هذا يتماثل مع ذاك، وما يشرع فيه الأول يدركه الثانى، كل منهما قرأ الآخر وحفظه، لم يضن أى منهما على الآخر بشىء، فيروز أقدم على ما بذل الجهد والطاقة للحيلولة بين الآخرين وبينه، أى الاقتراب من الجلاديوس، لكم راقب اتجاه نظراتها. أو نغمات صوتها عند التحدث إلى الآخرين، حتى إذا لاحظ ودا أو استلطافا يضع الشخص المعنى على الفور فى بؤرة اهتماماته، يذهب شرقا ويرتد غربا ويتوقف هنا ويركض هناك لقطع الطريق على أى محاولة للاقتراب أو اثبات المكانة، لم يسلم أحدهم منه، وأثمرت جهوده فى سائر الحالات، لم يستطع أحد التأثير على مكانته، بدءا من تدبير أمورها الأنثوية، وعلاج الغازات الطبيعية التى تسبب لها حرجا، حتى حمل المخدة التى

يستقر فوقها المقص، لكنه سعى طائعا، مخيرا لتقريب فريح، دعاه إلى حضور اجتماعين وأوصاه بالإفصاح عن آرائه والشكل الذى يبدو به حتى ينال ثقتها، إلى أن خطا الخطوة الكبرى، عندما تخلف عن حضور حفل افتتاحى هام.

بدأ الأمر بسعى متواصل من شركة ثورن كروفت الإنجليزية، كونية النشاط لتتفضل بافتتاح المقر الجديد لفرعها الذى يعمل بالتنسيق مع المؤسسة، والعائد بعد انقطاع ستة عقود، إذ كانت الشركة تدير شبكة كبرى للمواصلات، قوامها أسطول من العربات مختلفة الأحجام، مطلية بلونين، الأبيض والأخضر، مركزها ميدان العتبة الخضراء، لكن تم تصفية هذا بعد ثورة يوليو واعتبرت الشركة من بقايا العصر الاستعمارى.

أدار فيروز الاتصالات باقتدار شهد له العدو قبل الصديق حتى تحققت عودة ثورن كروفت واستئناف صلاتها الحميمة بالمؤسسة، تحدد يوم معين للافتتاح، وأعد مقص تم تصميمه خصيصا، ومخدة من الحرير الطبيعى المنقوش، نجح فيروز فى تنفيذ رغباتها كاملة، ومنها بث الحفل مباشرة عبر الأقمار الصناعية المتمركزة فوق الأطلنطى والمحيط الهندى، حتى يمكن رؤيتها شرقا وغربا، أى نجاح هذا؟، أن يرى الناس من أجناس شتى شعار المؤسسة مقترنا بثورن كروفت، نجاح لم يتوقعه المؤسس فى أزهى تجلياته، أما من يقود الافتتاح ويعطى إشارة البدء فواحدة من أجمل نساء المعمورة قاطبة، فاتنة الطابق الثانى عشر.

قبل الموعد المحدد بثلاث ساعات اتصل بها فيروز متحشرج الصوت مما أفزعها وسبب لها خضة، قال إنه مضطر للاعتذار بسبب اضطرابات معوية مفاجئة، ألزمته الفراش، ثم قال بصوت واهن إنه لا يثق إلا بفريح

ليحمل المخدة والمقص، كما أن هيئته مشرفة، تليق بالوقوف إلى جوار سيادتها.

هكذا ظهر فريح فى الصورة، مما عد إشارة إلى كل مغرض أو من بنفسه مرض ليكف ويرتدع، مما أثار انتباه المحيطين بالجلاديوس، خاصة الموظفة المسئولة عن حمل هاتفها النقال إن فريح كان جاهزا، مكتمل الأناقة، كأنه يتوقع ذلك.

على أى حال عُد ظهوره فاصلة وعلامة، خاصة أن الحفلة لاقت إعجابا وأحدثت أصداء واسعة، أكد فيروز فى أول اجتماع مؤسسى أن البنك الدولى بدأ يعيد تقييم الأوضاع فى اتجاه إيجابى بعد ظهورها المبارك، لذلك يجب الإسراع بإقامة تاج الحفلات.

أى حفلة بالضبط؟

تلك المتعلقة بالخبيئة؟

أرهف العاملون آذانهم للإصغاء، ستتجاوز الأبهة كل ما عرفه القوم عن افتتاح قناة السويس، وأفراح الأنجال والاستعراضات الكبرى فى العقد السادس من القرن الماضى.

ماذا أبقى فيروز للخبيئة؟

تساؤل تردد بأكثر من صيغة، لكنه عكس ما يشعر به الجميع من قلق وما يتردد من هواجس بعد فض الخبيئة، وخطوات فيروز المتمكن، الناقد، لم يعد أى إنسان بقادر على التنبؤ بما سيجىء به الغد، لم يعد ممكنا القطع بشىء، حتى الوقائع المعاينة، المحسوسة صار مختلفا فى

حدوثها . وهذا من أدق الأمور الناتجة عن حضور فيروز القوى، المؤثر، جرأته على الخبيئة وما يدبره لها .

ما من يقين مؤكد الآن .

هذا ما يسود بين الكافة بعد الإجراءات التى اتخذها .

هل سيادته فوق أم لا؟

هل يوجد هو أم شبيه له يمارس مهامه .

هل ظهر البوريمى بالفعل أم أن الأمر مجرد حكاية مفتعلة لحرف الأنظار عما يدبر، وماذا يدبر؟

لا أحد يدرى .

هزات الفتحة الدائرية تتزايد، صدر بيان عن مركز البحوث الجيوفيزيائية يؤكد أن المركز جنوب دهشور، متصل بالفالق الإفريقى، لا صلة للفتحة الدائرية بالهزات اليومية، أو بأى سبب آخر، فُسر ذلك على أنه نفى لما يشاع عن صلة ذلك بالخبيئة .

ثمة شىء ما سيقع، ما هو؟

لا يمكن القطع

لم يعد بقدرة أى إنسان ينتمى من قريب أو بعيد إلى المؤسسة الجزم بشىء، حتى الوقائع المعاينة من الكافة والتى بدأت تحدث خلال الأسابيع الأخيرة، أصبحت موضع شك .

هل هناك أوضح من ظهور السنغالى الأفريقى؟

ألم يطلق عليه حراس المواقع الأمامية ذلك لجهلهم بموطنه والبلد الذى جاء منه، لكن طوله المفرط ونحوله جعل أحدهم يربط بينه والرئيس عبده ضيوف، لم ينتبه إليه أحد إلا عند دنوه من المقر، قطع الطريق المرصوف مكان المزارع القديمة التى لم يعد لها أثر فى الناحية، منذ عقدين كانت الناحية ضاحية نائية، الآن تعد ضمن مركز المدينة، تخطاها العمران، تكاثف، ارتفعت الفنادق والمجمعات التجارية والمستشفيات الخاصة، كما افتتحت بعض السفارات والقناصل ومقار البعثات الدولية بعد أن ضاقت الزمالك وقبلها جاردن سيتى، المنطقتان المفضلتان للأجانب.

رغم التكدس ظل المقر محتفظا بهيبته ورسوخه شأن المبانى العتيقة، المعتنى بها جيدا، ساعدت المساحة الخالية حوله على إبراز تفرده وتميزه، كم من عروض سخية تفوق أى تقديرات قدمت، غير أن سيادته رفض بحسم، المبنى ذاكرة، يكفل الهيبة لحضور المؤسسة عبر الأزمنة وموقع الخبيئة.

فى السنوات الأخيرة بدت عناية، نظفت الجدران وقسمت المساحة إلى مربعات ومستطيلات ودوائر تنبعث منها نباتات الزينة والحشائش الخضراء، نسب هذا إلى تدبير الجلاديوس وهمة فيروز.

اتجه عبده السنغالى صوب مربع مزروع بحشائش ناعمة كالقطيفة، لا تنثنى مهما تعرضت للدهس، عند بلوغه هذا الحد دخل فى نطاق أجهزة الرصد الحساسة، لا تفلت منها صغيرة أو كبيرة، عبرها صدرت إشارات الطوارئ إلى الحراس المزودين بأوامر الضرب مباشرة.

طوله المفرط يلفت نظر أى إنسان، كذلك جلبابه شاهق البياض وصديرى الجلد فوقه، حقيبة صغيرة من معدن مفضض، معلقة إلى

كتفه، لحظة دخوله المنطقة الحرجة اتجه إليه حارسان، أشارا إلى جهة القبلة، نفس اتجاه الحفرة الدائرية قال لفظا اختلف القوم فيه، خاصة الحراس الذين انتبهوا إليه وتقدموا منه بدافع الحرص والفضول. شرح حاله بلغة فصحى سليمة تشى بلهجة جنوبية، قال إنه بدأ رحلته مشيا على الأقدام من أقصى الجنوب الغربى، قريته مطلة على ساحل المحيط الأعظم، خرج قاصدا الحج إلى بيت الله مشيا، عبر الصحراء الكبرى، مكث فى واحاته مددا متفاوتة، دخل إلى مصر مع قافلة ضمت ألف جمل مساقين إلى الذبح بعد بيعهم فى السوق الشهير ناحية إنبابة.

قائد قافلة الجمال من قبائل الدنكا. أخبره بأمر تلك الحفرة، اختصارها المسافة إلى مكة لمن يتمكن!

كثيرون خرجوا مثله، ضلوا أو هلكوا، قلائل جدا أولئك الذين وصلوا إلى الكعبة، لمسوا وطافوا وقبلوا، لو أنهم اهتدوا إلى الفتحة لما طال بهم الأمر. ولبلغوا مقصدهم على الفور.

لم يستوعب الحراس - كانوا ثلاثة - ما قاله، عندما بلغهما غموضه، اتخذوا الوضع الذى تدربوا عليه طويلا لاعتراضه غير أنهم فوجئوا به يقفز إلى أعلى كأنه يطير، يتجه كله صوب الفتحة، بدا مندفعا بتأثير قوة غامضة عبر الفراغ، لم يشهدوا مثل ذلك قط.

إطلاق نار متتابع، وسط بين المسدس سريع الطلقات والمدفع الرشاش، نوع خاص تم استيراده بمواصفات معينة لمقاومة الهجمات المتوقعة، لكن.. هل أصابت الرصاصات عبده السنغالى؟

نعم.. ولا.

نعم كما أكد الحراس، ليس الذين أطلقوا النيران فقط، إنما المتمركزون فى الخط الثانى والمتأهبون لتقديم العون والمدد، شهدوا بمهارة زملائهم فى التصويب وغزارة النيران التى تعنى كفاءة السلاح، والرصاصات نفذت إليه قبل وصوله إلى الفتحة. لكن جسده بتأثير الدفع الغامض استمر حتى هوى داخلها، ربما تكون الطلقات مسئولة عن سقوط الحقيبة المفضضة، عند فتحها عثروا على مخطوط عتيق عليه نص دلائل الخيرات، للإمام الجزولى، أحد الخبراء بالقسم الدولى كتب مذكرة إلى جهاز الأمن المؤسسى، شرح فيها معنى وجود دلائل الخيرات، وفى هذه الحقيبة المعلقة إلى كتفه الأيسر، قال إن المجاهدين من أبناء المغرب الأقصى اعتادوا تلاوة الدلائل قبل خروجهم إلى الجهاد ضد الغزاة أو للرباط فى الحصون المنيعة، المشيدة لصد الأجانب الآتين من البحر، ربما انتقلت العادة إلى داخل إفريقيا، لكن ما لا يمكن تفسيره، ظهور السنغالى وطيرانه إلى الحفرة.

لا.. جزم بها السائقون، قالوا إنه بدا أسرع من الرصاصات، وأن صوته سُمع بوضوح.

«لبيك اللهم لبيك.. لبيك اللهم لبيك..»

يبدو أن كثيرين أرادوا تصديق الأمر، ربما رغبة فى وقوع شيء غير عادى يبدد ما يزداد ثقله من غموض وركود، يضع حدا لتجاوزات فيروز وصحبه المثيرة للمخاوف.

أكد بعضهم أن أجهزة الرصد المركبة داخل الحفرة على مسافات متفاوتة حتى أربعين مترا سجلت اهتزازات استثنائية، لكنها لم تبلغ حد الخطر، خبراء الرصد فى معهد البحوث الفلكية والجيوفيزيائية رصدوا

ذبذبات غير مألوفة تصدر لأول مرة، ذبذبات غير مصنفة، لا يمكن تحديد أولها أو مساراتها، لا تؤثر فى الأجهزة المتوفرة حاليا إلا بقدر غير مألوف مما حيّر وبلبل. تم الاستعانة بأجهزة معارة من وكالة ناسا تختص بدوران الكوكب وتحدد درجة الميل عن محوره، يمكن القول إنها دمدمات غير مألوفة تعرف لأول مرة، لم يصدر بيان خشية إزعاج العاملين، والمتعاملين، لكن تم إخطار المراكز المعنية.

غاب السنغالى، لم يخلف إلا حكايات متباعدة وتفاصيل متناثرة وأقوال لا منشأ لها.

أسبوع يفصل بين حادثة السنغالى وظهور رهيف الخطاط، بعده بأسبوعين جاء البيرونى.

لزم رهيف الخطاط - كما عرفه الجميع - نقطة قريبة من الحزام الأمنى غير مسموح الاقتراب منه، لكن باستطاعة كل من يمت إلى المقر رؤيته، قعد فى مكان لم يستقر به أحد، اتخذ وضعا يشبه تمثال الكاتب المصرى الشهير، وضع إلى جواره أدوات الكتابة القديمة، سبعة أقلام مختلف أحجامها، ثلاث قنينات للحبر، أسود، أحمر وأخضر. على ركبتيه لوح فوقه ورق ملفوف، بالطبع تم وضعه تحت رقابة دقيقة.

قال أحد المسئولين عن الأمن إن أمورا محيرة تجرى، تبدو بسيطة لكنها ذات دلالات لا ينتظر منها خير، هل ينتبه إلى ما يجرى داخل المبنى، أم إلى ظهور هؤلاء الأغراب، كأنهم نُذر؟

البعض قال إنه يدون ما يجرى بحروف غامضة، لغة قديمة كتلك المستخدمة فى الأحجبة والتعاويذ، إنه يجلس عشر أو خمس عشرة ساعة

بالطريقة القديمة، يقوم فيمشى لينًا، مبسوطًا، وكأن ركبتيه لم تدميان ساعات طوال.

هل يتصل الأمر بالخبيئة؟

ربما

هل يعد عملا سحريا ضد المتنفذين. الواصلين الجدد؟

ربما. . ما من يقين الآن

لماذا اختار هذا المكان. هل يضمر غرضا؟ هل سينتهى أمره إلى الحفرة الدائرية أيضا؟

ممكن. .

أجرى الأمن الخاص تحريات دقيقة، أكثر من جهة، كل بطريقتها لكن فى النهاية التقرير واحد، خلاصة معلومات شتى، روايتها واحدة.

نعم. . اسمه رهيف، رهيف الدراوى وليس الخطاط. الخطاط صفة أطلقها عليه من يعرفه، بلدته دراو قرب أسوان، تقع على الخط الحديدى مباشرة، نخيلها غزير، مشهورة بصناعة الخوص، تعلم فى المعهد الدينى وتفقه في الأصول، أوتى موهبة الخط من صباه، ورث عن جده مخطوطات نفيسه، نادرة، باع ما ورثه من أرض ونخيل ليشترى الأنفس، صار يرسل إلى السودان، إلى تمبكتوا وشنقيط ومالى سعيا وراء أعتقها ليتم ما بدأه جده، صار يقصده طلاب العلم من سائر النواحى، خاصة المهتمين بعلوم الأوائل، لم يرد إنسانا قط، لكنه فُجع بما لم يتحسب له ويحذره، إذ اندلعت النيران فى بيته فجأة، بيته لا غير،

لم تمس المنازل المجاورة وأكداس الحطب فوقها، مع أن الجدار ملاصق للجدار، والباب فى مواجهة الباب، التهمت فى دقائق ما أمضى عمرا فى جمعه، ما أنفق عليه ماله كله.

أقسم ألا تطلع عليه شمس النهار التالى فى دراو، خرج هائما على وجهه لا يحمل إلا علبة من الجلد المغربى بها لوح وأقلام وأحبار، قصد راهبا قبطيا فى دير عتيق يقوم عند الحد الفاصل بين الزرع والرمل، نصحه الراهب أن يعكف على تدوين ما تحتفظ به ذاكرته من نفائس، أن يطيل التحديق داخله.

هنا تختلف الروايات.

ثمة من يقول إن رهيف امتثل بالفعل وأنجز كتابة أهم ما قرأه من المخطوطات، غير أن مخطوطا واحدا بقى، أكد له الراهب إنه لن يستعيده كاملا إلا إذا مكث وقتا غير قليل قرب الفتحة الدائرية، أوصاه بالحذر.

فى رواية أخرى أنه لم ينجز أى مخطوط، وأن الراهب طلب منه السعى على قدميه إلى أقرب مكان ممكن من الفتحة وأن يبدأ. بمجرد وصوله سيتيسر أمره وتتضح له السطور والمعانى، معظم القوم مالوا إلى تصديق هذا، خاصة أنهم لم يروا بصحبته أى مخطوط، فقط القلم واللوح والحبر، لكن بعض المصادر أكدت أن من رآه لحظة الكتابة يمكنه أن يفهم، إنه يخط سطورا لا يمكن رؤيتها، كأنه يكتب بدون مداد، ربما يثبت ما قرأه فى ذاكرته.

هل اقتنع المتخصصون من رجال الأمن؟

المؤكد لديهم أن حريقا شب، وأن كتبا نادرة أصبحت رمادا، وأنه هام على وجهه بعد لقائه بالراهب.

لماذا انقضوا عليه إذن؟ لماذا أوثقوه بحبال إيرلندية الصنع. ألقوا به فى حجرة ضيقة، مصمتة، قرب المدخل المؤدى إلى دهاليز الخبيئة المنتهكة، لكنهم عندما فتحوا الباب بعد ساعات لم يجدوا أثرا له.

هكذا راح رهيف مخلفا غموضا أشد من غموض السنغالى وتساؤلات شتى، لكن الأمر مغاير بالنسبة للبيرونى، ليس فقط لأنه من أبناء المقر، إنما لاتصاله بالخبيئة زمنا ليس بالهين، صحيح أن ظهوره كان نادرا، لكن حضوره القوى، غير المرئى، أدرك الجميع حتى وإن لم يتحدثوا إليه مباشرة، يؤكد المتصلون بالجهات السيادية عامة، والثانى عشر خاصة أنه مرصود، منذ احتجاجه العصبى، المعلن يوم إقصائه عن الأمانة، يبدو أنه لم يتوقع مفارقة موقعه يوما، أقصى ما تمناه أن يغمض عينيه إلى الأبد، أن يُدفن قرب الخبيئة، هذا ما أفضى به إلى بائعة لبن كانت تأتيه بزاده، اللبن الحامض، لم يتناول غيره طيلة أربعين عاما من الخدمة، كوب على الريق صباحا وما عدا ذلك شرب الماء وكوب قبل الغروب، أى قبل انصرافه، المرأة من قرية طناش المطلة على النيل، كانت تجىء مشيا، حتى فى أيام وهنها وإعيائها لم تنقطع عنه، تعرف أنه لن يدخل معدته أى شىء إذا لم تمض إليه، عاش على لبنها الحامض وحده، يبدو أنه يتبع تعليمة مكتوبة بالقلم العتيق على جدار مؤدى إلى دهاليز الخبيئة، يقول النص المبهم لمن يجهله أن كل من يُكلف بخدمة الخبيئة يجب أن يكون خفيفا، شفيفا، لا يقرب اللحوم أو الأسماك، لا يشم البصل أو الثوم، أخبر المرأة أنه أعد كفنه.

لم يتصور إقصاءه يوما، توجيه الانتقادات إليه، إلى من سبقوه، إلى من حافظوا على الأمانة وأوفوا بالمطلوب كله، لم يهنه فيروز فقط إنما استهدفه ومازال، يصر على إلحاق الأذى به.

لماذا؟، لم يصدر عنه أى سلوك ضد فيروز وأتباعه من الغلمان، لكن مما يتردد يبدو أنها طبيعته القاسية، ألم يشنع ضد من أسدوا إليه المعروف، مثل البروفيسور النبراوى الذى لا يذكره إلا ويقرن موته بتناوله حبة فياجرا أجهزت عليه، على «الأوسوبوكو»، هكذا يطلق عليه ساخرا.

طفش البيرونى فى الضواحى والأطراف والشوارع والحارات، فى أى ساعة من الليل أو النهار يمكن رؤيته، مرتديا حلته الرمادية الكاملة التى لم يغيرها صيفا أو شتاءً، غير أن تبدلا طرأ عليه إذ انخفض كتفه الأيمن عن الأيسر، يده اليسرى يلوح بها، اليمنى فى جيبه كأنه يمسك بشىء على وشك أن يبرزه.

بدأ بمناطق الدفن لثقة غامضة عنده أن أى مدفن بالبر متصل بالفتحة الدائرية، كيف..

وماذا يعنى ذلك؟

لا يبدى إيماءة حتى!

يتجه إلى قرافة سيدى عقبة وسيدى الليثى والإمام الشافعى جنوب المدينة عند الفجر، قرب طلوع الشمس، عند العصر إلى مقابر الخلفاء، بعد الغروب يجوس بالخفير وقايتباى وباب النصر.

يقف أمام مراقد الأولياء والأقطاب ومشاهير القوم وفقراء الصوفية، يحدق في أسمائهم المكتوبة إن وجدت أو يطيل النظر إلى المراقد، ثم يتمتم بشيء ما قبل أن يمد ذراعه في تحية شبه هتلرية، متسائلا بصوت متهدج، مبحوح وإن اتخذ لهجة بكائية، تتلمس الحدة..

«هل يرضيك ما جرى؟»

بعد التساؤل يذكر تفاصيل من ملف خدمته بعد نطق اسمه كاملا ورقم بطاقته الشخصية ومحل صدورها وتاريخ انتهاء صلاحيتها وديانته ومكان إقامته.

يبدأ هادئا، واثقًا موثقًا، ثم تعلو نبرته ومع تتابع أنفاسه تتداخل الألفاظ، تصبح لغته غامضة، تتدفق الدماء إلى شرايينه، تنفر عروق جبهته وساعديه ويصل به الأمر إلى التفتفة وأحيانًا عض بعض أجزاء جسده التي يمكنه أن يطولها.

شاع أمره في مقابر قايتباي خاصة، ظنه بعض المترددين لتدخين البانجو خفية أنه نفر من الجن الشارد متنكر في هيئة آدمية، قالوا بذلك بعد تأكدهم أنه ليس مبعوثًا من مباحث المخدرات، لا يمت إلى أعوانهم بصلة. أما رواد المقاهي في شارع السيوفية وتحت الربع والمغربلين فعرفوا عنه ما لم يدركه غيرهم، إذ اعتادوا ظهوره فجأة أمام مقهى عتيق، فسيح، يرفع ذراعه على امتدادها مؤديًا التحية الهتلرية، يدور مرة إلى اليمين، إلى الشمال ليواجه الجالسين، ثم يبدأ حديثه، يتصاعد انفعاله، يضرب صدره بقبضة يده، وكلما ازداد حدة مال كتفه الأيمن حتى ليبلغ لحظة معينة يكاد يلامس فيها الأرض متوترًا، مشدودًا، متشنجًا، في مرة

خشى عليه أحدهم، قدم إليه مقعداً، بمجرد جلوسه هدأ، عندما وقف استأنف زعيقه وتوتره، كأن قطعًا لم يحدث.

«إذا قعد سكت . . »

بمجرد جلوسه يميل رأسه حتى يلامس ذقنه صدره، ربما تدمع عيناه بتأثير وارد لا يعلن عنه أو خاطرة لا يبوح بها، يهمد تمامًا، لكنه إذا وقف تعاوده الزعبوبة.

لم يكف عن الطواف، ظهر فى القرافات القديمة والحديثة، مراقد الأجانب، خاصة ضحايا الحرب العالمية الثانية من جنود الكومنولث، أمام مساجد مملوكية وكنائس وأقسام بوليس ومديريات عمل وصحة ومقار حزبية ومعابد غامضة، إلى أن ظهر قرب موقع الخطاط الدراوى، أى على حافة نطاق المقر، هنا لم يعد لفظه مضطربًا، إنما توالت كلماته واضحة، سلسلة، أفكاره مرتبة، محورها موضوع واحد، «الخبيئة».

يتجه دائمًا إلى حيث الحفرة الدائرية بالغة العمق، لم يزعق لكنه مسموع لمن يقف على بعد عدة أمتار منه، أخبر عن اتفاقيات وقعها فيروز مع هيئات ومؤسسات متعددة الجنسيات تتعلق كلها بالخبيئة، قال إن مكونات دقيقة انتزعت من الممرات السبعة بدون أى مراعاة للوصايا، بعضها معروض الآن للبيع فى صالة كبرى متخصصة فى المزادات النادرة، الأمر ليس سراً، فمن شاء الإطلاع يمكنه النظر إلى مواقع محددة على شبكة «الانترنت».

هنا يتوقف قليلا، يبدأ فى ترديد عنوان الموقع مرات متعددة لمدة ثلاث

أو أربع دقائق، تعجب الناس من ذلك، إذ كان مظهره لا يوحى أنه سمع عن تلك الوسيلة المستحدثة للاتصال.

فى يوم تال أخبر عن ترتيبات تمت لزيارات جماعية، من يقوم بها أثرياء من جنسيات شتى، يسعون إلى رؤية كل غريب، عجيب، يجيئون فى رحلات مدبرة، تصل الطائرات ليلاً، يتجهون إلى مقر الخبيئة مباشرة، يتفقدون ويتفرجون، ويتناولون طعام العشاء فى الموضع المحصن، الذى كان محصنًا، يفعل كل منهم ما يطرأ على باله وما يتفق مع حاله، ثم يغادرون عند الفجر، من المطار وإليه.

ماذا فعلوا؟

لا أحد يدرى.

ماذا أخذوا معهم؟

لا يمكن التحديد.

كرر البيرونى ذلك لثلاثة أيام متتالية، تناقل العاملون والمنتسبون والمؤقتون ما ذكره حتى أن الاهتمام قل بما تردد عن ظهور أتباع السنغالى أو عبدة الحفرة كما أطلق عليهم رجال الأمن المدججين، بدأ أمرهم قبل ظهور البيرونى بأيام، عندما شوهد عدد من الأفارقة النحاف، الطوال فى الشوارع المؤدية، لا يحملون وثائق سفر أو شهادات تطعيم ضد الحمى الصفراء والكوليرا، بعضهم يتحدث العربية بلهجة الشمال الجنوبى، لكنهم ذكروا أنهم خرجوا من حد البر الغربى المطل على المحيط، وأنهم يتبعون كبيرهم الذى اختفى، يقتفون

أثره بوسائل عديدة أو صلتهم إلى حيث انقطع، قالوا إنهم وعدوا خيراً عميمًا بمجرد ظهوره وعودته من الحج.

بالطبع ربط المسئولون عن أمن المؤسسة بينهم وبين عبده السنغالى رغم أنهم لم يظهروا عنفًا ولم يسببوا أذى ولم يثبت أنهم جلبوا معهم مواد مخالفة للقوانين القديمة والتى لم يبطل عملها بعد، لكنها مجمدة تظهر عند الضرورة الموافقة لأهواء أو مصالح المتنفذين.

كانوا يظهرون فجأة فى الطرق المؤدية إلى الفتحة، مجموعات صغيرة من سبعة أو عشرة، رجال ونساء، أعمارهم مختلفة، الحقيقة أنه لا يمكن تحديدها على وجه الدقة لنحافتهم ونشاطهم البادى وسواد شعرهم الغميق.

تم احتجاز عدد منهم، لكنهم سببوا مشكلة إذ لم يستطع أحد الاستدلال على البلد الذى خرجوا منه لإعادتهم إليه، ليس لدى أى منهم أوراق تحدد وتدل، أما أساتذة كلية الألسن المتخصصون فى اللغات واللهجات الأفريقية فلم يكن بوسعهم تحديد اللهجة التى يتكلم بها القوم، استمر ظهورهم الهادئ، المفاجىء.

صاح أحد الحراس السريين فى وجه البيرونى.

لم يجب، إنما أخبر عن آخر ما قام به فيروز، تقديمه قلادة عتيقة من نفائس الملحقات إلى الجلاديوس، وهذا ما لم يسمح به ميريت الفرنسى رغم أن ما طلبته الإمبراطورة أوجينى ورغبته من الخديوى إسماعيل كان شيئًا هامشيًا، ضئيلاً بالقياس إلى القلادة ولا يمت إلى جوهر الخبيئة، مجرد قطع صغيرة من حلى الملكة تى المعلنة، المتاح رؤيتها للجميع، لكن

ميريت اعترض وتصدى وقال إن القطع المرغوبة لا تهدى ولا تسلم إلى أحد، ما لم يتحقق للإمبراطورة الحسناء حصلت بائعة الزهور السابقة المتربعة فى الطابق الثانى عشر على ما يفوقه.

بهدوء عميق استمر البيرونى متطلعًا إلى الحفرة الدائرية، حتى أن هيئته أرجفت رجل الأمن المحترف وأرغمته على الإصغاء، قال مستمرًا، محدقًا، إن ما يجهله الجميع، أن اختفاء تلك القلادة من موضعها، وانتهاك الممرات السبعة سيؤدى إلى لحظة مخيفة، لحظة تحل فيتطلع فيها من يتطلع إلى المؤسسة فلا يبصرها مع أنها ماثلة، ويتحرك من يقيم داخلها فى أركانها فلا يبصر منها أصلاً ولا ظلاً مع أنها قائمة!

يوليو ١٩٩٨/ أغسطس ٢٠٠١

الفهرس

رقم الإيداع ٢٠٠٢/٥٩٨٢
الترقيم الدولى 3 - 0827 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

حكايات الخيبة

يطرح مشروع الغيطاني قضايا تحتضن النص الأدبي وتتجاوزه، عنوانها: أزمة الحداثة القائمة وأزمة البحث عن حداثة مغايرة، ففي مقابل حداثة اجتماعية زائفة تلغي «الذات» وهي تنفتح على «الآخر»، هجس الغيطاني بحداثة أخرى، تذهب إلى «الذات الوطنية» قبل أن تتوسل «الآخر» وتقف على أعتابه، وفي مقابل حداثة أدبية، تستقيم تارة وتنحني تارة أخرى، سعى الروائي إلى أرض خاصة به، يحاور فيها نموذجا لا يغترب عنه، وأسلوبا لا يستعصي عليه، ومنظورا أنس إليه، منذ كان صبيا. وقد تبدو رحلة الغيطاني، وقد صاحبتها الأزمنة، للبعض، متكلفة ومليئة بالغموض، تكتب ما كُتب، وتستقدم ما لا حاجة إليه. وما يقول به هذا «البعض» خاطئ ويجانب الصواب، في أكثر من اتجاه. فالغيطاني يحاور الماضي بمعرفة من الحاضر، أي أنه ينظر إلى الماضي، وهو زمن محدد ومحدود بزمن لاحق أكثر اتساعا وتعقدا، الأمر الذي يجعله يقرأ الماضي ولا ينغلق فيه. وهو يتعامل مع الموروث، وهو عمومية ثقافية، بمنظور روائي لا عمومية فيه، أي أنه يقرأ «المعطى البسيط» بمنظور لاحق متقدم عليه، ذلك أن الزمن الروائي، في دلالته الثقافية، يتضمن «زمن الموروث» ويفيض عليه، لذا، فإن نص الغيطاني لا يستقدم الماضي إلى الحاضر، ولا يرحل إلى الماضي، بل يتكوّن في زمن متغير ومتنام خاص به، يتهم حداثة ويبحث عن حداثة أخرى، يتعرف عليها، دون انقطاع.

د. فيصل دراج

نظرية الرواية العربية

على الغلاف لوحة للفنان حلمي التوني



القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
e-mail:dar@shorouk.com